الطبعة الثانية

زقاق السيد البلطي

رواية

صالح مرسي



زقاق السيد البلطي

رواية

صالح مرسي

«ولم يكُف الناس عن الحديث... حتى أصبحوا يومًا فوجدوا في السيد أملًا يصبو إليه كلٌّ منهم... رأسٌ كرأس حوت، وكفٌّ تهابها الرجال، وقامة مارد، وعينا نسر لا تخطئان، وبطل يخاوي جنيات البحر ويكتنز في صدره الأسرار، وفي بيته الجواهر والأموال ...و...وأصبح السيد البلطي أسطورة!

فمن ذا يصدق أنه يموت؟!»

هكذا... عن البحر يحكي وعن عالم القريبين منه يروي لنا الأديب صالح مرسي حكايات زقاق السيد البلطي، مانحًا إيانا متعة العيش بين سطور تفاصيلها.

الناشر







زقـــاق السيـــد البلطـــي

صالـــح مرســـي



العنـــوان:

زقاق السيد البلطي

تأليـــف:

صالـــح مرســي

إشـراف عـــام:

داليـــا محمـــد إبراهيـــم

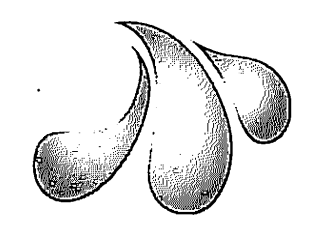
الترقيم الدولي: 1-4346-14-977-978
رقـم الإيـــداع: 10616 / 2013
الطبعــة الثانيــة: أكتوبـــر 2013

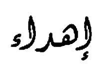


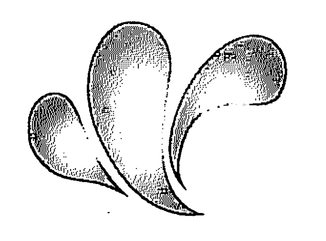
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

تليفـــون: 33466434 - 33472864 02
فاكـــس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة







إلى ابنتي أمل

فعمرها من عمر الرواية

صالح مرسي



الفصل الأول

لم تمر أم حنفي منذ سنوات بتلك الفترة التي يمر بها الناس عادة بين اليقظـة والنوم، كانت إذا وضعت رأسـها فوق الوسـادة، راحت في نوم عميق لا يوقظها منه طبل أو زمر، ثم تصحو وكأن يدًا تنتزع عن حواسها غلالة النوم على غير انتظار، فيرتفع جفناها عن عينيها، وتدير في الظلام بصرها الكليل متحسسـة به جسـد ولدها الراقد عند طرف الحجرة، ثم تستدير لتدثر ابنتها عائشة بالغطاء وهي تلومها حينًا، وتلوم حنفي حينًا، وتدللها حينًا وتدلله حينًا آخر في غير تفريق بين لوم وتدليل... وتسكن العجـوز بعد ذلك تمامًا، وترهف السـمع لذلك النـداء الذي أصبح مع مضـي الزمـن، وكأنـه يخاطبهـا فـي كل فجر من فـوق مئذنة المرسـي أبو العباس.

كانـت العجوز قد اسـتيقظت فجأة في فجر ذلك اليـوم القارس من أيـام ديسـمبر عـام 1931، وراحـت تنتظر في هـدوء صوت المـؤذن... ومضـت لحظات قبل أن تتسـاءل هامسـة - إذ كانت أم حنفـي دائمًا ما تعبـر عـن أفكارها بصوت مسـموع - إن كانت غفوة قـد أخذتها ففاتها الأذان، أم أنها لم تنم كفايتها في تلك الليلة؟...

وانتبهـت لحظتهـا - بلا سـبب معيـن - إلـى آلام ظهرهـا المتيبس وتذكرت نوبات الضعف التي أخذت تزورها في الأيام الأخيرة فتلزمها

الفراش... ففتحت فمها لتتأوه متوجعة، عندما ترامى إلى أذنيها صوت المؤذن سابحًا في سماء الحي، فنهضت على الفور من رقدتها وهي تلقي بشالها الممزق حول كتفيها ورأسها، وتهيئ لنفسها مكانًا عند حافة الفراش الذي أخذ يصر صريرًا حادًّا مع كل حركة من حركاتها، وتمتص في نفس الوقت بأذنيها تلك الأصوات والتسبيحات والدعوات التي كانت تترامى إليها من حواري الحي وأزقته كالهمس الحنون... فرفعت كفيها أمام وجهها، وأخذت تقرأ الفاتحة في خشوع، طالبة للسيد البلطي السعادة حيث يعيش.

كان أكثر ما يثير شجنها في تلك اللحظات أنه ذهب دون أن يودعها... فيفيض قلبها بالمرارة والأسى، وتمصمص بشفتيها هامسة:

«معلش يا سيد، يمكن هي أحلى مني!».

وتجذبها على الفور ذكريات لم تفقد جدتها رغم مرور عشرين عامًا كاملة، فتستسلم لرجفات قلبها وهي تتساءل في دهشة: «ترى ما شكلها؟.... هل نصفها سمكة ونصفها إنسان؟!... وكيف تعاشره إذن؟!... هل أنجب منها أولادًا؟.... وهل هانت عليه عشرتها وحبها له؟... ألا يشتاق لحنفي وعائشة؟... كم أوحشها وجهه العريض القوي بشاربه الكث الذي يغطي خديه... لماذا لم ينتبه يوم أن اختطفته تلك الجنية الصارخة الجمال؟.... هل ذهب معها برغبته، أم ذهب مغلوبًا على أمره؟!... وهل كان السيد ممن يغلبون على أمرهم؟... يقولون عنها إنها كانت جميلة كالبدر في ليلة تمامه، لكن جمالها لم يشفع لها عند السيد، فتركها وتزوج جنية من جنيات البحر... وهي لم تصدقهم،

ولـن تصدقهم... فالسـيد لم يمت، لـم يبتلعه البحر فـي جوفه، فالبحر يخاف الرجال... وكان زوجها رجلًا ولا كل الرجال!

***

ودائمًـا.... دائمًـا كانـت مـا تنتزع أم حنفي نفسـها انتزاعًا من سـيل الذكريـات المتدفـق، لتسـتدير نحـو ولدهـا وتبدأ فـي إيقاظـه بصوتها الثاقـب، ونداءاتها الرتيبـة المنغمة، وحديثها المتشـعب.... تنقد حينًا، وتمدح حينًا، تبتسـم مرة، وتعبس مرة، تحدث نفسـها، وتحدثه، تسـأل وتغضب، تثور وتهدأ دون أن تنتظر منه ردًّا أو جوابًا.. وتنادي بلا انقطاع:

«حنفي، حاااانفي، حنوووووفة، يا واد، لو ترحم نفسـك من السهر، راجـع بعد نص الليل وحاتصحـى ازاي وش الفجر؟... اسـمع كلامي يـا بني، اسـمع كلامي واتجـوز.... حاااانفـي، فين أبوك ييجي يشـوف الحال المايل؟.... فكرك انت حاتجيبها البر؟.... بكرة تعمل زيه وحياة مقام المرسي... يا واد، حانفي!».

وقـد صحـا حنفـي، وراح يتقلب في مكانـه متبرمًا، وأخـذ يزوم في ضجـر، وينطق كلمات متقطعـة غاضبة معلنًا بها عـن صحيانه، إلا أنها كانت تعلم أنه لن يصحو قبل أن يتعب قلبها.... فاسـتمرت تنادي عليه غيـر عابئة بزجـره وهي تدير بصرها فـي أرجاء الحجرة، متحسسـة في الظـلام مـكان كل شـيء... فعـن يسـارها يقـع البـاب الذي يصـل بين حجرتهـا وحجرة المعلم صادق، زوج شـقيقتها المتوفـاة، وابنته زوبة، وبجواره باب حجرتها الذي يفتح على الفناء، وعن يسـار الداخل يقوم الـدولاب الصغيـر الذي اشـتراه لها السـيد البلطـي قبل ذهابـه بأيام... وتحت أقدام الدولاب يرقد حنفي ممدًّا جسده حتى منتصف الحجرة،

وفوق رأسه منضدة مفككة المفاصل، عليها مصباح صغير اسودت زجاجته... ولا شيء غير هذا سوى السرير الذي تنام عليه مع ابنتها.

ثم... وكأن العجوز تذكرت شيئًا، إذ مالت إلى اليسار قليلًا، ومدت يدها تقرع الباب الذي يفصل بين الحجرتين وهي تنادي على زوبة:

«زوبة... زوووبة، يا بت اصحي النهار طلع».

وانبعثت على الفور من الحجرة المجاورة أصوات تنبئ عن استيقاظ إنسان... زفرات تثاؤب، صرير فراش قديم، مقعد يزاح من مكانه، وشبشب يزحف على الأرض... على أن هذه الأصوات ما كانت لتوقف نداءات أم حنفي، فاستمرت تنادي وتقرع الباب، حتى جاءها صوت زوبة المتكاسل النائم:

«صحيت يا خالتي.... صحيت».

فاستدارت نحو ولدها من جديد، بينما كانت الأصوات قد تسربت من حجرتها إلى الزقاق كله، وأخذت أذناها المدربتان تتبعان خطوات زوبة في فناء البيت، وتلتقطان صوت أمينة زوجة الحاج حسين في المنزل المقابل وهي تروح وتجيء في الدار... وعلا صوت الموقد في بيت حمودة المجاور، وقالت العجوز:

«يا واد اصحى... آهي عطيات صحيت.... حااانفي».

ودبت الأقدام في الطابق العلوي حيث يقيم المعلم جابر مع زوجته وأولاده الخمسة، ومضت لحظات كانت الأصوات تتلاقى فيها في نغم مألوف، يمثل صوت أم حنفي فيه وقع الدف في لحن شرقي... لكنها

توقفت فجأة عن النداء ثم استدارت نحو ابنتها في جزع وزغدتها بقبضة يدها وهي تقول في حدة:

«بت يا عيشة، إنتِ ناوية تنامي للضهر؟... عيـ... شة!».

ورغـم أن عائشـة كانت تسـتيقظ عند أول نـداء تطلقه أمهـا... فإنها تعودت أن تظل سـاكنة حتى تدعى إلى النهـوض، ولذلك، ما إن نادتها أمهـا حتـى ألقـت الغطـاء عن نفسـها، وغـادرت الفراش وهـي تبحث بقدميها عن مكان الشبشـب، وتتحاشـى قدر اسـتطاعتها جسد شقيقها الممـدد حتـى لا ينالهـا منه زجر أو سـباب، وأخذت تنصـت في ضيق لحديـث أمهـا الـذي تشـعب - كالعـادة - وأخـذت كلماتهـا تنقـر رأسها كالمطارق:

«يا حنفي.... يا وله قوم، لو تسـمع كلامي، لو سمع كلامي واتجوز يـا اخواتـي؟... حامـوت من غير مـا افرح بحـد فيكم، حنووفـة... هو الجـواز حـرام؟.... يـا ابني قـوم نتعت قلبـي، واللا الجواز حـرام؟... أختك آهي في حجاك لحد ما ربنا يعدلها، لكن نفسي أفرح بحد فيكم!».

وقاطعها صوت عائشة المتبرم وهي تقول في غيظ مكتوم:

«اللمبة ما فيهاش جاز!».

فقالت العجوز على الفور:

«عمريهـا من عنـد زوبة... اسـم الله، مالـك يا بت علـى الصبح... هيه؟!».

وسـعل حنفي وهو ينهض، فاستكانت أمه وهدأت، وانسحبت أخته وهي تبتلع كلمة كانت على لسانها، وأخذت يداه تجمعان الغطاء حول

كتفيـه، وتسـويان الوسـادة وراء ظهـره فيما بينـه وبين الحائـط، ثم قال في اقتضاب:

«الشاي!».

***

كانت عائشـة تعلم أن حديث أمها عن زواج حنفي سـيجد منه ذات يوم أذنًا مصغية... فلن ينتظرها شقيقها طيلة العمر، ولن يستطيع مقاومة تلك الفاجرة التي تسكن الحجرة المجاورة طويلًا... والأيام تمر، وكل يوم يضيف إلى قلبها همًّا فوق همومها.... فمتى ينتهي كل شـيء؟.... متـى تتـزوج أو تمـوت؟.... وهـل سـيأتي ذلـك اليـوم الـذي يطلبهـا فيه رجل؟!

قالـت لها أمها مئـات المرات إنها تزوجت وهي في الرابعة عشـرة، وإن فتـاة واحـدة من عائلة البلطي لم تعشـش في بيـت والدها أكثر من خمسة عشر عامًا، وها هي ذي قد بلغت العشرين... فهل فات الأوان؟!

«عمري لي اللمبة يا زوبة».

رفعـت زوبـة رأسـها، وعلـى وجهها تلـك الابتسـامة الزائفـة التي لا تختفي، ماذا يحب حنفي في هذا الوجه المنتفخ؟

«طب قولي صباح الخير يا عيشة....».

تثاءبـت عائشـة وهي تمد يدهـا بالمصباح نحو ابنـة خالتها، وقالت وهي تمضغ كلماتها وتمطها في استهانة:

«صبحك بالخير يا اختي....».

تناولت زوبة المصباح، واستدارت نحو حجرتها، وتبعتها عينا عائشة تتأملان في ضوء الفجر الشاحب جسدها الممتلئ، وكتفيها السمينتين المحشورتين في الثوب حشرًا، حتى بانت ثنيات اللحم واستدارة القوام، واختفت زوبة داخل الحجرة، وهبت نسمة باردة من باب الطريق المفتوح، فارتجفت عائشة، وضمت ذراعيها إلى صدرها، وتحسست بكفيها لحم كتفيها، فاصطدمت بنتوءات عظامها البارزة وتذكرت على الفور - في حسرة شديدة - ما اشترته من محوج وحلبة ووصفات ربت اللحم على أكتاف الكثيرات، لكنها لم تؤثر في جسدها الضامر.... فهل يسكن جسدها شيطان كما تقول أمها حقًّا؟.... وهل تسلط عليها ذلك الشيطان فامتص دماءها ووضع بينها وبين الزواج حجبًا كثيفة؟!

تقدم المصباح في يد زوبة فغمر الفناء بضوئه المختنق وراء سواد الزجاجة، وأخذت عائشة - على الرغم منها - تتأمل تقاطيع زوبة وشعرها المسترسل في إهمال جعلها أشد فتنة مما تعودت أن تراها، وارتجف قلبها لمرأى الأنف الصغير كالنبقة، والعينين الواسعتين الضاحكتين، والوجنتين المكتنزتين... لكنها ما لبثت أن تناولت المصباح عندما أطلت من عيني زوبة تلك النظرة المتسائلة الحيرى التي كثيرًا ما أوقعتها في ارتباك شديد، مخافة أن تكشف زوبة ما يعتمل في نفسها... وانفلتت بالمصباح مهرولة كمن تفر من ذنب ارتكبته تاركة ابنة خالتها في الفناء وحيدة وعلى وجهها ابتسامة واسعة، وفي عينيها نظرة معفرتة فاهمة!

وانتشر الضوء في حجرة أم حنفي، وتمددت ظلال الأثاث القليل على غير العادة... وأثار صمتها هذا مخاوف ابنتها، فراحت تختلس

النظـر وتـردده بين أمها وشـقيقها في رعـب.... أيكونان قـد اتفقا على أمـر؟... ماذا يدور في رأس أمها؟... ومـاذا يدور في رأس حنفي؟!... هـل اقترب اليوم الذي سـتصبح فيـه فلا تجد حنفي ممـددًا على أرض الغرفة فوق حشيته؟... هل...

«حنفي... ما تقوم يا ابني تتوكل على الله، اعملي الشاي يا بت».

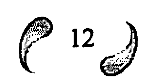
***

كان حنفـي غارقًا فيما يغرق فيـه كل صباح... أحلام تراوده حينًا ثم تنقطع عنه لتعود من جديد عنيفة حادة هوجاء، تسـلب النوم من جفونه ليالي وليالي، وتدفع النوم إلى عينيه في رفق ولذة ليالي أخرى وليالي... وتهبط عليه كل صباح عندما يصل إلى أذنيه صوت أمه، وينسـحب عنه النوم تاركًا مكانه بيقظة شديدة، وحواس مرهفة، أشدها حساسية أذنان مدربتان على تتبع زحفات شبشب في الحجرة المجاورة، أو في الفناء.

مـا الـذي يمنعـه حقًّـا مـن الـزواج؟!... هـل هـي عائشـة؟... نعم عائشة!... ولكن، هب أن أحدًا لم يتقدم لها، أو أنها ظلت طوال عمرها بلا زواج، فماذا هو فاعل؟... ثم، ماذا لو تقدم أحد الرجال للزواج من زوبة، هل يستطيع الاعتراض؟!

ترى، هل تحبه زوبة؟!

جفـل عندمـا راوده هـذا الخاطـر... خيـل إليه أنـه يعـري زوبة من ملابسـها! مـا هو الحـب؟!.... الحـب في زقاق السـيد البلطي سـلعة محرمـة، قـد يحـب الرجـل زوجتـه وأولاده، ولكـن أن يحـب فتاة لم يتزوجهـا بعد، فهذا هو الضلال بعينـه، فما بالك وهذه الفتاة ابنة خالته،



وابنـة ابن عم والده، فتاة من عائلـة البلطي، تجري دماؤه في عروقها... ولو أن أحدًا قال ذلك أمامه لما تردد في سحق رأسه، ولكن، لم الهرب وقصده شـريف... مهما هـرب ومهما فر ومهما خدع نفسـه... فما في قلبه... ... ...

«حنفي، قوم يا اخويا اتشطف، المية جاهزة؟».

رفع رأسـه فاصطدمت عيناه بوجه أختـه الدميم الواجم، وقد برزت تقاطيعـه في ضـوء المصباح فازداد قبحًا ودمامـة... يقولون إن أباه كان جميـلًا قـوي الملامح، وإن أمـه كانت كالبـدر.... فلمـن خلقت أخته دميمـة، لمـن هذا الأنـف الكبيـر، والعينـان الضيقتان، والفم الواسـع، والعظـام الناتئـة؟.... موجـات غامـرة من الحنـان تتدافع فـي صدره، فنكس رأسـه في صمت، ونهض وراء أخته إلى حيث كان الطست عند باب الحمام، دار ببصره فشمل المكان في لمحة... لم تكن واقفة، لا بد أنها تجهز الفطور لأبيها... متى تصب المياه على كفيه بدل عائشـة؟... متـى تتزوج أخته؟... متى تكف المطارق التي تهشـم رأسـه، وعائشـة لا ذنب لها... أيتركها ويكسـر خاطرها وليس لها في الدنيا غيره، أينقاد لعواطفـه كالإعصـار دون أن يتحسـس طريقـه فيسـحق مـا أمامـه ولو بالحلال؟!... لن يتزوج وليحدث ما يحدث، عائشـة أولًا وقلبه ثانيًا... ولكـن، هـل هو صـادق فيما يقولـه لأمه، لقـد هم بالأمـس أن يحدث المعلـم صـادق في المقهـى، وكاد منذ لحظـات أن يتصنـع الضيق من إلحاح أمه ويصيح فيها أن تختار له زوجة وتريحه من وجع الدماغ الذي يعيـش فيه... لكنـه تراجع اليوم كمـا تراجع بالأمـس وأول أمس ومنذ شـهور طويلـة... تصـده قـوة قاهـرة، حـب طـاغ لأختـه لـم يملـك

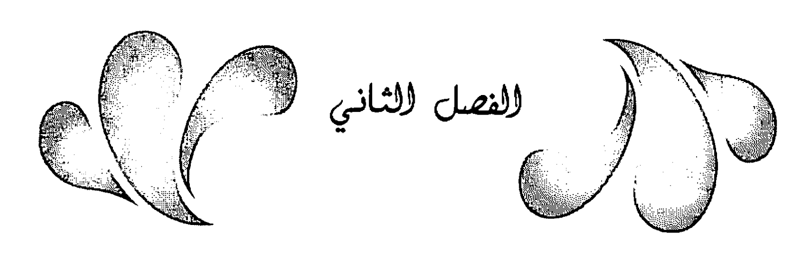
إلا الإحساس به والاستسلام له، في أحيان كثيرة كان حبه هذا يفيض فيقبل عائشة ضاربًا عرض الحائط بصيحات أمه التي ترى في القبلات مسخرة وقلة حياء!

«الشاي يا عيشة أحسن ابويا محمد زمانه اتوكل!».

قال هذا ورفع إليها وجهًا مبتسمًا وعينين يفيض منهما الحنان، وردت هي على ابتسامته بابتسامة. وهمست بصوت منفعل مرتجف:

«حاضر يا اخويا... حاضر».

واستدار... وخطا نحو حجرته... وما كاد يدلف إليها حتى هفت من ورائه رائحة، وحفيف، وزحف الشبشب في الفناء... وصر على أسنانه وهو يهمس لنفسه: **«يعني لو بدرتي شوية!»**.



الفصل الثاني

بدت زرقة السماء في ذلك الوقت المبكر رائعة تبهر البصر، وسبحت قطع السحاب المتناثرة في جماعات كعرائس أسطورية ترتدي غلالات شفافة... ودبت الحركة في شوارع المدينة وحواريها، كما دبت في زقاق السيد البلطي، وأخذت أبواب بيوته تنفرج بين الحين والحين عن رجل يسعى ويدب فوق الأرض بقدميه مسرعًا، أو طفل يحمل وعاء يسرع به إلى بائع الفول الذي كان صوته يصل من بعيد مناديًا على بضاعته بصوت أجش، أو امرأة تطل برأسها منادية على «عم حسين» بائع الحليب.

غادر المعلم صادق ابنته زوبة ككل صباح، فوقفت وسط الحجرة وحيدة، يصل إليها صوت خالتها من وراء الباب وهي تعيد موال كل يوم... ورغم أن المناقشة لم تكن جديدة في شيء، حتى في كلماتها، ورغم أن زوبة كانت تعلم مقدمًا نتيجتها المحتومة... فإن الأمل في أن يلين حنفي لم يفارقها.

دثرت كتفيها بشالها، ثم رفعت طرفه إلى رأسها وأحاطته به، وتقدمت خطوة نحو الطست القابع تحت أقدام المقعد بجوار الفراش... كان عليها أن تحمله بمياهه وصابونه إلى الحمام الذي يتوسط الفناء، عندما سمعت صوت حنفي يزمجر متأففًا من إلحاح أمه،

ترددت برهة، على أن ترددها لم يطل... راحت تمضغ في ذلك الوقت فكـرة عابثة كثيرًا مـا راودتها، الفكـرة ناعمة وتدفع الدمـاء في العروق وتصبغ الوجه باللـون القاني وتنمل الأطراف، لكنها ظلت على مر أيام طويلـة تزحف في بطء وتتمكن من نفسـها يومًا بعد يوم، بل سـاعة بعد أخرى، حتى تمكنت منها تمامًا... ومن ثم فقد تحولت زوبة إلى الباب الـذي يفصـل الحجرتيـن وهي تلقـي على الطسـت نظـرة ذات معنى، وجذبـت بأصبع قدمها الفروة العتيقة الراقدة في منتصف الحجرة حتى لاصقت الباب، ثم قبعت فوقها واسـتكانت إلى مجلسـها الذي تعودته على مر الأيام، وجاءتها الأصوات أشد وضوحًا وأكثر صخبًا...

«**يا بني اسمع كلامي... الجواز نص الدين!**».

«**والنبي يا امه، قولي يا فتاح يا عليم**».

كانـت زوبـة تعلـم أن ما تفعله عيـب لا يغتفر، ولو علمـت أن فلانة تحـب فلانًا لشـهقت وخبطت صدرهـا بكفها وصاحت في اسـتنكار: «**يا لهوتي!**»... ولو قالوا لها إن فلانة تسـترق السـمع من وراء الأبواب لقالت على الفور في نفور ودهشـة: «**يا مصيبتـي!**»... وكثيرًا ما عذبتها هذه الخواطر، لكنها كانت تجد نفسـها مدفوعة رغمًا عنها إلى ممارسة مشـاعرها ورغباتهـا دون أن تبـوح لأحـد بكلمة، وقد فـاض بها الحال ذات يوم... وأحست بعبء حبها يثقل قلبها... ولم تجد من تستطيع أن تحدثه في الموضوع سوى مسمار!

فـي البدايـة قالـت عـن نفسـها إنها لا بـد مجنونـة، فكيـف تحدث مسـمارًا؟!... ثـم قالت إنهـا قليلة الحيـاء والتربية... ثم اسـتكانت مع الأيام، ونسـيت الجنـون وقلة الحياء والتربية... ولـم تعد تمارس ذلك

الزجر العنيف لنفسها، والذي اعتادته منذ أن وعت ذات يوم - ولا تدري متى وكيف أو لماذا؟! - فوجدت نفسها قد وقعت في حب حنفي دون كل رجال الزقاق.

كثيرًا ما جلست في هذا المكان لتسمعه وهو يتحدث ويحكي لأمه وأخته عن الرزق الذي صادفه، أو الرجال الذين تشاجروا، أو الشبكة التي تمزقت وبليت، والقارب الذي يحتاج إلى ترميم... وكانت تستطيع - دون حرج - أن تذهب وتجلس معهم وتسمع حكاياته وترقبه عن قرب، لكن ذلك كان قبل أن يدب في قلبها ذلك الإحساس الذي كان يخطف روحها كلما التقت عيناها بعينيه، حتى أصبحت تفر من أمامه خشية أن يكشف هو سرها، وهو بالذات، فماذا يقول عنها لو علم أنها تحبه؟... وهل يتزوجها رجل يعرف أنها تمارس العيب وهي فتاة؟!

واكتشفت ذلك المكان وراء الباب... ثم عثرت على ذلك المسمار الذي دفن نصفه في الجدار الرطب وبقي نصفه ممتدًّا في الفضاء... تعبث به أصابعها، وتتحدث إليه هامسة، وتبثه شكواها ولوعتها، وتسأله المشورة وتتمنى لو أجابها بكلمة.

كان حنفي صلب الرأي... ما من مرة حدثته أمه في الأمر إلا وقال لها:

«**لما تتجوز عيشة!**»... وتلح أمه، وتعلق عائشة بكلمة أو كلمتين... فيصمت، وتترقب زوبة رده بقلب واجف ونفس متطايرة.

خيل إليها في أحيان كثيرة أنه سيقول: «**على بركة الله... اطلبي لي زوبة يا امه**». لكنه لم يقلها أبدًا. بل كان يندفع في صوت باتر ولهجة جادة لا تدع مجالًا لاستمرار المناقشة: «**لأ... قلت لأ... لما عيشة**

تـروح بيت جوزهـا، خـلاص!»... كانت وقتهـا تحس بطعـم المر في فمها، وتشعر كأن قلبها يلفظ آخر نبضاته في خفقات سريعة مضطربة... وعندئذٍ تمتد أصابعها إلى المسمار لتتحسسه في اضطراب وهي تهمس بصوت حزين:

«شايف... مش بيحبني!».

أفاقـت زوبـة في ذلـك الصباح مـن خواطرهـا على صوت عائشـة وهي تقول:

«جـرى إيه يـا اخويا، هـو انا حـاروح فيـن، دانا حا افضـل جنبك، النبـي امـي معاهـا حـق، حاتفضـل عـازب لإمتـى، حقـة مالكش حق يا سي حنفي».

لم يكن يهمها أن تكون عائشـة كاذبـة أو مخاتلة، لا يعنيها من الأمر شيء، بل هي لا تفكر فيها ولا تريد، كل ما يهمها في تلك اللحظات أن تسـمع صوتـه، ولو كانت كلماته فـي ذلك الوقت حكمًـا يصدره عليها بالإعـدام لتقبلتـه راضيـة، فيكفيهـا أن تسـمعه، وتتذوق رجفـة القلب وخفقته الموجعة... وقد سمعته يزجر شقيقته:

«بس يا بت بلاش كلام فاضي!».

وصاحت أم حنفي:

«والنبـي حاموت، حاموت من غير ما افـرح بيكم، يا واد اعقل بقى، ريح قلبي يا ابني ربنا يريح قلبك».

«يـا امـه قلت لـك ألف مرة مـش حانتجوز قبـل ما تتجوز عيشـة... لزومه إيه اللت والعجن بقى!».

قـال هـذا بحـدة وهـو يلقـي بكـوب الشـاي إلـى الأرض بجـواره فيتحطـم... واضطربـت زوبـة وقد تملكتها تلـك الفكـرة المجنونة... لكنهـا لـم تتردد لحظـة، ألقت على المسـمار نظرة سـريعة، ثم نهضت كمـن ألهبها لسـان من النـار، قفزت إلـى حيث كان الطسـت فاختطفته واندفعـت إلـى الخارج... وحـدث ما توقعته... اصطـدم بها حنفي في اندفاعـه خارجًـا مـن حجرتـه، فتمايلـت، وتمايل الطسـت فـي يديها، وكادت مياهه أن تندلق... لولا كفاه!

كيـف حدث هـذا، يقولون إن كفي السـيد البلطي كانتـا ككفي عملاق هائـل، ولكنهمـا قطعًا ليسـتا ككفـي ابنه، ولـم تكـن أصابعه بأيـة حال من الأحـوال كتلك الأصابع القوية الصلبة التي انغرسـت في لحم ذراعيها... ماذا لو طالت هذه اللحظات فامتدت إلى أن تموت، أو تغرق، أو تخطفها جنيـة وتخنقها... أو يحدث لها أي شـيء... فقط، يبقـى في وقفته، وجهه الكبيـر يطل عليها من أعلى... وأنفاسـه الدافئة تغرق وجهها وتلتف حوله كغلالة عطرة، ثم تهبط إلى صدرها.. وتستكين في دوامة رائعة بين نهديها!

«صباح الخير يا زوبة!».

لمـاذا نطق؟... لمـاذا تكلم؟... إن أعظم أحلامهـا جموحًا لم تكن لها لذة كتلك اللذة الراعشـة التي كادت أن تفقدها الوعي. وليس هناك مفر. فلا بد من رد تحيته!

«صبحك بالنور يا سي حنفي».

وانفرجـت الأصابـع، وانفلـت الحبيـب مـن جوارهـا إلـى الباب، واختفى!

أي جنـة تلك التي يعدنـا الله بها؟!... هل سـيضارع جمالها جمال ذلك الفنـاء الرطب ذي الأرض اللزجة والجدران المتآكلة؟... ليقولوا ما يحلو لهم، لتكن قليلة الحياء... ولتكن حتى فاجرة إن كان الفُجْر أن يمسها حنفي كل يوم، ويضمها بنظراته، ويغرقها بأنفاسه.

ترى... ماذا يحدث لو تزوجا؟!

وانسـالت المياه من جانب الطست لتغرق طرف ثوبها، وتسيل على الأرض!



الفصل الثالث

أيقن حمودة البلطي في ذلك الصباح أنه لا محالة واقع بين أنياب المرض... أحس نهشه القاسي عندما فتح عينيه على صوت زوجته وهي تناديه، صدره منقبض، أنفاسه متقطعة، والهواء شحيح... قال باسم الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم استعان بالمرسي أبو العباس، وأخذ يتبع بعينيه عطيات وهي تتنقل في أرجاء الغرفة رائحة غادية، تجهز له الإفطار، وتدثر الصغار الراقدين فوق الحشية، بجوار الباب، قد تعرت أطرافهم، وتكوم الغطاء بين أجسادهم منحسرًا عن ساقي هذا، مغطيًا وجه تلك، وأنفاسهم منتظمة هادئة، وأنفاسه متقطعة مختنقة، فسعل محاولًا انتزاع تلك السحابات الخانقة التي تملأ صدره وحلقه، فتمنع عنهما الهواء... ثم سعل مرة أخرى وزام وقال: **«يا ساتر!»**... ورفعت عطيات رأسها إليه، وجمدت عيناها عليه وهي تسأله عن حاله... فقال وهو يلقي بساقيه في الهواء ويدليهما من فوق الفراش:

«الدور يا عطيات، الدور!».

ردت عطيات بلهجة قلقة وهي تحاول جهد استطاعتها أن تخفي ما انتابها من قلق:

«يا خويا خليها على الله، بس انت ما تاخدش في بالك..».

وامتدت يدها بكوب الحليب الساخن، فتناوله منها ورفعه إلى شفتيه، لكن القبضة الشرسة كانت قد تملكت من صدره، والتنميل يسري في جسده، وسحابة المجهول تغطي عينيه فتغيمان، فشهق واهتز الكوب في يده، وتمايلت المرئيات أمام عينيه وتداخلت، فسعل ثم شهق مرة أخرى، واقتربت منه عطيات وتناولت كوب الحليب من يده، وحملقت عيناها في تلك الزرقة التي أخذت تزحف فوق صفحة وجهه، وذلك البياض الذي كسا عينيه... وقال حمودة وهو يقاوم في استماتة:

«العيال يا رب... العيال، العيال يا عطيات!».

انغرست الكلمات في صدر المرأة كإبرة حادة، اقتربت منه ووضعت كفها فوق كتفه وهي تتمتم بالدعاء، وتطلب الرحمة في رجاء. لكن تقاطيع حمودة كانت تزداد تقلصًا، وأصابع يمناه انثنت كمخالب، وأخذت تحفر في لحم رقبته طريقًا للهواء، وشهقاته تتتابع في لهفة، فصاحت بصوت مضطرب:

«سي حمودة... حمودة!!».

كان عقل حمودة لا يزال يبحث عن مخرج من ذلك الظلام الذي راح يحجب عنه الوعي تدريجيًّا، وأحس ببرودة لاذعة تغرق جسده كالطوفان، وخيالات كئيبة تروح في ذهنه وتجيء كأطياف مطموسة الملامح، القارب الذي ينتظره فوق الرصيف خاليًا، والشبكة المعلقة على السياج تعبث بها الريح، والرزق، والرجال ذوو السواعد القوية يدفعون بها المجاديف إلى جوف المياه، والأجساد الخمسة الممددة فوق الحشية... من يعولهم من بعده؟!... والدواء الذي ما يكاد ينفد حتى يشتري غيره، والإبر التي تنغرس كل يوم في لحمه، والطبيب،

والسيد أفندي الباشتمرجي... لا بد أن يأتي الآن، يجب أن يقول لعطيات، لكن الهواء ضنين، شحيح... هواء!... نسمة... نسمة! ترد إليه الروح... الظلام يكثف، والأطياف تذوب فيه، ورأسه ثقيل، يهوي إلى قرار سحيق، العيال، لقد خف رأسه وأخذ يتطاير وتكاثفت السحب فسدت الطريق إلى صدره، نسمة!... هواء!... قطرة من رحمة!... ظلام!... أمطار!... عـ... طـ... يا...

وانطلقت صرخة عطيات لتثقب كل أذن في الزقاق، واندفعت تضم الجسد الذي تهاوى بين ذراعيها...

«الحقوني يا اخواتي... الحقوني... الراجل راح من إيدي!».

فتحت النوافذ، وأطلت منها الرءوس، وهرولت الأقدام، وقال أكثر من صوت: «حمودة!»، واستيقظ العيال، وتسمروا في أماكنهم، ثم تلاصقوا وهم يلتحمون بعضهم ببعض، وبكوا فزعين، واندفعت عائشة إلى الحجرة ورأت خالها ممددًا، يتقلص جسده ثم ينفرد في حركات حادة سريعة، برزت عروق رقبته ونفرت، وانفتح فمه في استغاثة، وشهقاته تتلاحق، وأصابع يديه تتشبثان بكل شيء وأي شيء، دموع عطيات، ونواح العيال...

وصوت أم حنفي يأتي من الخارج وهي تتعثر في الطريق وحدها:

«يا خويا، يا ضنايا، إن شا الله أنا يا حمودة!».

وسرعان ما اكتظت الحجرة بنساء الزقاق وصاحت إحداهن:

«السيد أفندي الباشتمرجي يا اخواتي. الحقوني بالسيد أفندي!».

وبلا وعي، امتدت يد عائشة فجذبت الشال من فوق كتفي زوبة واندفعت إلى الطريق لا تلوي على شيء!

***

كان جنفي يوسع الخطا وهو في طريقه إلى الشاطئ يرطب الهواء وجهه الملتهب، وتندفع من أنفه سحابات من الضباب متقطعة كأنفاسه... كان الضعف والتراجع هما ألذ ما يتوق إليه في تلك اللحظات، ما زالت آثار أنفاس زوبة تعبث بشعيرات صدره العاري، وعيناه تلحظان بلا مبالاة أرض الطريق المبتلة، وبقع المياه المتناثرة كالبحيرات الصغيرة تعكس على صفحاتها نتف السحاب المنثورة في السماء... والطريق أمامه خال، ليس سوى صياد هنا، وصياد هناك... يلقي بالتحية على الناس في اقتضاب وذهنه غائب في دوامة لا متناهية، ينثني إلى اليمين حينًا وإلى اليسار حينًا دون أن يدري وكأن قدميه عاقلتان تعرفان الطريق، عامل يسير على مهل وفي تكاسل، ما زال أمامه وقت فالشمس بالكاد تصعد فوق حافة الأفق، مقهى أبو علي الكيلاني يفتح أبوابه، عم حامد بائع الفطير يدفع عربته أمامه ويصيح بصوته الجميل: «**الحمد لله... يا غني!**»، فيردد وراءه: «**لا إله إلا الله**»... لا بد أن المعلم محمد يقف الآن في انتظاره، وعى فوجده في مقام أبيه فناداه كما يناديه الجميع، يابا محمد. رباه وربى عائشة، شب عن الطوق ليجد نفسه في قاربه يتعلم منه طرح الشبكة وجذبها، تمامًا كمحمود ابن عمه.. كانا أخوين دائمًا وإن اختلفا في كل شيء، ترى لو عاش أبوه، أكان قد أحبه قدر حبه للمعلم محمد؟!... كم يتوق لأن يستقل بقارب وحده، وإن فعل... فلمن يترك عمه؟... إن محمود كعدمه

تمامًا، يعمل يومًا ويقضي يومين في البوظة بين الصحاب، لا يكاد يفيق من سكره أو سطله!... وللسن أحكام، فرغم بنية عمه القوية فإنه لا يكاد يصنع شيئًا، سبعون عامًا وهو يكدح في مهنة لا ترحم شيخوخة ولا ضعفًا... هل يظل بلا زواج حتى يولي العمر؟!... إن زوبة تزداد جمالًا يومًا بعد يوم، ونار قلبه تزداد اضطرامًا ساعة بعد أخرى... والسماء اليوم صافية، والرزق يرسله الله بحساب وكأنه يدخر للأولاد والأحفاد ما يكفيهم!

أمه محقة وهو يعلم ذلك، وعائشة ليست دميمة إلى هذا الحد، ورجل لا بد سيطلب الزواج بها ذات يوم... وسيقول على بركة الله، ثم يهرع في نفس اليوم، لا، بل في نفس الساعة إلى المعلم صادق ويطلب منه زوبة، سيهمس في أذنه بالأمر كله... لقد ادخر ما يكفي لشراء قارب، سيكون له عذره ولن يمانع عمه، ذراعه قوية والحمد لله وتستطيع أن تجذب شبكة تحمل طنًا من الأسماك... ثم إن زوبة يابا صادق لن تنتقل من البيت، ستظل بجوارك تخدمك وكأنها لم تبرح غرفتك، ستعبر الفناء فقط إلى حجرة حمودة التي خلت بعد زواجه من عطيات، والحجرة على يسار دورة المياه وبينك وبينها خطوتان، سيقيم فرحًا لم يشهد الزقاق مثله من قبل، ولم يعرفه الصيادون منذ أيام السيد البلطي. ترى هل يشبه أباه حقًا كما يقولون؟!... كيف ابتلعت الأمواج جسده الهائل العظيم؟... لماذا لم يسبح؟... لماذا لم يظهر لجثته أثر؟... وجدوا قاربه في عرض البحر خاليًا... تركه وحيدًا وعمره عامان وعائشة ابنة ثلاثة أسابيع، لم كان الرجال يخافون من أبيه؟... هل من العدل ألا يبحث الرجال عن رزق والأرض أرض الله والمياه

مياه الله؟!... وهل كان أبوه على حق فيما كان يفعل؟!... طالما قصوا عليه القصص فتعجب... ألم تكن هناك حكومة؟!... ألم يكن هناك سلطان على الشاطئ سوى سلطان السيد البلطي؟!... إن هذا يغمره بالزهو والفخر والغبطة... على أن إحساسًا ما ظل كامنًا في أعماقه، إحساسًا لم يستطع تفسيره، بل إنه لم يجرؤ على مفاتحة أحد فيه، أي سؤال وأي حديث حول السيد البلطي يدور في غير تقديس كفر لا يغتفر...

حكى له خاله حمودة ذات مرة كيف هزم السيد دستة من الرجال عندما حاولوا الاقتراب من شاطئ البلطي... مسكين حمودة، صاحب أولاد ومرض... إنه ينفق كل ماله على الدواء... وأفاق حنفي على صوت يناديه:

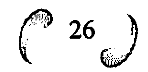
«سي حنفي... يا سي حنفي... يا خويا».

كان قد انثنى إلى شارع البحرية... وسار بجوار سور الميناء الكالح، فاستدار إلى الوراء وقد تملكته الدهشة، صدمه صوت عائشة المتلهف، وروَّعه منظر جسدها الذي كان يتمايل وهي تحجل على ساق واحدة، فهمس في قلق: «يا فتاح يا عليم!»، ثم انطلق عائدًا إليها...

اقترب منها وعيناه لا تفارقان وجهها المتقلص بالألم والبكاء، وقد تهدلت على جبينها الضيق شعيرات لم تستطع أن تخفيها من اللهفة، فاندفع يقول:

«خير يا عيشة!».

«خالي... خالي حمودة جاله الدور يا خويا!».



«وعاملة في نفسك كده ليه؟!».

«أنا خايفة يا سي حنفي... الدور المرة دي جامد قوي!».

أنبأته دموعها بما جعل قلبه ينقبض، وكان يعرف ماذا عليه أن يفعل، فقال بلا تردد:

«روحي انتي، وانا رايح للسيد أفندي الباشتمرجي».

تركها مبهورة الأنفاس، زاد بكاؤها من دمامتها، واحمر طرف أنفها، وكست الزرقة وجنتيها، وصدرها يعلو ويهبط في انفعال حاد... كانت تتحسس بين الحين والحين قدمها التي التوت أثناء عدوها، وإحساس دفين في أعماقها يستعذب لذع الدمع وتقلصات الوجه وانفجارات الألم الكامن، فأخذت تهمس: **«يا حبيبي يا خالي... يا بو العيال يا غالي!»**.

لكن عائشة لو وقفت لحظة أمام مشاعرها الحقيقية... لكانت أول الداهشين لسبب بكائها الشديد، ودمعها الغزير!



الفصل الرابع

كثيرًا ما تملك الغضب نفس المعلم محمد البلطي أثناء انتظاره لحنفي صباح كل يوم... على أن أمر ولده محمود في تلك الأيام ما كان يهمه في كثير أو قليل، أو هذا ما كان يحاول التظاهر به، فرغم محاولاته الكثيرة، ورغم الزجر الذي مارسه معه حينًا، واللين الذي حاول أن يغزو به نفسه حينًا آخر فإن ولده كان يعود دائمًا إلى سيرته وحياته التي يحياها في المواخير ومع الغوازي والساقطات من بنات كوم بكير!

ولا يدري المعلم محمد البلطي متى انجرف ولده مع هذا التيار، ولم يكن يعنيه أن يحدد الزمن، فليس هذا من طبعه، كل ما يعلمه أن محمود لم يعد يظهر على الشاطئ إلا نادرًا، حتى جاء وقت أنكر فيه أن ولده يمكن أن يكون صيادًا... وقد حز في نفسه هذا الأمر وأدمى قلبه وأرقه ليالي طويلة لم يذق فيها طعم النوم، إلا أنه استطاع أن يستعيد هدوء نفسه بعد حين - وإن لم يستطع أن يمحو المرارة التي لونت حياته بلونها الأصفر الكئيب - ووضع في حنفي كل أمله.

كان المعلم محمد - ككل صياد يعتز بمهنته ويفاخر بها - لا يستطيع إلا أن يلحق مكانه من المياه قبل أن تشرق الشمس، لذلك، فقد كان أكثر ما يضايقه ويغضبه، أن يتأخر حنفي عن الموعد أو يتلكأ في اللحاق به.

وكثيرًا ما تأخر حنفي عن موعد الرحيل... ينتشر الضياء، ويظهر في الأفـق قـرص الشـمس، وتخـرج القـوارب قاربًـا وراء الآخـر، ويخلو الرصيـف إلا من قاربـه... يهتز ويتمايـل فوق صفحة الميـاه في انتظار سـاعدي حنفي القويتيـن... ودائمًا ما يأتي حنفي مهـرولًا، وما إن يراه عمـه حتى يتبخر غضبه، وتذوب الكلمات التي كانت قد تجمعت على طـرف لسـانه وتزاحمت فـي انتظار حتـى تنهال عليـه لومًـا وتقريعًا... ويجد العجوز صوته الهادئ خاليًا من كل انفعال:

«اتأخرت ليه يا حنفي؟».

«والله يا با محمد، أصل الـ...».

ويمضغ حنفـي الكلمات الباقية فلا يبين لها معنى، ويبتسـم المعلم محمد وهو يقفز إلى القارب، ويبدأ عمله وكأن شيئًا لم يحدث.

علـى أن الأمـر لـم يكن ليمـر دائمًـا بمثل تلك البسـاطة، فكثيـرًا ما تحدث المعلم محمد مع حنفي وهما جالسـان في القارب وسط المياه عن مزية التبكير في الحضور... كان الرجل يؤمن دائمًا أن صيد البكاري بركـة، وأن الصيـاد الماهر هو مـن يعود بحمله قبل الضحـى فيتخاطفه التجـار وهو حـي يلعب... والناس مغرمون بالسـمك الحـي، يدفعون قرشًا أكثر في مقابل سمكة تتلوى، ولو وضعها وسط أكوام من الأسماك التي صيدت في العام الماضي.

ولـم يكن حنفي يرد على عمه أو يناقشـه في حديث، إنما هو يصغي صامتًـا لصوتـه الهـادئ الوقور، ويهز رأسـه بين الحين والحيـن مؤمنًا، وينهـض ليجذب حبلًا أو يعدل من وضع شـبكة، أو يطرح أخرى على الجانب الآخر، ولا يكف عن العمل لحظة.

وقد حمد له العجوز ذلك التأدب الذي لم يجد سبيله إلى نفس ولده... وفي مثل تلك الأوقات التي يطول فيها الصمت والترقب، كان المعلم محمد يترك لنفسه العنان ليفكر في أمر محمود، أو يتحدث فيه مع حنفي فيتساءل من جديد - دون أن يمل من ترديد سؤاله - بمن يتشبه محمود؟... وهل سيظل طوال عمره متسكعًا بين الحانات والغرز؟... إنه لم يدخر وسعًا في تربيته حتى أصبح صيادًا يحسده رجال الشاطئ على مهارته، فلماذا لا يهتدي بالله؟... كم من مرة تشاجرا معًا، وكم من مرات طرده من البيت... بل إنه أعلن ذات صباح حالك فوق الرصيف وأمام كل رجال الشاطئ - وكان هذا حدثًا رهيبًا اهتزت له عائلة البلطي - أنه بريء من ولده... لكن محمود لم يهتم، غادر الرصيف وغادر الزقاق أيامًا... ثم ظهر ذات صباح مستقلًّا فلوكة ذات شراع يوصل بها الناس لقاء أجر... وكانت هذه هي الطامة، واجتمع رجال البلطي وشبابه في بيت المعلم محمد، وقرروا بالإجماع أن يعود محمود إلى بيت أبيه، وأن يعتذر، وأن يعد بألا يهمل بعد اليوم عمله... وقد عاد محمود، واعتذر، وقبل يد أبيه ورأسه، وأقسم ألا يهمل بعد ذلك عمله... ومضى يوم ويومان، ومضت أيام عاد بعدها محمود إلى سابق عهده... يسهر حتى الصباح، ويعود مع بزوغ الفجر حطامًا، محمر العينين، شاحب الوجه مترنحًا.

***

غادرت الشمس حافة الأفق وأخذت تتسلق صفحة السماء، وألقت بشعاعها الدافئ ونورها الواهن فغمر كل شيء... ولم يظهر حنفي!

وكان هذا أكثر مما يطيق المعلم محمد أو يحتمل!

مـاذا دهى حنفي هو الآخـر؟!... أتراه يصنع مـا صنعه محمود؟...
أيظنـان أنه لا يسـتطيع أن يخرج بالقـارب وحده؟!... لمـاذا تأخر؟...
ولمـاذا أصبـح يتأخـر هـذه الأيـام كثيـرًا؟!... أيـن يقضـي لياليـه هـو
الآخـر؟!... هـل عـرف الطريـق إلى الغـرز ومحـال البوظـة؟.... هل
يصحـب معـه رجـلًا ويتـرك حنفـي ومحمـود ليصنعـا مـا شـاء لهمـا
عبثهما؟... أيكون هذا نهاية الطريق التي شقها السيد البلطي؟!...

أيـن أنت يا سـيد لتـرى العائلة وما حل بهـا؟!... تركنا شـاطئنا بعد
موتك وجئنا إلى الميناء، لم يعد فينا من يسـتطيع الخروج إلى الشـاطئ
المفتـوح ويتعرض لمـا تعرضت له أنـت... الرجال كثيـرون متناثرون
فـوق الرصيف، إنهم يمرون متسـكعين يلقون بتحيـة تقول: أمن خدمة
نؤديها لقاء أجر؟!... غلابى وأصحاب عيال... ربع الصيد للرجل الذي
يقوم بالعمل كله... أشياء كثيرة تغيرت وتبدلت منذ اختفائك يا سيد...
وجـوه جديـدة زحفت على الشـاطئ تبحث عن الـرزق، ومهن جديدة
خلقهـا الرجـال خلقًا ليعثـروا بها على لقمـة العيش... سـنوات طويلة
مـرت وأنـا رب العائلـة... بلغت السـبعين وما زلت أخـرج كل صباح
بالقـارب، ترى هل أسـتطيع الآن أن أجذب الشـبكة وهي محملة؟!...
مرت سـنوات طويلة دون أن أمارس العمل، ولـدك حنفي زين الرجال
حقًّا، وولدي وصمة عار لم أسـتطع أن أمحوها... لكنني ما زلت عفيًّا،
ما زالت بي قوة تسـتطيع أن تطرح الشـبكة وتجذبهـا، كثيرًا ما تذكرتك
وأحسسـت بالضياع والوحدة!... أنا لا أذكر أبي أو أمي، فقد كنت أبي
وأمـي وأخـي... كيـف مت؟!... وهل أنـت ميت حقًّـا، أم أنك مازلت
تعيش في قاع البحر مع جنية حسناء؟!

بنداري وروم وحسنين وزينهم يتغامزون وهم في جلستهم بجوار السور، لا بد أنهم يتشاورون، وسيأتي إليَّ أحدهم عارضًا خدماته... لماذا تأخر حنفي؟!... هل يظن أن حياتي معلقة به؟!... أيظن أني سأقف كل يوم على الرصيف حتى تصعد الشمس إلى منتصف السماء في انتظاره؟... لعنة الله عليه وعلى أمه... لعنة الله على العائلة بأكملها... سبعون عامًا لكني أستطيع أن أخرج وحدي، وسأخرج وحدي وأريهم... وحتى لو جاء حنفي - قسمًا بالله - فلن أسمح له أن يطأ القارب... من يظن نفسه هذا الكلب؟... هيه؟!

«صباح الخير يا با محمد».

«صباح الخير يا رومة».

لن أصحب أحدًا.. ليرزقني الله بحمل واحد وأعود!

«أمال فين حنفي، اتأخر ليه النهارده يابا؟».

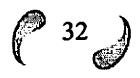
«مش جاي، عيان، مات، الله يلعن أبوكم!».

***

عاد رومة إلى رفاقه الجالسين بجوار السور بعد ما لقيه من المعلم محمد البلطي، وبقايا ابتسامة ما زالت عالقة بشفتيه، غير عابئ بسباب الشيخ وشتائمه، ثم قال مشيرًا بطرف أصبعه إلى حيث كان القارب يبتعد مسرعًا:

«دا باين عليه اتخانق مع حنفي!».

وسرعان ما ألقى بنفسه إلى جوار زملائه... ثم دس بين شفتيه سيجارة أشعلها وهو يستشعر لذة الكسل، ويغمض عينيه لشعاع



الشـمس الدافـئ الـذي يحلـو لرجـال الشـاطئ أن يتمرغـوا فيـه فـي الأيام الشاتية...

ران الصمـت على الرجال وهم يلاحقون الحيـاة التي أخذت تدب علـى الرصيـف تدريجيًّـا، ونـاول رومـة سـيجارته المشـتعلة لجـاره، وأخذت السـيجارة دورتها على الرجال، تنتقل من شـفتين إلى شفتين، وكل منهم حريص على أنفاسـها القليلـة... وتسـاءل أحدهم بلا مبالاة عن سـر غياب حنفـي، وألقى آخــر جوابًا فاتـرًا، التقطــه ثالث وعلق عليه.

ثـم تقلب الحديـث بهم، وامتد من حلقة إلـى حلقة حتى وصل إلى السـيد البلطـي، حيـث لا تفقـد الحكايـات عنـه جدتهـا مهمـا قيلـت أو أعيدت!

***

قبـل ثلاثين عامًا، لم تكن الميناء قد أصبحت على ما كانت عليه في تلـك الأيـام... فلا أسـوار، ولا مباني، ولا حراس... بل سـاحل رملي يمتد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، تقوم في وسطه صخرة رأس التيـن الشـاهقة بقصرها الهائـل... ويمتد السـاحل عن يسـار الصخرة متجهًـا نحـو الغرب حتى سـاحل المكـس... هناك في أقصـى المدينة أو بعـد ذلك بقليل... أما تلك المسـاحة التي تمتد عن يمين رأس التين شـرقًا حتى نهاية شاطئ الأنفوشـي وبداية الميناء الشرقي، فكانت وقفًا على عائلة البلطي... حرَّم السيد عَلَى رجال البلطي أن يطرحوا شباكهم أو يرتـادوا مكانًا آخر غير مكانهم... ورغم أن هذا المكان لم يكن أكثر الأماكن أمانًا، بل كان أشدها خطرًا لتعرضه للرياح والأمواج، ولامتلائه

بالصخور والأعشاب... فإنه كان - في ذلك الوقت - أخصب الأماكن وأكثرها غنى بالأسماك!

وقد تعددت الأساطير عن السيد البلطي وتكاثرت حوله الحكايات منذ وفاته... كانت سيرته - رغم مرور ذلك الزمن الطويل - لا تزال تجد من رجال الشاطئ ونسائه وعياله آذانًا مصغية، بل كان الحديث عنه هو أحب الأحاديث إلى نفوسهم، وأدسمها مادة وأغزرها تفاصيل... يحكي الناس عنه الحكايات، ويسمعون عنه حكايات أخرى، في المقاهي وعلى عتبات البيوت في أزقة حي الأنفوشي المعتمة، وفي الغرز ومحال البوظة، عندما يصبح حديث الرجال شعرًا وخيالًا وأساطير تلهب مشاعرهم وتخفف عنهم وتجسد لهم آمالًا يصبون إليها ويتمنونها...

ولو تنبه الذين عاصروه - من غير أهل البلطي - لما كانوا يحكونه بألسنتهم، لدهشوا أشد الدهشة لذلك التحريف الذي أدخلوه - راغبين - على تلك الشخصية التي حكمت الشاطئ يومًا بقبضة من حديد، غير عابئة بسلطة أو سلطان، وفرضت على الرجال حكمًا جائرًا لا مبرر له ولا منطق يسنده... حكمًا أصبحوا يضربون به الأمثال في العدل والشهامة والرجولة، لكنه كان - في أيام السيد - ظلمًا تحملوه صاغرين أمام ذلك الجبار الذي نزح إليهم من قلب البلاد، ولا يدرون من أين؟

جاء إلى الشاطئ أول الأمر وحيدًا، فوجد الرزق موفورًا ومكث بضعة شهور، ثم اختفى أيامًا عاد بعدها بعائلته كلها... لا يدري أحد ما هي صلات القربى بينهم، إن كانوا إخوة أو أولاد عم أو خال، كل ما عرفه الناس عنهم أنهم «البلطية»... كانوا فقراء يرتدون أسمالًا ممزقة،

صفـر الوجوه، هزيلي الأجسـاد... وكان السـيد هـو رأس العائلة تطاع كلمتـه بلا تردد ولا مناقشـة، فأخذهم بالشـدة، وجمعهـم في حجرتين استأجرهما في الزقاق، حيث كانوا يجتمعون كل ليلة ليقتسموا ما أتاهم من رزق... لا يزيد نصيب فرد عن فرد، ولا يقل نصيب فرد عن آخر... وقد شـغله أمر العائلة في البداية فحرم على نفسه الزواج، وحرم عليهم الاختلاط بأحد، فاحتفظوا بتقاليدهم وعزلتهم، لم يجلس أحدهم على مقهى، ولم يغش أحدهم غرزة... وما لبث عددهم أن تكاثر فاستأجروا حجرة ثالثة، ثم رابعة... ثم اشـتروا بيوت الزقاق كله... وسمي الزقاق بعد ذلك باسـم السـيد البلطي... ولا يجرؤ غريب على الخطو داخله، أو استطلاع ما به.

وتزوج السـيد قبل وفاته بثلاثة أعوام، وكانت ليلة زواجه أسـطورة، دخـل الناس الزقـاق فيها لأول مرة، أكلوا وشـربوا وتمرغوا في الخير، وطلع عليهم السـيد في صباح اليوم التالي رجلًا آخر... يحادث الناس ويجالسـهم ويناقشهم ويسمر معهم، وإن كان قد احتفظ بشاطئ العائلة لا يقربه رجل!

وقـد مرت الأعوام، فأنشـئت المباني والأسـوار، وزحـف العمران علـى تلك المسـاحة الرملية التي يقع عند طرفها قصـر رأس التين فوق صخرتـه، ومن ورائـه يمتد ذلك اللسـان الصخري إلى قلـب البحر... وتغيـرت الحـال، وأصبحت غير الحـال... اختفى السـيد البلطي ذات صبـاح تجهمت فيـه الطبيعة وثـارت، عصرت السـماء في ذلـك اليوم سـحبها عصرًا، وأغرقت الشـاطئ بسـيول الأمطار، واربد سطح المياه وعلـت أمـواج البحـر حتى زحفـت إلى سـاحة القصر ومـا وراءها من

أراض خالية، ودهمت العاصفة الكثيرين، لكنهم استطاعوا النجاة لقربهم من الشاطئ، بينما كان السيد البلطي قد توغل - كعادته - يرتاد البحر بقارب هزيل، وينتزع الرزق انتزاعًا غير عابئ بهياج أمواج أو أمطار سماء... ومرت الساعات دون أن يعود، ثم مر الليل والعاصفة لا تهدأ ولا تستكين، وعندما لاح فجر اليوم التالي ابتلع البحر أمواجه، وامتص الكون رياحه، وران على الطبيعة سكون حزين، وانطلقت القوارب تجوب الساحل من أقصى شرقه إلى أقصى غربه بحثًا عن السيد... لكنهم لم يعثروا عليه... وانغرست الحقيقة في قلوب الجميع فأدمتها، حتى الذين كانوا يضمرون له كرهًا، أمسوا يومها ليجدوا أنفسهم وقد فقدوا رجلًا دمث الخلق، حازم الرأي، عادل الحكم... وبكاه الجميع ليلتها، ثم بكوه بعد أيام عندما دخلت الميناء إحدى سفن الإنجليز وهي تسحب وراءها قاربه... وظل الناس يتحدثون عنه، وكلما تحدثوا، اكتشفوا فيه شيئًا، يلهب عواطفهم... تذكروا يوم اختلف الصيادون مع تجار الحلقة، وكيف وقف السيد يقاوم السيطرة على الأسعار منتصرًا للصيادين حتى هزم التجار وأصبحت الكلمة كلمتهم... وتذكروا يوم اختلف اثنان من الرجال حول نصيب كل منهما، وكان السيد هو الحكم الذي قبل الرجلان حكمه... ويوم أن هبت العاصفة وكادت أمواج البحر تبتلع سبعة من الرجال بقواربهم، فإذا بالسيد ينطلق وحده بقارب شراعي لينقذ الرجال وقواربهم وشباكهم... وتذكروه شارب بوظة لا يشق له غبار، وحشاشًا صلب الرأس مفتح العينين، وقائل شعر وجليس أنس ومغني مواويل عندما تصفو الليالي ويتوافر الرزق ويملأ المال الجيوب... ويصيحون وهم في قمة النشوة:

«كل ده مخبي فين؟».

فيرد عليهم بابتسامة الواثق المنتصر:

«حكم الزمان على الرجال يا رجال!».

ولم يكف الناس عن الحديث... حتى أصبحوا يومًا فوجدوا في السيد أملًا يصبو إليه كل منهم... رأس كرأس حوت، وكف تهابها الرجال، وقامة مارد، وعينا نسر لا تخطئان، وبطل يخاوي جنيات البحر ويكتنز في صدره الأسرار، وفي بيته الجواهر والأموال... و... أصبح السيد البلطي أسطورة!

فمن ذا يصدق أنه يموت؟!

قالوا إنه تزوج ابنة أحد ملوك الجان، وقد أقامت له زوجته قصرًا - لا يزال قائمًا - تحت صخرة رأس التين، وإنه أنجب منها اثني عشر ولدًا ليست فيهم أنثى واحدة!... وهو سر يعلمه كل فرد في عائلة البلطي، يتوارثونه في الزقاق ابنًا عن أب دون أن يجرؤ أحدهم على البوح به، وإلا حدث له ما حدث للسيد... وكانت بداية النهاية عندما اختلف السيد مع زوجته الجنية، واشتد الخلاف بينهما فتخاصما، وقرر السيد إغاظتها فتزوج أم حنفي... كانت يتيمة لا أب لها ولا أم، جاءت مع العائلة طفلة صغيرة، وشبت في العز الذي أغرق العائلة بعد نزوحها إلى الشاطئ... وأقسمت الجنية أن تخطف السيد وتسجنه، ولولا خوفها منه ومن بطشه، لفعلت ذلك منذ اليوم الأول لزواجه... لكنها ظلت تنتظر وتنتظر حتى هبت العاصفة، فشغل السيد عن نفسه بالشبكة والقارب، وانهمك في العمل غير شاعر بالخطر المحدق به... فانقضت

عليه مـن الخلف - ولـم تكن لتجازف بمواجهته - وقيدته بالسلاسـل، ثم سحبته وغاصت به إلى أعماق البحر!!

***

لـم يكـن فيمـا قاله الرجـال في ذلـك الصباح عـن السـيد جديد... وتدريجيًّا تسـرب الفتور إليهم، فتفتت الحديث، ثم تلاشـى... وغرقوا في السكون...

ما لبث أحدهم أن رفع رأسه إلى قرص الشمس المعلق في الفضاء، وهبـط بعينيه إلى سـطح المياه وقد تناثرت فوقه القـوارب، فابتلع لعابه بمرارة وقال بنبرة يائسة:

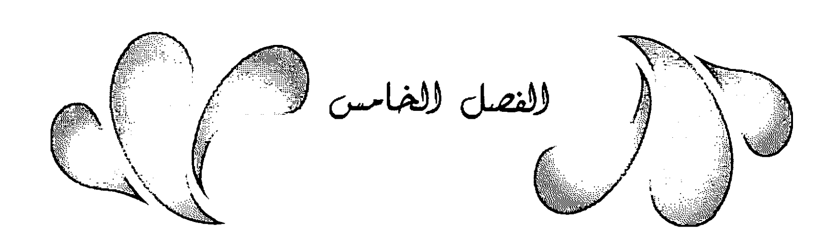
«سمعتم اللي حصل ليلة امبارح في قهوة سلومة؟!».

«لأ... حصل إيه؟».

«واحـد من رجالة عبد الموجود حمدان، قـال انه خلاص اتفق على مركب الصيد الجديدة!».

«بيقولوا يا جدع انها مركب توسق ميت طن سمك!».

«حقـة لو جت المركب دي يا جدعان، قـول يا رحمن يا رحيم على الصيادين!».



الفصل الخامس

هرول السيد عبد الرحمن بجسده السمين المترهل وراء الطبيب وهو يغادر فراش حمودة في أدب شديد بين صفين من الأسرة، تكاد كرشه تختفي داخل انحناءة جسده، ويكاد الدم يطفر من وجنتيه انفعالًا... حتى إذا انتهى بهما السير إلى باب العنبر الكبير، ولاح للنظر فناء المستشفى الفسيح وقد تناثر فيه المرضى والممرضون والممرضات وبعض الأطباء، توقف الطبيب عن السير، واستدار نحو السيد قائلًا في تجهم:

«مش بتقول إنه قريبك يا سيد؟».

«أيوه يا سعادة البيه».

قالها السيد في نبرة مسكينة متزلفة، وهو يضم كفيه السمينتين أمام صدره في تملق شديد، بينما راح الطبيب يتفحصه في إمعان وقد بدا على وجهه أثر التفكير العميق، ثم قال في شيء من الحدة:

«أنا مش قلت لك قبل كده انه لازم يروح مكان هواه جاف؟!».

«حصل يا سعادة البيه... حصل!».

وانفجر الطبيب فجأة والانفعال يكاد يقتلع جسده النحيل من فوق الأرض:

«وليه ما سفرش لحد دلوقت؟... إنتوا بهايم؟!... أمال عامل تومرجي إيه وزفت إيه؟!».

«ما هو يا سعادة البيه...».

«بلا سعادة البيه بلا زفت، افهم يا بني آدم، الراجل ده عيان، عنده ربو، والحالة متقدمة، وحشة يعني، فاهم يا سيد؟... حالته وحشة، لازم يروح مصر، يروح حلوان، يروح في داهية... بس ميقعدش هنا!».

تلجلج السيد عبد الرحمن وانكمش في نفسه أمام هذه الثورة، وكست حمرة الخجل وجهه الأبيض حتى تحول إلى قطعة من اللحم الأحمر القاني وأحنى رأسه في أدب شديد وهو يتمتم:

«ما هو أكل عيشه يا سعادة البيه...».

وقاطعه الطبيب:

«شوف يا ابني...».

وصمت وهو يكبت انفعاله... ورغم أنه كان يصغر السيد عبد الرحمن بسنوات لا تقل عن العشر، فإن هذا لم يلق بالًا إلى كلمة «يا ابني» هذه التي تعودها من حضرات الأطباء... وفي رأيه - والسيد أفندي الباشتمرجي له آراء في الحياة مهمة جدًّا - أن الآباء ليسوا بالسن، ولا بالدم... وإنما بالعلم، لذلك صمت في أدب الأبناء أمام صمت الطبيب الشاب الذي أمسك بالقلم وأخذ يكتب على ورقة في يده علاج المريض حمودة البلطي... كانت يده تجري بالقلم في سرعة، ويخطف سن القلم حروف الكلمات خطفًا يطمس معالمها، وما إن

انتهـى من الكتابة حتى دفع بالورقة إلى السـيد عبد الرحمن وهو يبرطم مكملًا حديثه، وقد لانت لهجته في شيء من العطف المرير:

«شـوف يا ابني... الراجل ده حالته خطـرة، لازم يروح مكان جاف، مفيش علاج غير كده، فاهم؟... تبقى تدي له الدوا ده!».

ومضـى الطبيـب مسـرعًا دون أن يلقي بالًا إلى كلمات الشـكر التي انهمـرت من فم السـيد أفنـدي، وما لبث أن اختفى فـي أحد الممرات، فتنفـس السـيد أفندي الباشـتمرجي مـلء صدره، وسـرعان ما اسـتقام ظهره، وبرز كرشه في زهو ولاحت أمارات الاهتمام على ملامحه وهو يندفع مسرعًا ليهبط سلمًا صغيرًا يوصله إلى الفناء.

كان حنفـي لا يـزال في وقفتـه في أحـد أركـان الفناء الواسـع، وقد بـدا القلـق علـى وجهـه عندمـا انقضـت عليـه كلمـات السـيد أفنـدي بلا مقدمات:

«جالكم كلامي يا سي حنفي؟».

«خير يا سيد أفندي...».

«بـلا سـيد أفندي بلا زفـت... افهم يا بنـي آدم، الراجـل عيان، عنده ربو، والحالة متقدمة...».

وتوقـف عن الحديث ريثما يرى أثر كلماته في حنفي الذي بان عليه الفزع وهو يتساءل في دهشة:

«متقدمة يعني إيه يا سيد أفندي؟...».

«أيوه يا سـيدي متقدمة، يعني وحشة، فاهم يا حنفي، الحالة وحشة، لازم يـروح مـكان هواه جاف زي ما قلت لكم قبل كده، عارف يعني إيه

جاف؟ يعني مصر، حلوان... في أي داهية بس ميقعدش هنا جنب الميه والرطوبة!».

رغم حلاوة اللسان التي كان يتمتع بها السيد أفندي، ورغم أن حنفي أبدًا لم يكن ينتظر منه هذه اللهجة الحادة والثورة العنيفة، فإن ذلك لم يكن يعني سوى أن خاله مريض، وأن مرضه لا بد خطير... لذلك لم يغضب ولم يثر... حقًّا لم يسبق للسيد أفندي - ولا غير السيد أفندي - أن أطال لسانه على أي من رجال الزقاق، إلا أنه لا بد وأن يكون في الأمر شيء دفع الرجل إلى هذه الثورة... الورقة ترتجف في يده، ووجهه كسته حمرة الانفعال، وعيناه قلقتان لا تستقران على حال... وانتابت حنفي حيرة بالغة، فماذا يقول... قيل هذا الكلام مرات ومرات دون جدوى... ولن يترك خاله الشاطئ، وإن تركه فماذا يصنع؟... وأين يعيش؟... وماذا يعمل؟.... وكيف يطعم أولاده؟!

ثقلت الأفكار عليه، فنكس رأسه، وساد الصمت بين الرجلين... على أن غضب السيد أفندي - وإن كان مصطنعًا - قد انفثأ لسكوت حنفي، وانتابه إحساس بالزهو شديد، وإحساس آخر بالندم على ما بدر منه... فأخذت شفتاه تتمتمان بكلمات مبهمة سرعان ما أخذت تبين:

«ما هو يا حنفي الدكتور قال كده، ده زعلان خالص، وأنا قبل ما يقول الدكتور قلت لكم أنا، فاكر يا حنفي... ده حتى الراجل قعد يتحايل عليَّ ويقول لي: مش انا نبهت عليك المرة اللي فاتت يا سيد أفندي؟... قلت له ان حمودة صياد، وان ده أكل عيشه، مفيش فايدة... الراجل حايروح من إيديكم يا حنفي!».

كان حنفي واجمًا يفكر في أمر خاله... ورغم محاولاته العديدة للعثور في ذهنه على حل... فإنه قال أخيرًا في نبرات يائسة:

«والعمل يا سيد أفندي؟!».

قالها وهو يتحرك نحو باب المستشفى الكبير، وقد زوى ما بين حاجبيه في ضيق... ذلك أن كل شيء بدا له في تلك اللحظة كئيبًا، حياته، زوبة، المعلم محمد الذي ينتظره على الرصيف، الجنيهات التي ادخرها بلا فائدة، أخته التي تجري السنوات بها دون زواج، خاله المريض وأولاده الخمسة... هل يحدث شيء لحمودة؟!

«كله بأمر الله يا سيد أفندي، كله بأمر الله!».

لوح السيد أفندي في تبرم وقد عاوده الغضب من جديد، ثم صاح في انفعال:

«وآخرتها يا حنفي... وآخرتها يعني؟!».

لم يكن غريبًا ذلك الحماس الذي بدا من السيد أفندي الباشتمرجي، فقد تعوده أهل الزقاق منذ أن جاءهم لأول مرة ليعالج حمودة أثناء إحدى النوبات... وتردد السيد أفندي بعد تلك المرة على الزقاق كثيرًا، وأصبح مع الزمن طبيب العائلة، يشخص للمرضى أمراضهم ويعالجهم منها، ويشتري لهم الدواء أو يأتي به من المستشفى... ودخل السيد أفندي كل بيت، وعرف الكبير والصغير، ولم يعد يأخذ القرشين عند الكشف، كان قد أصبح لطول العشرة وكأنه واحد منهم، يقضي لياليه على المقهى وسط المعلم محمد وحمودة والحاج برعي والريس صادق... وآنس في عائلة البلطي تلك الحماية المستترة التي أضفتها علاقتهم به عليه.

لكن غضب السيد أفندي سرعان ما تبخر وذاب عندما التفت إليه حنفي والتقت عيناه بعينيه، فخفق قلبه خفقة سريعة، شيء ما يربطه بحنفي بالذات، شيء يدب في قلبه ويطرق جوانحه في وعي كامل... وكانا قد وصلا إلى باب المستشفى الكبير عندما توقف حنفي وسأل السيد أفندي في أسى:

«وازاي حاله دلوقت؟!».

فرد عليه هذا بلهجة حنون وقد رق صوته، واهتزت جفونه في تأثر مبالغ فيه:

«بخير بعد ما أسعفته، عملت له اللازم، وجه الدكتور... كان التنفس ماشي عال، صحيح الراجل شكرني، إنما دا حمودة اخويا يا حنفي!».

يشهد الله أن السيد أفندي لم يقصد إلى هذا الاندفاع في الحديث الكاذب، حقًّا لقد تعود هذا منذ أن عرف كيف يتقن سر الصنعة، لكنه في تلك اللحظة لم يكن ليفكر في أمر كهذا... ثمة عاطفة جياشة كانت تجتاح مشاعره في تلك اللحظة، عاطفة مست قلبه مسًّا خفيفًا دون ضغط أو إكراه... عاطفة أخذت تتمسح في قلبه البارد كقطة أليفة فأدفأته، ألذ أوقاته تلك التي يجتر فيها ذهنه لمسة يد، أو نظرة خاطفة، أو كلمة تؤول... حنفي يسلم ويمضي عنه فيودعه باللسان واليد والقلب معًا... ويشمل جسده العملاق الغارق في صديري مخطط وسراويل واسعة فضفاضة، ويمضي كحبيب تفديه الروح فيجتاز الباب في خطوات واسعة ورأس مرفوع... أكثر ما أحبه في هؤلاء الناس هو كبرياؤهم التي حرم منها... مات أبوه وتركه مع أم كانت تشقى طول اليوم لتطعمه... شب عن الطوق ليرى من الحياة وجهًا واحدًا شنيع

التكوين... حمل الهمَّ فأصبح الهمُّ جزءًا متممًا لشخصيته، لا يعرف في الحياة سوى كلمة حاضر، ولا يتقن شيئًا قدر إتقانه الانحناء والتملق وتقبيل الأيدي وانتهاز الفرص... يبهره في آل البلطي إحساسهم بذواتهم وكأنهم ملوك الدنيا... اختفاء حنفي عن نظره، وسعيه إلى الغير، وذهابه هنا وهناك، وتنقله بين الأسرة والمرضى، وملاحظته لأنفاس حمودة ودقات قلبه، وحديثه مع زملائه، واختطافه لقطعة لحم من المطبخ، وأوامر الأطباء وصيحات الباشتمرجي... كل هذا يمر أمام ذهنه الغارق كما تمر سحابة خفيفة في يوم قائظ، تقلل من حرارة الشمس لكنها لا تخفيها أبدًا... وحرارة قلبه أكبر من أن تلطفها أحداث الحياة الباردة... وجه يراه - على خلاف الناس - أشد الوجوه سماحة وأجملها منظرًا، حياء وأدب وأخلاق، وجسد نحيل حقًّا، لكنه سيعرف كيف يكسوه بلحم كلحمه.

الفقير منا يجب أن يعيش - هكذا يقول السيد أفندي لنفسه دائمًا - والرزق يرسله الله حتى ولو كان من طعام المرضى، واللحم الذي يأكله يكفي أربعة... ويوم يظللهما سقف واحد سيغرقها في الأدوية الشافية واللحوم، إنه يعرف سر الصحة حقًّا، لكن سر ذلك الذي يؤرقه ويطير النوم من عينيه لم يعثر عليه بعد... في قلبه شك، وفيه أيضًا أمل وخوف.

ترى... هل تشعر به عائشة؟؟

هناك أوقات يكاد قلبه يذوب حنانًا لآهة تخرج من فم مريض... وأوقات لا يكاد يسمع في الآهة سوى صيحة تمر بجوار الأذن كمواء قطة أو نباح كلب!!... ولقد ذاب قلبه ذوبانًا لنداء حمودة الواهن، أسرع نحوه وانحنى عليه وابتسم بكل وجهه... هذا خالك يا عائشة،

لا تخـف يـا حمودة لقـد زال الخطر وسـوف تخـرج كالسـبع بعد يوم أو يوميـن... أولادك بخيـر، وحنفي ترك المستشـفى منذ سـاعة بعد أن اطمـأن عليك، قال الطبيـب إنه لا بد لك من الانتقـال إلى مكان هواؤه جـاف، أخبرته يا حمودة بأنـك صياد فلم يأبه، معه حق فهواء الشـاطئ يتعبـك... لا شـكر على واجب... سـتأخذ هذه الأقراص فـي الرابعة، وستمر عليك نعمات الممرضة لتحقنك مرتين، مرة في الرابعة وأخرى في العاشرة، لا تهتم، السلام عليكم.

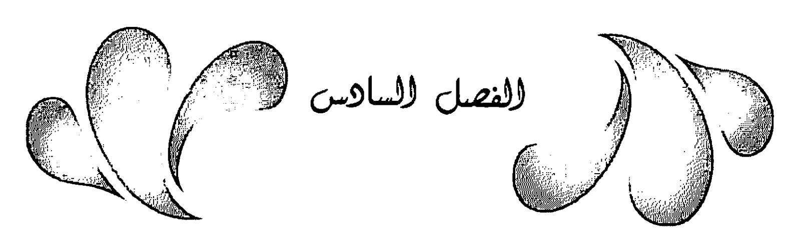
كم هو جميل أن يصنع الإنسـان شـيئًا من أجل محبوبه... أن ينسـى كل شيء عدا حلم جميل يطوف بالنفس والقلب ويغرق العقل.

هل تحبه عائشة؟!

هـو يحبها ولا يدري كيف حدث هذا؟... زوبة لا تعجبه، في عينيها نظرة فاحصة جريئة... يخيل للمرء أحيانًا أنها تخترق الصدر وتكشـف عن مكنونات النفس، إنها تعري الإنسان من ملابسه، كم هي مخيفة... أما عائشـة، فمنكسـرة النظرة، أنفاسها لها رائحة الحياة نفسها، كان قلبه باردًا وكأنه محفوظ بثلاجة المستشـفى حتـى مرضت أم حنفي وذهب ليحقنهـا، انحنـى عليها فانحنت معه عائشـة وفاحت مـن فتحة صدرها رائحة أنثـى دافئة، فذاب الجليد، ونبض القلـب، وارتجفت الحقنة في يده... يومها... يومها كاد يجن ويطلبها من حنفي... لكن الله سلم!

لا بد من الذهاب إلى الزقاق... هل يراها الليلة؟!

يا لك من طفل يا سيد أفندي يا باشتمرجي، اعقل يا رجل فما هكذا يفكر العقلاء وذوو المراكز!



الفصل السادس

وقف المعلم محمد البلطي في منتصف قاربه، وأخذ يجول بعينيه في أنحاء الميناء، كانت المياه رائقة شفافة، يخترق شعاع الشمس أعماقها فكأنه يكشف عن خباياها... وعن بعد، تناثرت القوارب في كل مكان وهي تهتز تحت أقدام الرجال وهم يروحون ويجيئون، بعضهم انحنى يعدل من وضع حبل، والبعض يجذب «الهلب» من الأعماق استعدادًا للرحيل إلى مكان آخر، وآخرون يجذفون في نشاط، ورجال يطرحون الشباك ورجال يجذبونها محملة بالأسماك... وأصواتهم تسبح في سماء الميناء منادية أو مغنية أو داعية: «يا متولي... يا عدوي... يا بو العباس!»، وسفينة هائلة تجتاز باب الميناء في ضجيج وبطء تاركة وراءها حبلًا غليظًا من الدخان، وسطحًا مزبدًا من المياه.

رفع رجل عقيرته مناديًا المعلم محمد فرد عليه العجوز بصيحة طويلة ممطوطة، ثم تبادلا تحية الصباح، وقال كل منهما للآخر: «ترزق»، واستدار العجوز نحو شبكته، وأخذ يمتحن مكان قطع الرصاص المنتثرة على حافتها كحبات عقد رخيص، وعبث بخيوطها، وتلاعبت أصابعه بقطع الفلين... ثم حمل «الهلب» فتقوس ظهره تحت ثقله، وتصلبت أعصاب ذراعيه، وخطت قدماه في بطء خطوتين، فتمايل القارب تحتهما، وما لبث أن طوح بالثقل إلى المياه... وتنفس ملء صدره!

ومـا لبث المعلم محمد أن غاص في دوامة الفكر التي اجتذبته إليها رتابة العمل وروتينيته، أفكار تروح وأفكار تجيء، مد يطغى على رأسه فيغرقـه، وجزر تنحسـر بعده كل الأسـئلة تاركـة وراءها سـؤالًا واحدًا يعربد في ذهنه... هل يستطيع أن يجذب الشبكة؟!... هل تقوى ذراعاه على الحمل إن كان كبيرًا، أم تخونانه فيسـقط منه ويسلم بالهزيمة؟!... وانتابه خوف غامض... هل ولت أيامه حقًّا؟... سـؤال قاس انقبض له قلبه، فهز رأسـه وهمس لنفسـه: «**زي ما تكون عيل صغير!**»... ثم تذكر ليلة الأمس، ولم يستطع أن يمنع الابتسامة من السيطرة على ملامحه... كلمـات أم محمـود مـا زالـت تطن فـي أذنيـه... الولية شـعرها شـاب ومـا زالـت بحيوية ابنة العشـرين... قالت له بالأمـس - وكان أمس هو الخميس! - إن دماء الشباب تعربد في عروقه وكأن السنوات لم تمر... كانـت ليلـة!!... واللـه ليلة لا يقـدر عليها شـباب هذه الأيـام... كيف يخاف؟!، وكيف يتردد؟!، سبعون عامًا لكنها تساوي ثلاثين فقط، لعنة الله على الخوف ومن يخاف، خدر غريب يسـري في أوصاله... أشعل سـيجارة ونفث دخانها في تلذذ، وراح يفكر: أربعون عامًا عاشـتها معه أم محمـود، يـوم أن تزوجهـا كانـت طفلة فـي الثانية عشـرة، لم تنجب إلا بعد سنوات طويلة، جاءته بمحمود... وتذكر ولده.

تقلصت الابتسـامة فـوق وجهه، وحلـت محلها تكشـيرة خفيفة... لماذا لا يهتدي الولد بالله؟... ماذا يصنع بأمه لو مات؟... يدفع الغضب إلى لسـانه شـتائم وسبابًا كالسـيل ويحجب القلب كل سـوء عن ولده، قلبه لا يطاوعه، لكن حال الولد لا يسر عدوًّا ولا حبيبًا... ترى، أيهتدي محمود بالله لو تزوج؟!

برقت الفكرة في ذهنه كومضة، واختفت لحظات ظل رأس العجوز خلالهـا خاويًـا، بـلا أفكار، ثـم ارتدت إلـى ذهنه مرة أخـرى كمصباح متوهـج الضوء حقًّا... لماذا لا يزوج محمود؟... لماذا لا يبحث له عن عروس؟... سيهتدي الولد بعدها بالله ولا شك، ويستقر عندما يجد له مأوى يأوي إليه، وحضنًا يقيه برد الشتاء... كيف غابت تلك الفكرة عن ذهنه طوال هذه المدة؟!

زحفت الابتسـامة مرة أخرى فاحتلت الشـفتين، ثم انطلقت لتشمل كل تقاطيع الوجه...

من تصلح للزواج من محمود؟... إنها عائشة!

لكن الولد لن يرضى، طول عمره وهو لا يطيق لها حديثًا أو كلامًا... لكنها ابنة عمه، ابنة السيد البلطي، إذن لا بد أن يتزوجها محمود، فليس لديـه أبنـاء يقولـون لا، يجب أن يسـتر عائشـة قبـل أن يمـوت، هذا هو الكلام... محمود يتزوج عائشة... و... ولكن الولد سيرفض، إنه يعرفه جيدًا، وسـيغضب هو عليه... و... ثم إن عائشـة لن تسعد معه. سيكون شجارهما مثار خلاف دائم!!

مضى الوقت وهو سارح.

ألقى بالسيجارة إلى المياه وحمل الشبكة على يسراه، وقبضت يمناه على الحبال، ووقف مستعدًّا للطرح... ومال بجسده إلى اليسار، وطوح بالشـبكة فانتشـرت في الهواء كطائر خرافي ما لبـث أن راح يهوي نحو المياه وصاح المعلم محمد: «يا متولي»... وغاصت الشـبكة في جوف المياه، وسـبحت على السـطح قطع الفليـن محـددة اتساعها، وسرعان

مـا نشـط العجوز، راح فوق القـارب وجاء، جذب الحبـال ثم أرخاها، أمسـك بطـرف شـبكة قديمـة وراح يضـرب به سـطح الميـاه حتى يفر السـمك إلى الشـراك التـي نصبت لـه... وعاد إلـى المجدافيـن وأخذ يضرب بهما المياه في نشوة، وتحرك القارب ساحبًا وراءه شبكة لا يبين منها سـوى علامات تناثرت فوق السـطح في دائـرة... وصاح العجوز مرة أخرى: «يا بو العباس!»، وجاءه صوت رجل يلقي بشبكته:

«صباح الخير يابا محمد».

«صباح النور يا حوده».

«وحِّد الله».

«ترزق!».

«ربك كريم!».

وتصاعـدت الأصوات في سـماء المينـاء كعادة الرجـال كلما ألقى أحدهم بشـبكة، ورد المعلم محمد التحية مرات، وقال ترزق وفي قلبه خفقـة... مـن قال عنه إنه عجوز، إن الشـبكة تنسـحب وراءه كأنها لعبة صغيرة، اللهم صلِّ على كامل النور، غمرته سعادة فائقة، لا بد أن يزوج محمـود، لو كان حنفي معه لاستشـاره، لمـاذا تأخر حنفـي اليوم؟!... أيكون قد حدث شيء؟!

توقفـت يداه فجـأة عن التجديف، وطاف ببصره فـي كل اتجاه بحثًا عـن قارب أخضر اللـون، لكنه لم يعثـر للقارب على أثـر... أيكون قد خرج إلى عرض البحر، كلا كلا كلا، إنه لم يفعلها من قبل، إنه لا يستطيع ذلك وبصدره مـا به من أمراض... نهض العجوز واقفًا وضم كفيه أمام فمه ثم صاح:

«يا حودة... حوودااا».

«أيوه يابا محمد... خير يا بويا».

«ماشفتش حمودة؟... حمودة ما طلعش؟!».

مال حودة على زميله وتهامسا برهة صاح بعدها:

«لا والله يابا محمد ما شفناهوش، استنى لما نسألوا برعي، يا بورعي... بوراااعي!».

«أيوه يا حودة، أي خدمة؟!».

أخذ الريس محمد ينصت إلى الأصوات وهي تتقافز من قارب إلى قارب، هذا يسأل ذاك، وذاك يسأل الذي يليه، والآخر يسأل من بعده... وأصداء الأصوات تصل إليه واضحة، ثم خافتة، ثم أشد خفوتًا حتى أصبحت كالهمس الصارخ... وطافت الصيحات والنداءات بالميناء، ثم عادت تقترب وتعلو حتى وصلت إليه من جديد.

ترى ما الذي أصاب حمودة؟!، لا بد أن هذا هو سبب تأخير حنفي... سيتزوج محمود من زوبة... كيف غابت زوبة عن ذهنه؟!

استقرت الفكرة في رأسه ولم تبرحه، وطمأن نفسه على حمودة فلو حدث شيء ذو بال لجاءوا إليه... كان الله في عونه، خمسة أطفال وزوجة وصدر مريض، قارب خال بجوار الرصيف وشبكة لا تجد من يطرحها... لا بد أن حنفي ذهب للسيد أفندي الباشتمرجي، رجل طيب وابن حلال، ليس هناك ما يعيبه سوى عزوبته هو الآخر... ماذا جرى لرجال هذه الأيام؟!، رجل كهذا، طول بعرض وصنعة برع فيها يعيش وحيدًا بلا زوجة ولا ولد؟!... سيتزوج محمود من زوبة، فكرة لا تقبل

اعتراضًـا... «يا متولـي»، جذب الحبل، وتصبب العـرق على جبينه... النهـار أصبـح نهارًا، السـفن رائحـة غادية واللنشـات تكركـر وتمـلأ الميـناء بالضجيـج، والرزق فـي الشـبكة، والزوجة في البيـت، والابن في الحانة...!

***

مضى النهار، وعاد الصيادون بقواربهم، ومالت الشمس نحو الغرب وكادت تختفـي، وأقفـرت الميـنـاء وهدأت فيها الحركة... ليس سـوى قارب شـراعي هنا، وقارب هناك... وصيحة تنطلق: «يا متولي»... فيها استجداء، وفيها عناد متعب.

وسبحت الشبكة في الفضاء ثم هوت إلى سطح المياه ووراءها عينا المعلـم محمـد البلطـي... وكان قـد طـرح الشـبكة وجذبها عشـرات المـرات، ولكنهـا خيبت أمله، لم ترزقه إلا بسـمكات صغيرة ألقاها في قـاع قاربه... وطول يومـه وهو يقاوم رغبته في العودة... يقول لنفسـه: «**يا واد ارجع وسيبك من العناد**»، ويفور دمه، ويغلي في عروقه الغضب، ويطـرح الشـبكة من جديـد، وفي كل مـرة يخفق قلبه، وتخرج الشـبكة خاليـة... حتـى دب التعـب في جسـده، وتهدجت أنفاسـه، وأصبحت الشبكة وهي فارغة حملًا ثقيلًا تنوء به ذراعه.

جلـس يرقـب حباله وشـبكته وفي رأسـه ألـف خاطر... تـرى ماذا يقولون عنه لو عاد بلا رزق وقد ظل اليوم بأكمله باحثًا؟! وماذا يحدث للرجـال لو تحقـق ما يقولونه عن عبـد الموجود حمدان وسـفينته التي توسـق مائة طن من الأسماك، وشباكه الحديدية، وشركته الجديدة التي دخل فيها مع الإنجليز... كيف ينافسـون بقواربهم الهزيلة سفينة كالتي

يتحـدث الرجال عنها علـى الرصيف وفي المقهى؟... مـا الذي يخبئه لهم المسـتقبل من أحداث؟... الرياح تشتد، والسحب تتجمع، والليل يزحـف، والشـمس تختفـي، والقـارب خـال إلا مـن بضع سـمكات، والشـبكة فـي الميـاه... وقالوا أيضًا إن سـفينة الصيد الجديدة سـتغرق البلاد بالأسـماك، فماذا سـيصنعون؟... ومن أين يأكلـون؟... لا بد أن القلق قد انتابهم في الزقاق لغيابه، وسيأتي الرجال عما قريب، سيجدونه بلا صيد ولا رزق، سيسـخرون منه في أعماقهم... يا متولي... الشـبكة ليسـت ثقيلة... الغيظ يتملكه، الضيق يسيطر عليه، إنها... فارغة، حتى المياه تتسـرب منها... ماذا دهـاه؟... خير له أن يعود، مَن من الصيادين يقيم حياته على رزق يوم، كم من سنوات كان الرزق فيها شحيحًا، لكنه لـن يعـود خالي الوفاض، سـيعود كما يجـب أن يعود... عنـاد صبياني ولا شك، يفكر كما يفكر طفل... ليكن!!، سوف يزحف بالقارب قرب بـاب الميناء، ويلقي بالشـبكة عند امتداد مياه البحـر إلى ما وراء الأفق، هنـاك ينتهـي حاجـز الأمـواج، ويصطخب سـطح البحر في مـد وجزر خطرين، وربما هبت ريح قوية، وبشائرها تلفح وجهه... الزمن يتحداه، والقدر يتحداه، والأسـماك تعانده، لكنه سـيتحدى الجميع... ليجدف في سرعة فعما قريب يحل الظلام... سطح المياه يربد ويزداد ثورة كلما اقترب من باب البوغاز... لكنه وصل، فهل يتراجع؟!... لماذا لا يوحد الله ويصلي على النبي ويخزي الشيطان ويعود إلى الرصيف وفي العمر متسـع؟... حديث جبناء، وجبن لا يليق بـه... فليتكل على الله ويطرح الشبكة وينتظر رزقه في صبر... ألقى بالهلب فغاص جاذبًا حبله الطويل فـي سـرعة، والشـبكة مهدلـة بيـن ذراعيـه، لكنهـا سـتخرج إليـه ملأى منتفخة...

«يا عدوي... يا بو العباس... يا متولي!».

راقب الشبكة السابحة في الهواء برضاء، ثم همس: «**طرحة معلم صحيح يا واد!**»... وسرعان ما دب النشاط في جسده، وراح وجاء، جذب حبلًا، وعقد آخر، وجدف في قوة... وقرأ آية، ثم ابتهل إلى الله متوسلًا بالأنبياء والأولياء، وواجه القارب امتداد البحر بعيدًا عن حاجز الأمواج، وتلاعبت الأمواج به فأخذ يتأرجح يمنة ويسرة، وران على الدنيا هدوء عميق، وجاءته الأصوات من بعيد هامسة، تودع اليوم وتستكين في قلب الدنيا وتهجع بعد طول ضجيج... بدا له السكون مقبضًا تقطعه همسات الأمواج وهمهماتها وقد أخذت تعلو لحظة بعد أخرى مختلطة بصفير الرياح التي أخذت تشتد... وجلس العجوز على حافة القارب، ظهره إلى الشمال، ووجهه إلى حيث يرقد الشاطئ عن بعد وقد تناثرت فوقه الأنوار... وغرق في السكون تمامًا، لكنه انتفض فجأة على صوت حاد ثاقب طعنه من الخلف، وثقب أذنيه في قسوة واندفع نحو القلب تمامًا، فارتجف، وارتجفت كل خلية في جسده وهو يستدير فزعًا نحو باب البوغاز ليرى سفينة هائلة - كأنها جبل - تتهادى في شحوب الغروب تشق مقدمتها مياه البحر في بطء وثقة... قاس المسافة بعينيه، وأيقن من وقوع الكارثة، انتصب كالملدوغ وصفارة السفينة الثاقبة تخرق أذنيه من جديد، ظل جامدًا حائرًا لا يتحرك... أين ذهب حذره ويقظته؟... كيف باغتته تلك السفينة؟... مقدمتها تتجه نحو الداخل بلا توقف، والشبكة في الطريق، الكارثة!... ستتمزق الشبكة... لم يره أحد من رجال السفينة وإلا لهدأت سرعتها، تشق المياه في قوة، ويقترب جدارها الصلد من قاربه،

هائـلًا عاليًا، فـإذا هو بجـواره كالبرغـوث يتقافـز هنـا وهناك تحت قدمي عملاق.

اندفـع بـلا تردد يجذب حبـال الشـبكة... لكنها، ثقيلـة... لا بد أنها مليئـة... يا مرسـي... وأخذ يلهث، أنفاسـه تتقطع، والريـح تهب عنيفة وتدفـع القـارب فيترنح بشـدة، لكن يديه ماتتـا على حبال الشـبكة فدار القارب حول مركز الهلب الراقد في قاع المياه، السفينة تقترب، والشبكة تصعد، وجزء صغير يظهر، وأسـماك... أسـماك تتقافـز منها وفيهـا... إنها مليئة، طن من الأسماك: «**يا متولي... يا أم العواجز... يا مدبولي... يا عدوي!**»، لكنهم موتى، ماتوا كما مات السـيد البلطي، صفارة السفينة تنطلق كالزئير مرة أخرى، الدنيا ظلام ولن يراه القبطان، هل يترك الشبكة وينجو بنفسه؟!... المياه خالية، والأمواج عالية، والرياح عاتية، والشبكة ثقيلـة... والعـرق يتصبب علـى جبينه، وذراعـاه وهنتا، والجبـل العائم يقترب، والأسماك كثيرة... رزق، رزق وفير، فيض غزير...

«**حاسب... حاااسب... هووه... حاسب!**».

الظلام يشتد، وزئير السفينة يعود فيرتج له جسده ارتجاجًا، والأمواج تصطخـب فـي عنف، والقارب يميـل... جذبة قوية والحبـال في يديه، لكـن الدوامات الرهيبـة أقوى، ومقدمة السـفينة كالسـكين تنغرس في قلب الشـبكة فتمزقهـا، ويتمزق قلبه: «**حـاا...**» ومال القـارب، ودار، ومال.. ووجد العجوز نفسـه يطير في الهواء ويهوي إلى المياه، بجواره حائـط أصـم يسـير دون توقـف، بعد لحظـات تأتـي المؤخـرة ويمزق الرفاص جسـده تمزيقًـا... لكن في الحيـاة بقية، لن يمـوت، الملابس تعـوق حركته، لكنـه سيسـبح... أين محمـود؟ وأم محمـود؟... وأين

حنفي والرجال؟... ليتهم جاءوا ليعودوا به... القارب مقلوب، والهلب في القاع، والرياح تشتد، والمياه كالثلج، وحاجز الأمواج يبدو بعيدًا، ولا ملجأ له غيره، ذراعاه وهنتا، وصوت الآلات يقترب، منتصف السفينة، وبعدها الرفاص القاطع ودواماته الرهيبة، ستمتصه الدوامة إلى جوفها ويمزق الرفاص أشلاءه فتتطاير في كل مكان، لكنه لن يموت، إنه يبتعد، يسبح، الحاجز يقترب، والسفينة تمضي، يدفع رفاصها أمواج المياه بغزارة، فتصنع دوامة قمتها بيضاء تضيء الظلام، تجذب جسده في خفة ونعومة، لكنه لن يستسلم لها، سيقاوم ويضرب المياه بذراعيه بقوة، بقوة... بقوة أكثر... أكثر وأكثر... أقل من دقيقة، ثوان خاطفة ويزول الخطر... وقد زال، ابتعد الرفاص، فهدأ قليلًا، ضاعت الشبكة، والرزق... أخذ يسبح ببطء، الحاجز غير بعيد، إنه يقترب، ويصبح أقرب، ها هو أخيرًا، صخور صلبة، ملساء، يده تنزلق على سطحها، صخرة عالية... لا، لا يستطيع الوصول إلى قمتها، جسده ثقيل، أنفاسه تضيق، محمود... محمود... لماذا؟... لما...ذا؟!... نتوء في الصخرة، تشبث به، أين أنت يا محمود؟... أبوك يغرق في المياه وأنت غارق في ملذاتك؟... ضاعت الشبكة، سطح الصخر ناعم أملس زلق كالصابون... حنفي... أين أنت؟، الدنيا ظلام، سكون، النجدة، يا محمود... يا... حنفي... يا رجال... المياه تلطم رأسه، ورأسه يرتطم بالصخر، فيصيبه الدوار لكنه لن يغيب عن الوعي... كيف حدث هذا؟... ولماذا بقي!!... لماذا لم يرحل؟!... نتوء آخر، وبروز بجواره... نجدة من السماء... قشة تعلق بها وماتت عليها أصابعه، وصخرة تحت قدميه، كيف سها عنها؟، وأين كانت؟ الـ... الحمد

للـه... مكان آمن، نصفـه في المياه ونصفه في الهواء، لكنه بين جدارين يحميانه من الرياح والأمواج...

***

لماذا يمر بنا الزمان؟... لماذا لا يقف العمر عند الثلاثين؟... كانت أحلى أيامه... سينتظر حتى الصباح... لا... سوف يجيئون عما قريب، البـرد قارس، وصدره يضيـق، وكأنه في حلم بغيض... ليكن، ليفعل بنا الله ما شاء!



الفصل السابع

اندفع السيد أفندي الباشتمرجي من حارة أبو السعود بجلبابه الفضفاض، وجاكتته الحائلة اللون، وقد أرخى طربوشه إلى الوراء في سعادة، ودار إلى اليمين دورة سريعة، وخطا في الزقاق خطوة، ثم توقف مبهوتًا... أخذ يجول بعينيه في المكان وقد انتابته حيرة ودهشة... كان الزقاق - على غير العادة - قفرًا يسوده الظلام، لا ضوء ولا بصيص من الضوء، لا أطفال يلعبون ولا نسوة يثرثرن... أخرج ساعته من جيب جلبابه الصغير، وراح يحملق فيها وعلامات الدهشة تتزايد على تقاطيعه لحظة بعد أخرى... وما لبث أن دس ساعته في جيبه، واستدار مسرعًا نحو الأسطى عبد المولى الحلاق في دكانه الذي يواجه الزقاق... رفع له يده بالتحية دون أن ينبس بكلمة، وتلاعب لسانه في فمه دون أن ينطق بحرف... ونظر إليه الأسطى عبد المولى بعينين ساهمتين، ثم هز رأسه وقال في صوت حزين:

«**أبوك محمد البلطي يا سي السيد!**».

وصاح السيد أفندي في جزع:

«**ماله.. حصل إيه؟!**».

«**بيقولوا الريح...**».

واختنق صوت الرجل، واحتبست الكلمات في حلقه، وعاد السيد أفندي إلى الصياح:

«خبر اسود... قول حصل إيه يا جدع؟».

أشاح الأسطى عبد المولى بيده، وأومأ نحو الطريق إلى الميناء... وكأنما كانت حركته تلك إشارة بدء انطلق السيد أفندي بعدها يعدو مهرولًا، فقطع الحارة في خطوات، ثم انثنى إلى اليسار مخترقًا زقاقًا ضيقًا انتهى به إلى شارع وكالة الليمون، ودار إلى اليمين، وراح يجري بكل ما في ساقيه من سرعة.

***

أمام باب الرصيف، كانت النساء - من البلطية وغير البلطية - قد احتشدن مولولات نائحات... زوبة اعتصرها الحزن فانكفأت على الحائط وهي تبكي في حرقة، وعائشة تجلس على الأرض وقد أخذت أمها بين ذراعيها، بينما أم حنفي تصرخ بين الحين والحين بصوت مبحوح: «يا راجلي»، على الجانب الآخر تكومت أم محمود - زوجة المعلم محمد - بجوار الباب ذاهلة عن كل ما حولها، وقد أسندت رأسها إلى كفها وغرقت في صمت ذاهل، وبين الفينة والفينة، كانت تطلق صرخة ملتاعة تنتزع الصوات من حلوق النسوة، والدموع من عيونهن... وبدت مقهى سلومة - على ما اشتهرت به من زحام - خالية من الرجال تقريبًا، وقد تناثر من بقي على الرصيف منهم في كل مكان... البعض يتكهن بغرق المعلم محمد، والبعض مؤمن أشد الإيمان بأنه لن يموت، فهو ريس البلطية، والبلطية لا يقهرهم بحر... وبدا الرصيف - فيما وراء الباب - خاليًا إلا من جندي استند إلى أحد

الأعمدة يحملق في الظلام وقد تناثرت فيه أضواء الكلوبات والقوارب التي راحت تبحث عن المعلم محمد.

والأفكار تدور في كل الرءوس كأنها نسخ مكررة للحيرة والخوف والقلق التي سيطرت على النفوس والعقول جميعًا.

لم يعد المعلم محمد البلطي منذ خرج في الصباح وحده!

ظنته زوجته في المقهى كعادته كل ليلة، وظنه حنفي في البيت وكان قد غادر الزقاق قبل العصر ليزور حمودة، وظن الرجال أن العجوز قد عاد قبلهم وسبقهم إلى الحلقة وباع رزقه... ومضت بعد الغروب ساعة، وساعتان، وأذنت العشاء في زاوية جُمِيع، وفي جامع المرسي أبو العباس، وازداد هبوب الريح، وشعر حنفي بالملل والضيق يتسربان إلى نفسه ويسدان عليه كل منفذ للسلوى، فغادر المقهى وهو حائر بين طريقين... إما أن يذهب إلى الصحاب، أو يذهب إلى الزقاق... جلسة الصحاب في البوظة تفرج الهم وتجعل للألم نخسًا لذيذًا، قرعة أو قرعتان في بوظة شلوفة، وخدر يحمله على جناحيه إلى أرض أحلام بعيدة المنال... لكن أحلامه - على شدة تعلقه بها - بدت له في تلك الليلة شاحبة لزجة تبعث في نفسه النفور والتقزز!... فاستسلم لضيقه واتجه إلى الزقاق.

ما كاد يخطو في الزقاق، حتى طالعه صوت أم محمود تسأله عن عمه، فتوقف وقد فاجأه الأمر... سنوات طويلة مضت، إذا أراد فيها أحد المعلم محمد البلطي بعد الغروب، فهو في أحد مكانين، المقهى أو الزقاق... وكان حنفي في المقهى منذ دقائق، وليس المعلم محمد في الزقاق!

«هو ما رجعش يا خالتي؟!».

«لا والنبي يا ابني من صباحة ربنا».

اندفعت الرياح من أعلى الزقاق في طوفان لف حنفي وأسلمه لقشعريرة ارتجف لها ارتجافًا شديدًا، لكنه سرعان ما استدار عائدًا وقد استبد به القلق.

وعصف القلق بالبقية الباقية من هدوئه، وراح يتمتم محدثًا نفسه وهو يسب الحياة ويلعنها... كان مرض حمودة، وما سمعه من السيد أفندي، قد أمداه بحصيلة من التشاؤم تكفيه عامًا بطوله، عندما عاد إلى الرصيف في الضحى وقالوا له: إن عمه قد خرج وحده، انقبض قلبه وعزف عن اللحاق به، وراح طول يومه يتسكع ملولًا بين المقهى والرصيف، حتى ارتفعت الشمس إلى منتصف السماء فذهب إلى البيت وتناول غداءه، ثم عاد إلى حمودة ليجده غائبًا عن الوعي، تجمع حوله الأطباء والممرضات ومنعوه من الاقتراب منه... ولم يجد السيد أفندي.

إلى متى تظل الكآبة هي سحابة حياته؟... أين ذهب عمه الآن؟... أيكون قد حدث له شيء؟!

ولاحت لحنفي أنوار المقهى.

دقائق قليلة هي التي مضت حتى تجمع الرجال فوق الرصيف، وراحوا يحلون قواربهم، ويقفزون فيها، ويتسلقون صواريها العالية... وغمر المكان بعد لحظات ضوء عشرات الكلوبات والمصابيح التي حملوها من الخارج... فما كاد حنفي يسأل الرجال عن عمه، حتى قال رجل:

«آني شفته في المغربية عند باب البوغاز!!».

«باب البوغاز يا جدع؟!».

«باب البوغاز وحياة النبي، حتى آني سلمت عليه ماردش السلام!».

وبحثوا عن القارب ولم يجدوه!

وكان في هذا الكفاية... كلمات قليلة تبودلت، تحرك بعدها كل شيء في سرعة ونظام!

ووصل الخبر إلى زقاق السيد البلطي... وقبل أن يصل إلى الزقاق تسرب مع الهواء إلى كل بيت في الحي!

***

كان المعلم محمد قد استكان في مكانه منذ أن وجد له مأمنًا بين الصخور... استطالت ذراعاه حتى استطاع التشبث بقمة صخرة، وبحث فوجد لقدمه مكانًا عاليًا صعد إليه مبتعدًا عن سطح المياه المتلاعب، ثم قبع منكمشًا على نفسه...

ومرت به الدقائق الأولى كأنها أعوام طويلة، وهبط الظلام على الدنيا فكساها بردائه الأسود... ودار الفنار بضوئه الوهاج مادًّا شريطه الفضي إلى عشرات الأميال كذراع مضيئة تمزق ستر الظلام التي دفنت البحر في أغوارها المخيفة، وعن بعد، كانت أنوار المدينة تتلألأ متناثرة كحبات من لؤلؤ وضاء... والأمواج ترتفع حينًا وتضرب الصخر بقممها فيصل رذاذها إلى قدمي العجوز، فتسري في جسده رعدة، وتنطلق من صدره سعلة، بينما انعقدت ذراعاه فوق صدره، وجمد... وظلت عيناه ترقبان كل شيء.

ومرت ساعة، أحس بعدها كأنه بلا ساقين، ثم تسرب إليه خدر مؤلم جمد كل أعضائه، حتى شفتيه، خيل إليه أنهما تضخمتا وأصبحتا في حجم لا يسمح لهما بالانطباق... وكست عيناه طبقة ندية من الضباب، وضعفت خفقات قلبه وتباعدت، وارتعد فكه... وران من حوله الصمت، ومع الصمت تسربت إلى نفسه وحشة ويأس.. زحزحة قدم فوق أحجار زلقة قد تؤدي به إلى الأعماق، ركود يصيب نفسه، وهمود يحط على أحاسيسه، فلا خوف ولا جزع، لا برودة ولا دفء... أحس كأنه معلق في الفضاء، لا حول ولا طول، نسي القارب، ونسي محمود، ونسي حنفي والرجال... الطبيعة من حوله في موات، الحياة بعيدة بعيدة، وراء ضباب كأنها حلم، فليمت إذن في هدوء!

***

وسواء طال به الزمن أم قصر، فقد مضى... ودبت الحياة في الدنيا من جديد، وغمرت أضواء الكلوبات سطح المياه. وترامت إليه أصوات الرجال ونداءاتهم، فظل ساكنًا كأنه لا يسمع ولا يرى ولا يعيش... واقتربت القوارب أكثر، وتتالت الأصوات منادية، وتساءل العجوز عن سبب سكونه وسكينته... أيكون قد مات حقًّا؟!... القوارب تسبح في كل مكان، بعضها يشرِّق، والبعض يغرِّب، وأخرى تطير إليه، والصيحات تعلو وتعلو فلا تهز في جسده شعرة... وانبعث من قلب الظلام المضيء صوت ارتجف له قلبه، ووقف له شعر رأسه...

«يابا... ياااابا».

محمودا!

نشط عقله كأنما نخسته عصا سحرية، فانطلق يفكر في سرعة... هل يستطيع أن يجيب؟!

«ياااابا...».

هل سيجد صوته؟!

«يابويا.. ياابا».

«محمو... د... محمود... هوووه... محموووود!».

أهو الذي ينادي أم إنسان آخر سواه؟... تحركت ذراعاه دون أن يدري، وحملته ساقاه المتجمدتان رغم ارتجافهما، ورعدة تمس قلبه فتندفع منه الدماء راكضة كاللهب في عروقه...

«يابا... يابا محمد!».

«أيوه... أنا هنا... هوووه يا ولاد!».

«يا معلم محمد... يا بلطي!».

«أيوه يا برعي... يا حاج... أنا هنااا!».

وتجمعت الأنوار، وبدت له أشباح القلاع وهي تصفق في الهواء كأنها طيور نورس خرافية... وطفح الدمع من عينيه، وراح يتساءل وهو يرتجف... هل قدرت له الحياة مرة أخرى؟... أي يوم هذا الذي مضى؟!... الرزق جافاه، والقارب مقلوب، والشبكة ممزقة، والموت كان قريبًا، والفرح يغمره بالرغم من كل هذا؛ فالحياة حلوة، الصخور ليست ملساء كما ظن، هناك أماكن خشنة اعتمد عليها كفاه الآن، ساقاه تخشبتا، الأنوار تتجمع وتتلاصق لتصنع كتلة من الضياء فكأن الدنيا في فرح، صوته ينطلق راعدًا، وصوت يصرخ:

«أبويا آهه... جاي لك يابا... جاي لك!».

إنه محمود!

ما أحلى صوت ولده، جسده يهوي إلى المياه، وجسد آخر، لا بد أنه حنفي... لا بد!

«خليك مكانك يابا، جايين لك يا بويا!!».

«بوجي يا بنداري».

«حاسب يا احمد وولع النار».

«شد البارومة يا سيدهم، لم القلع يا جدع».

«حضرت البطاطين يا رومة؟... جهز نفسك أول ما يطلع!».

أذرع قوية تضرب المياه في مقدرة، عشرات الرجال خرجوا من أجله، ومصابيح كثيرة، عشرة، عشرون، ثلاثون... أكثر، أكثر بكثير... وضباب يحجب عنه الرؤية، دموع تسح من عينيه... وصوت محمود يناديه فيرد عليه مرتجفًا:

«أنا هنا يا ابني... أنا بخير!».

ورجل يصيح من بعيد... وجدوا القارب!

وصل حنفي إلى الصخور... وجهه يطل عليه من أسفل، وكأنه السيد البلطي يخرج إليه من أعماق المياه لينقذه، ومحمود بجواره، أذرعهما مفتولة تحمله في قوة ويسر، والليل أصبح نهارًا.

«سلامتك يابا.. سلامتك!».

«أنـا بخير يا واد، جمد قلبك... القارب انقلب بيه، الشـبكة راحت، كان فيها كتير، كانت واسقة طن يا واد، خدتني المركب غدر!».

«فداك يابا... فداك».

قالاها - حنفي ومحمود - في نفس واحد، قلبه يضطرب في صدره كحمامة مذبوحة... برعي يمد له ذراعه من القارب، عشرات الأصوات تسلِّم وتنادي وتسأله عن حاله...

«آني بخير يا ولاد... الله يسـلمكم... بتقول إيه يا سيدهم؟... البرد جامد؟... لا أبدًا... آني كنت مولع نار يا بن القرموط وبنشوي سمك!».

ضحكات؟... ما أحلى الضحكات، يخلعون عنه ملابسه، ويدلكون له ساقيه وقدميه وجسده، يدثرونه بالبطاطين ويقربونه من النار، محمود يقتـرب منـه وينحنـي أمامـه، تقطـر المياه من وجهه وشـعره وجسـده، ويبكي!!

«بتعيط ليه يا واد... إنت صغير؟!».

«إنت بخير يابا؟».

«نحمدوه على كل حاجة، بخير... بخير والحمد لله!».

مـا أحلـى الدموع عندمـا تدفئ عينا طـال الصقيع من حولها، شـفتا ولده على ظهر كفه تدفعان الحياة دفعًا إلى قلبه... شاي؟... سيجارة؟.. وفرحـة طاغيـة، تصفيـق وغناء، وطبل فـي كل قارب، وأشـرعة ممتلئة بالريح، وغناء الرجال يتصاعد إلى عنان السماء... «سالمة يا سلامة»... كيـف حال حمـودة؟... في المستشـفى؟، وامك يا محمـود؟ وامك يا حنفي؟... وعائشة؟... والعيال كلهم؟...

وكأنه غاب مئات السنين، لم يكن سفرًا طويلًا، كانت ساعات مرت كالدهور، احك عما كان في الشبكة من رزق آخر مرة، ولكن... قبل أن تحكي مل برأسك قليلًا، وأرشف من الشاي الساخن، واجذب من السيجارة نفسًا، وتمدد، واسعل... فلا بد أنك مريض... اسعل يا عجوز إنها سبعون عامًا...



الفصل الثامن

قبع محمود في منتصف القارب بعد أن ارتدى ملابسه، وحمل بين كفيه كوب الشاي الذي قدموه له، وأخذ يرشف منه على مهل، وعيناه لا تفارقان وجه أبيه.

من كان يصدق هذا؟... كيف كان يعيش أيامه الماضية؟... هل يحب أباه كل هذا الحب؟... بدت له الحياة في لحظة بوجه جديد وغريب أخذ يحملق فيه كالمذهول... كان يرتعد وهو يرشف الشاي غارقًا في الضجة التي أقامها الرجال من حوله، في الصياح والنكات والأغاني التي أخذت تسبح في سماء الميناء في ذلك الليل البهيم... الأضواء المتناثرة وأشباح القوارب والرجال، كان هذا يهزه هزًّا عنيفًا ويبعث في جسده قشعريرة ارتعدت لها أوصاله... لكنه حزين، وحزنه عميق يكاد يسحق روحه.

في لحظة، خيل إليه أن أباه قد مات، كانت لحظة تساوي العمر كله، صرخ فيه أحدهم وهو جالس وسط الزقاق غارق فيما يغرق فيه كل ليلة: «أبوك يا محمود!»... عالم غريب مبهج يجذبه إليه فينساق دون وعي وراء ليل يقوده من أعماقه... ماذا يريد؟... لا يدري. يروح ويجيء ويقول الشعر ويغني المواويل ويطرب الصحاب ويعيش الحياة بكل قلبه. يقولون عنه في الزقاق إنه عربيد وهو قول لا يهمه، فهو ليس

فـي واقـع الأمر عربيدًا ولا حشاشًـا، كل مـا هنالك أنه حزيـن... حزنه غريب لا يدري كنهه ولا مبعثه ولا سـببه، شيء كالضياء الباهر يلوح له فـي ظـلام الحياة فينجـذب إليه مقهـورًا مغلوبًا على أمـره، الصيد مهنة شـريفة والصيـادون أعظم النـاس وأكرمهـم وأحبهم لقلبـه، لكنه ليس مثلهم. واأسـفاه الشـعر الذي يقـوله لا يدري متى تعلمه ولا كيف نطق بـه. وتغلي مراجـل في أعماقــه. شـجار والده يحز في نفسـه كما تحز السـكين رقبة شـاة تذبح، يشـعر دائمًا أن أبـاه وراءه، حائط قوي يستند إليه إذا أصابه الدوار، وجهه العريض وأنفه الكبير وصوته الأجش أحلى مـا رأى وما سـمع في حياته، حبـه لأبيه لم يكن يومًـا موضع نقاش بينه وبيـن نفسـه... لكنه الليلة يحسـه بشـكـل آخـر، أعمق وأشـد وأعنف وكأنـه غرام!!... أيمـوت هذا الرجـل؟... أيفنى ذلك الوجـه الهائــل الـذي يمـلأ حياتـه؟... أتهمد تلـك الحيوية التـي لم تؤثر فيها سـبعون عامًـا؟... أيذهـب كل هـذا ويبقـى وحيـدًا، بلا أب، وسـط هـذه الدنيا الغريبة عليه؟...

عندما أخبره زكريا أبو دراع بما حدث ظن أنه يهون الأمر عليه حتى لا تأخـذه الصدمـة، كان فـي بوظـة شـلوفة عندمـا اندفـع زكريـا مـن الباب صارخًا:

«أبوك يا محمود!».

«خير... ما له؟!».

قالها في جزع وكل جسده يتقلص ويضطرب.

«خرج من الصبح ومش لاقيينه!».



جمد كما جمد الصحاب وران السكون للحظات، واعتصرت نفسه آلام رهيبة، ثم خرج صوته مبحوحًا:

«قول يا زكريا قول... أبويا جرى له حاجة؟!».

«أبدًا والله، بس لسه ما رجعش!».

«الريح جامد والليل متأخر، قول...».

«يا جدع انت صغير، والله ما نعرف».

كان مخدرًا من هول الخوف عندما همس مذهولًا:

«أبويا مات؟!».

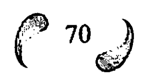
وعلت الصيحات من حوله:

«يا شيخ وحد الله، فال الله ولا فالك، عيب يا جدع كده!».

واندفع إلى الخارج كأنه يهرب من سياط تلهب كيانه، دموع تصعد إلى عينيه فيكتمها في صدره لتفور وتغلي وتعذبه أشد العذاب... ما أقسى أن يموت الأب ويتركنا وحدنا ولو كنا رجالًا بالغين... اندفع كالمجنون وعبر الشوارع والحواري ولحق بالرجال وقفز إلى قارب وانطلق يبحث بعينين لا تريان!... الرياح تلذع وجهه الملتهب بالدماء، والظلام كثيف، والدنيا فارغة، عدم، ليس بها أحد... أكان والده كل أحد بالنسبة إليه؟... لماذا نموت؟!!.. لماذا؟...

لحظات مرت عليه كان يقاوم فيها دمعه الغزير، حتى خيل إليه أن رقبته تنتفخ وتوشك على الانفجار... وتوسط القارب الميناء، ونادى رجل:

«يا با محمد...».



فتبعه محمود صائحًا بكل ما في حلقه من قوة:

«يااابا...».

وفوجئ بنفسه يصرخ باسم أبيه، كان النداء أبعد عما نطق به، كان نواحًا اندفع بعده الدمع فغطى وجنتيه وغمرهما، واقترب منه حنفي ووضع يده على كتفه وهمس بصوت ثاقب هادئ:

«جرى إيه يا محمود، إحنا عيال؟!».

حنفي لا يتحدث إلا باسم الجميع، لم يسمعه مرة يقول فيها «أنا»... طالما تساءل عن سبب الاختلاف بينهما، لقد أحب حنفي وأحب بكل قلبه الجلوس معه والتحدث إليه... لكنه كان كالآخرين لا يفهمه... وشيخ الآخرين أبوه!!...

شيخهم وكبيرهم وزعيمهم!... ليكن، فيكفيه من الدنيا أنه عاد إلى الحياة... عدت يا أبي إلى الحياة وسأخضع لإرادتك، سأخرج إلى الصيد في الصباح وأعود به إلى الحلقة وأبيع وأشتري وأهجر الشعر والمواخير والغرز... لم أذهب إليها يا أبي لأني حشاش أو سكير، بل لأن الحشاشين والسكارى هم الذين يفهمونني ويقبلون على بضاعتي، والله كنت صادقًا كلما عدت إليك تائبًا... لم أخدعك أبدًا، نفسي ممزقة وروحي تائهة، أبحث عن نفسي كالضال في أعماق محيط بلا قاع... من أنا يا أبي؟!... لو أدخلتني المدرسة لتعلمت وبحثت وعرفت من أنا؟... فكري يخيفني يا أبي، أحب اللذة، ولذتي القصوى أن أقول الشعر، لكني سأطلقه من أجل عينيك... سأطلق الشعر وأتزوج الصيد، سأقر بنفسي عينيك، وسأكون طوع بنانك... حزني شديد يعتصر

قلبـي، تقولون عني إني طفـل كبير، فلماذا لم أكن رجلًا مثل حنفي؟... لمـاذا؟... أنـا لا أغار منه ولكني أحسـده... حنفـي يتصرف كرجل في السـبعين، وأنا أعبث كطفل في العاشـرة... عندمـا حملتك وعدت بك إلـى القـارب وجلسـت أمامك، سـألتني عـن سـبب بكائـي، ونهرتني يا أبي... لكني أستعذب البكاء الآن... خيل إليَّ أني آذيتك، لن أعصي لـك أمـرًا، صدقني فهـذه آخر مرة، لـن أذهب هنـا أو هناك، لـن أغادر الزقـاق إلا للرصيـف ولـن أتـرك الرصيـف إلا للحلقـة!... تفرحنـي ضحكتك وتهز قلبي بالسعادة... تمامًا كما أهتز يوم رأيت كايداهم.

***

أنـت لا تعرف كايداهم يا أبي، لكنها تعيـش في دمي... يحق لي أن أفكـر فيهـا فأبي حي ونحن في فـرح... مومس هي، أعلـم ذلك، لكنها قطعة من قلبي المحترق بحبها... لا طاقة لي بمقاومة ما أحسه نحوها... تحسـدونني يـا رجال على حبها وأنـا أكثرهم تعاسـة، ذاقت أحضانكم الواحـد بعـد الآخر، وتعـرت أمامكم فـردًا فردًا، ورقصـت لكم رقصة الحياة عشـرات المرات، لماذا تسـمونها رقصة الفـراش يا رجال؟!... واللـه إنكم لغافلون عما في الدنيا من حقائق، إنها مثلي يا رجال، قالت لي ذلك في تلك الليلة... عندما أغلق علينا الباب كنت سكران، نظرت في عينيها وانزلقت نظراتي على جيدها وملست على صدرها فارتجف قلبـي، ضحكت مني ليلتها وسـألتني إن كنت رجـلًا!!... لم أرد عليها فلسـاني كان مشـلولًا، جلسـت بجواري أنـا الذي كنـت أذوب للمس عيني لجسـدها، واحتضنتني وسـألتني لماذا أقول الشعر، وكيف أقوله، فسـألتها: لماذا ترقصين في المواخيـر والحانات؟ فضحكت مني وهي

تبتعد ملقية بجسدها على الفراش بجواري، قالت لي ما لا تعرفونه يا رجال:

«أنا كده، اتخلقت كده، أحب الرقص والرجالة!».

صعقتني كلماتها فارتبكت، لكنها عادت فنهضت قائمة على كوعيها ووضعت رأسها بين كفيها وسلّطت عليَّ عينيها، كانت الحجرة دافئة، والفراش ساخنًا، وثوبها منحسرًا عن فخذها، وقالت بصوت مبحوح:

«البنت اللي تقول لك إنها عاوزة تاكل عيش كدابة، واللي تقول لك إنها بتجري على عيال كدابة... اللي تقول لك ايش بالذي كدابة!».

ثم اعتدلت في الفراش وتهدل شعرها، وارتفع صدرها في انفعال وهبط، وانحسر الثوب عن كتفيها، وصوبت إليَّ نظراتها وقالت:

«إحنا كده يا محمود، صنف مدعى عليه، هربت من أبويا ومراته واشتغلت خدامة وغسالة وعرفت رجالة عدد شعر راسك، فيهم الوحش وفيهم الأوحش، فيهم الوسخ وفيهم الأكتر منه، وكلهم أصناف تدوخ الرأس».

«وأنا... من أي صنف؟!».

«انت غلبان يا محمود زي حالاتي، حنفي ابن عمك ييجي يشرب له قرعتين ويضحك ضحكة ويقول عن إذنكم، هويته شوية أيام، ولو طلب مني الرفق كنت بقيت خدامته، لكن حنفي مش زيك وانت مش زيه!».

«مين أحسن؟!».

قلتها يا رجال بلا وعي ودون قصد، نظرت إليَّ كايداهم وكأنها تريد أن تعريني وتعبث بما في أعماقي، ثم ضحكت وهي تتمرغ في الفراش في دلال وقالت:

«انت بتغير منه؟!».

ولم أرد عليها، أحسست كأنها تصفعني، لكنها عادت فقالت في صوت حنون... كم كان جميلًا صوتها يا رجال:

«اللي زيك ما يعرفش الغيرة، قلبك زي اللبن الحليب، لكن غصب عنك، أنا عارفة انك معذور، عارفة كده كويس، أنا لي أخت متجوزة واحد موظف، موظف في البلدية يا محمود، جوزها كان حايطلقها بعد أنا ما طفشت، كانت زي حنفي تمام، الدنيا في عينها بيت وراجل ولقمة عيش، والدنيا في عيني رقص وغنا وألف راجل وكاس!».

ليلتها بكت على كتفي، ساحت دموعها فوق خدها ولم أقبلها، خفت على وجنتها من شفتي الباردتين، ارتجفت يومها كأني مصاب بالحمى، ونامت في حضني حتى الصباح، وحكم عليَّ وعليها ألا نذوق طعم الحب.

«انت زي اخويا يا محمود، عمرك ما خليتني أحس انك راجل زي بقية الرجالة، كنت دائمًا حنين وقريب مني، زي أخويا، أبويا!».

ولم تكن تدري أن قلبي يحترق!

وفي الصباح كنت أبتسم لها، وكان قلبي يقطر دمًا تصرخ قطراته في عروقي: **«أحبك يا كايداهم... أحبك»**... لكني لم أقلها يا رجال،

فلســت في نظرها رجلًا كالرجال... مضيت عنها وكأني كنت في حلم، وبكيت... بكيت وحدي كثيرًا...

وفي المساء جلست وسطكم وأنتم تترنحون وتضحكون، وتلاعبت أصابـع زيـن علـى ثقـوب مزمـاره، وتلـوى جســد كايداهم فـي رقصة أذهلتكـم، لكني كنت أراهـا كما لا ترونها، رأيتها ترقـص من ألـم دفين يبعث في النفس والجسد أعظم لذة، نفس الألم رقص له لساني فأطلق شعرًا غنيته لكم:

يا عينـي دمعـك ضنانـي من البكـا والنــوح

ما انت اللي كنت السبب، ليه نظرتك بتروح

للي عشقتـه وخلـى القلـب بـــات مجـروح

على مهلك يا أبي، هذا هو الرصيف، الحمد لله على سلامتك، أمي تزغرد والنســاء يا أبــي، يدك لأقبلها مرة أخرى، ســأطيع بعـد اليوم كل رغباتك، سأطلق حياتي رغمًا عني فلا أملك سوى الأسف...

ترى... هل ستذكرني كايداهم؟!



الفصل التاسع

كان المعلم محمد يقطن آخر منزل على اليسار عند طرف الزقاق المسدود، وكان بيته - كبقية بيوت الزقاق - قديمًا، ذا فناء واسع يمتد في رحابة وراء المدخل مباشرة، تقوم على جانبيه حجرات ضيقة، تفصل بينها أبواب هي أقرب للستائر الرقيقة، لا تكاد تخفي شيئًا أو تحجب صوتًا لكثرة ما بها من ثقوب وشقوق، أو تفصل بينها حيطان خربة متآكلة سرت رطوبة الأرض في أسفلها، ونقعت على سطحها في بقع كئيبة تصدم العين وتصنع إطارًا مناسبًا للحجرة ذات الأرض العارية من البلاط أو الخشب... وإذا وجدت حصيرة تغطي سواد الأرض ولزوجتها، فهي ممزقة متآكلة الأطراف مليئة بالثقوب... وفي ركن الفناء الأيمن تقوم دورة المياه والحمام، أما المطبخ فليس له وجود في الزقاق كله، ذلك أن من عادة نساء البلطية أن يطهين الطعام أمام أبواب الحجرات... وفي أوقات الغروب، تخرج كل امرأة إلى عتبة حجرتها، أمامها وعاء فوق موقد تختلط ضجته بضجيج المواقد الأخرى، بأصوات النسوة في ثرثرتهن... بصراخ الأطفال اللاعبين في الزقاق، أو بكاء آخرين يحبون فوق الأرض ويتمرغون في التراب... وتنتشر - في ذلك الوقت من اليوم - رائحة الطعام المطبوخ، وتمتلئ الأفنية بالبخار الدافئ.

وفي الصدر - أمام المدخل مباشـرة - يقوم سلم ضيق مظلم حالك الظـلام في أشـد أوقات النهار نـورًا، يخيل إلى الصاعـد عليه - إن كان غريبًـا - أنه سـرداب يؤدي إلى مقبرة معتمة، ويتعرج السـلم يسـارًا في دورتيـن، ويصل إلـى الطابق الأول الذي يبدو دائمًا - في كل البيوت - أكثر اتساعًا من سابقه، يلبس ثوب القدم رغم المحاولات العديدة التي تبذل في تجديده كدهان حوائطه أو رصف أرضيته بالبلاط.

وقـد مرت سـبع ليال لم يبـارح فيها المعلم محمد فـراش المرض، كان قد أصيب بنزلة شعبية حادة، لم يستطع فن السيد أفندي الباشتمرجي ولا مرانـه أن يقفـا أمامها، فاسـتدعى طبيبًا من المستشـفى زاعمًا له أن المعلـم محمـد زوج خالته... وقـد كابر السـيد أفندي فـي البداية أمام نفسـه، وبذل أقصى ما استطاع من جهد، ظنًّا منه أن حضور الطبيب إلى الزقـاق أمـر سـيكلفه مـن كرامته مـا لا يطيق، لكنـه أمـام تداعي صحة العجوز وتدهورها، لم يجد مفرًّا من اسـتدعاء الطبيب... وعلى عكس ما كان ينتظر، رفع هذا من قدره أمام أهل الزقاق، خاصة النساء اللواتي أخذن يتهامسـن - على مسمع منه - عن مركزه في المستشفى، وكلمته التي لا يستطيع طبيب أن يردها... وكان لا بد أن يثلج هذا الثناء صدره، ويزيـد مـن زهوه وتقديـره لنفسـه، فكثرت على لسـانه أسـماء الأدوية الغامضـة، وقصص بطولاته وعبقريته وإنقـاذه لأرواح الكثيرين... وإن كان هـذا كلفـه - يوم أن جـاء الطبيـب - جنيهًا كاملًا اشـترى به بعض الأدويـة، ممـا تـرك في نفسـه ضيقًـا شـديدًا، إلا أن ضيقه هذا سـرعان مـا تبخـر وزال مع ما جد مـن أحداث قلبت حياته السـاكنة رأسًـا على عقب! كان حمودة قد غادر المستشفى بعد أن مكث فيها يومين... وقد

أضافت عودة حمودة للزقاق لمسئوليات السيد أفندي مسئوليات جديدة... فنشط نشاطًا ملحوظًا، ولم يتوان عن زيارة الزقاق كلما وجد لديه وقتًا يسمح له بالذهاب، وكانت زياراته المسائية تمتد إلى ما بعد منتصف الليل، حيث يلتف الرجال حول فراش المعلم محمد، تتوسطهم مجمرة تتصاعد منها ألسنة حامية من لهب يبعث الدفء في الأجساد... وتحلو الأحاديث وتكثر الحكايات وتدور أكواب الشاي مرات ومرات، ويعبئ جو الحجرة دخان الجوزة التي لا تكف عن الكركرة، يلف الجميع في غلالة يرون الحياة من خلالها ذات لون بهيج، وطعم ألذ مذاقًا.

وبقدر حب السيد أفندي لهذه السهرات وفرحته بها، لما كان يوليه إياه الرجال من عناية خاصة فرضتها شهامته وتفانيه، إلا أن غبطته كانت أشد لما أصاب أم حنفي في تلك الأيام من ضعف شديد ألزمها الفراش، وما كان يتيحه له مرضها من محادثة عائشة حديثًا ملتويًا تحمل كلماته معاني كثيرة، بذل جهدًا كبيرًا حتى استطاع أن يفهمها منه المعنى الذي يقصده.

والغريب... الغريب الذي جعل قلبه يرقص فرحًا، أن عائشة استجابت لغزله!... وكانت استجابتها ملتفة ملتوية تحمل - هي الأخرى - أكثر من معنى، مما دفعه لأن يأخذ دائمًا جانب الحذر الشديد حتى لا يحدث ما يمكن أن يعكر صفو سعادته.

***

كان السيد أفندي أشد الناس سعادة وهو يدلف - في الليلة السابعة - إلى بيت المعلم محمد... فقطع الفناء في خطوتين - وكان الفناء



خاليًا - ووصلت أصوات الرجال من الدور الأعلى إلى أذنيه عندما امتدت قدمه إلى السلم المظلم يتحسس درجاته، وصعد درجة، ودرجتين، ودار مع استدارة السلم عندما اخترقت أذنيه هفهفة ثوب، فتنبهت حواسه كلها فجأة، ثم توترت عندما تلمست خياشيمه تلك الرائحة التي لا يخطئها وسط آلاف الناس، فهمس بصوت مضطرب:

«مين؟!».

«مساء الخير يا سي السيد أفندي».

«عيشة؟!».

صعد درجة أخرى بجسارة تعودها في مثل هذه المواقف، وإن كان الوضع هنا يختلف، وامتدت يسراه فوق سياج السلم زاحفة، فاصطدمت بيدها التي فرت مولية واختفت عن حواسه في الظلام، فعالج الأمر بسرعة قائلًا وقد تصلبت كل أعضائه:

«إزاي الحال دلوقت يا عيشة؟!».

«نحمدوه... أحسن كتير».

وساد صمت عميق، تخللته أصوات أنفاسهما المتلاحقة، وأصوات الرجال الآتية من الداخل، لكن صوت عائشة تصاعد فجأة وعلى غير انتظار خفيضًا هامسًا:

«بس انت غبت عنا كتير يا سي السيد أفندي!».

رقص قلبه رقصًا طروبًا، فلم يكن قد غاب عن الزقاق، سوى صباح ذلك اليوم، وأحسَّ بغريزته أن وراء قولها ما وراءه، فقال مضيقًا عليها الخناق بحذق الخبير:

«مانا كنت هنا امبارح بالليل يا بت الناس!!».

«والنهاردة الصبح؟!».

لم يعد أمامه شك... على أن الشك وإن كان في حد ذاته مبعث لذة خفية، إلا أن ذروة اللذة تأتي في لحظة اليقين الباهرة... لذلك، سرعان ما انقض عليها بالسؤال متعجلًا لتلك اللحظة، وكأنه ينتزع منها قلبها:

«يعني وحشتك؟!».

«وحشت الزقاق كله!».

عادت تروغ منه وتفر... ولكن، أيقنع بهذا القدر ويترك للظروف أمر اليقين؟!... طالما حاورهن في المستشفى وطاردهن... يرغن في سراديب خجل يلهب المشاعر، ويشعل في الحواس نارًا هادئة تبين في ظلمة السراديب كضوء ألف شمعة... وفي مثل هذا الظلام المتأجج يحلو الكلام والنجوى... ترى هل هي ملتصقة بالحائط أو تقف وسط السلم؟... يا له من مجنون عربيد!!

«يعني انت زي غيرك يا عيوشة؟!».

«يا سلام عليك يا سي السيد أفندي... عن إذنك بقى!».

ولا يدري كيف أفلتت من جواره دون أن تمسه في ذلك المكان الضيق... النساء كالقطط، يرين - حتى في الظلام - الرغبات والنفوس، عوده إحساسهن على حدته، وإن لم يستطع مجاراته أو اللحاق به... وكانت عيناه تتبعان شبحها الهارب وهي تغادر البيت، واستطاع أن يلمح على وجهها - عندما انفلتت إلى الزقاق - شبح ابتسامة، فخفق قلبه.

لو أن أحدًا قال للسيد أفندي أن ذلك ممكن أن يحدث، لما صدق... ولأقسم بأغلظ ما يؤمن من أيمان - على ندرتها - أن هذا أمر لا يمكن أن يحدث... ولكن، ما إن تنقض علينا تلك اللحظة الخارقة النادرة الوجود، حتى نفقد فيها قدرتنا على تكييف حياتنا حسب منطق التقاليد، فنشعر وقتها وكأننا كنا سجناء غلالة رقيقة لا تكاد تحجب من نفوسنا شيئًا، يخيل إلى المرء في لحظة كهذه أنه أعمى وأصم وأبكم... تركيز النظر في إنسان للحظة كهذه، كاف لأن يعريه من ثيابه!!

صعد السيد أفندي الدرجات الباقية في خطى ثقيلة ووجه ملتهب، وفي رأسه دوامة فائرة، وإن كان إحساسه بلذة اللحظات التي ولت ما زال يسيطر عليه... إلا أن ثمة إحساسًا آخر بالمسئولية قد وضعته فيه وحدته على السلم من ناحية، وأصوات الرجال التي كانت تقترب كلما صعد درجة من ناحية أخرى.

هب أن أحدًا رآهما؟... حقًّا أنه لم يصنع شيئًا منافيًا للأدب أو التقاليد، ولم يقل شيئًا غير مألوف سوى كلمة التدليل «**عيوشة!**»... ولكن، هب أن إحدى نساء الزقاق - وما أكثرهن - كانت جالسة في أحد الأركان المظلمة، وهب أنها سمعت؟!

كيف تجرأ، وكيف أقدم، وكيف فقد وعيه؟... وكيف وكيف وكيف؟!

***

كان عليه أن يعود في تلك الليلة إلى المستشفى ليبيت فيها حتى الصباح... فأمده هذا بحجة لعدم البقاء طويلًا - وقد كان يستطيع - فما إن حقن المعلم محمد وانتهى من عمله، حتى أحس برغبة شديدة في

مغادرة المكان، بل في الفرار... أحس كأن عيون الجميع تلهبه وتحيطه بسياج من الشك، كان مؤمنًا في أعماقه أنه أخطأ، فالتقاليد عند آل البلطي أمر له قداسته... الحب شيء محرم، علاقة الرجل بالمرأة لا تذكرها الألسن... أحس بثورة طاغية لم يعهدها في نفسه، ما الذي يربطه بهؤلاء القوم، هل يرفضون طلبه لو تقدم للزواج منها؟... سيحيرهم الأمر، فهم لا يزوجون بناتهم من أغراب حتى ولو كانوا صيادين، وهو صديق حقًّا، لكنه غريب، وليس صيادًا!... هل ما يقال عنهم صحيح؟... أهناك سر يتوارثونه عن السيد البلطي؟... لشد ما يرتعب من نظراتهم.

«عن إذنكم يا رجالة!».

ولم تصل إلى أذنيه كلماتهم وإلحاحهم، كان غائبًا في لجة من الوجل والضيق والنشوة والخوف والرعونة... جسده يصطلي بنار طالما أحرقته، لكن لسعها هذه المرة أقوى آلاف المرات... هل تحبه عائشة؟!... الزقاق خال والأبواب مغلقة وأصوات الرجال تصل إليه من أعلى... فماذا لو عرج ليسأل عن أم حنفي ويلقي على عائشة نظرة؟!... ماذا دهاه؟... هل أصيب بالجنون؟... يده تطرق الباب، وصوتها يصل إليه سائلًا عن الطارق، وقلبه يدق بعنف... ووجنتاه التهبتا بدماء تكاد تغلي.

«أهلًا وسهلًا سي السيد أفندي»!».

ما كاد ينطق حرفًا حتى جاءه صوت أم حنفي من الداخل يسأل عن القادم... وردت عليها عائشة وهي تفسح له الطريق مرحبة، وانتصب في ضوء المصباح جسد زوبة وهي تتطلع إليه بعينيها الجسورتين... تحيته لزوبة سريعة مقتضبة، قبل يد أم حنفي بشفتين مرتجفتين.

«قلت نفوت نسأل عنك!».

«سألت عليك العافية يا ضنايا... آه ياني».

ابتسـمت العجوز في رضاء شديد، واعتدلت في جلستها وهي تأمر عائشة بإعداد الشاي.

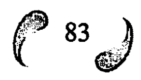
«لا والله ما في لزوم أبدًا، أصل أنا عندي وردية ليل، إنتي بتاخدي الدوا يا خالتي؟!».

ليتحدث في اختصار وليمض في طريقه فلن يستطيع شيئًا حيال زوبة التي دخلت الحجرة وجلست محملقة في وجهه... شعر بعيني عائشة فوق صدغه، ولكنه لم يستطع أن يرفع إليها بصره... كلماته فاترة غائبة، وكلماتهم حارة، ورغم هذا يشعر بضيق يكاد يخنقه، فليمض إذن فلن تتاح له فرصة.

«فوتكم بعافية يا خالتي، حانعدي بكرة الصبح إن أذن الله نجيب لك الدوا التاني».

صافح العجوز وصافح زوبة، ثم استدار نحو عائشة وانقض عليها بعينين ملتهبتين برغبة عربيدة، ومد لها كفًّا جسورًا ثم أطبق على كفها فتركت له يدها وهي ترخي أهدابها حتى لتكاد تغمض عينيها، قطع الفناء في خطوتين، واستدار نحو الباب ثم توقف وفرد لها كفه مرة أخرى فسلمته يدها بلا تردد، وانصب على صدرها بصيص ضوء، ورأى الصدر منفعلًا مضطربًا، ورقص قلبه... ولا يدري كيف ترك يدها... ولا كيف مضى عنها!





كانت الساعة قد جاوزت الثامنة بدقائق عندما تسلم السيد أفندي مائة وأربعين سريرًا، يرقد عليها مائة وأربعون مريضًا... وانتحى بعدها في ركن العنبر وراء المنضدة الكالحة البياض... ورفع عينيه ودار بهما في العنبر بملل عندما اصطدمتا بسعدية وهي منحنية في أحد الأركان تنظف الأرض، فأخذ يرقب ردفيها المحشورين في ردائها الأبيض، وقد بانت استدارتهما محددة التقاطيع فالتهبت في جسده نيران رغبة لم تخمد بعد.

طالما تمنى أن ينال سعدية ولو مرة بعد تلك الليلة التي قضياها معًا في همس حتى مطلع النهار... تزوجت من رجل أذاقها المر ثم طلقها بعد أن ترك لها ابنة أصبحت في الثالثة... تأوه مريض في نهاية العنبر فنهض إليه في كسل وتراخ وعيناه لا تفارقان سعدية، وكف المريض عن التأوه فتوقف وعاد من حيث جاء... ما الذي دهاه الليلة؟!... وما الذي حدث حتى سقط في تلك الدوامة المخدرة... التقت عيناه بعيني سعدية، فألقت عليه التحية باسمة:

«مسا الخير يا بو السيد!».

رد عليها في هدوء، إنه يعلم أنها تحوم حوله وتنصب له شباكها... خرجت من العنبر فارتمى في مقعده مفكرًا لاهثًا... على أن صراخ معدته سرعان ما أيقظه من غفوته، فتذكر أنه لم يتناول عشاءه بعد، وكأن ذكر الطعام سحر بعث في نفسه الحيوية فجأة، فنهض نشطًا وهو يأخذ طريقه إلى المطبخ.

ألقى بالتحية على زكي الطباخ، واختطف قطعة لحم ازدردها بسرعة وتلاها بقطعة أخرى... لو كان متزوجًا لأغرق أولاده باللحم... كانت

هناك أفكار سخيفة تراود ذهنه بين الحين والحين... فهو يعلم عن يقين أنـه يـأكل غذاء المرضى وقد احتـاج الأمر منه إلى قليل مـن التفكير... الأدوية التي يعالج بها آل البلطي اقتطعها من علاج مرضاه الراقدين في العنبـر... ليس في الأمر حرام أو حلال، الدنيا في نظره منفعة بعد طول حرمـان، في صغره عزَّ عليه اللحم حتـى بكى ذات مرة وأبكى أمه معه، لم يعلم ذلك أحد ولم تعلمه عائشـة بالذات، يقول للجميع إنه نزح من القاهـرة بعد أن توفي أبوه وأمه وورث عنهما بعض المال، والحقيقة أن أمـه ذاقـت من أجلـه المر بعـد موت أبيـه، ثم ماتـت ذات ليلـة وتركته وحيدًا... عمل خادمًا عند طبيب، واسـتطاع أن يشـرب الصنعة ثم يقفز في حذق درجة درجة حتى واتته الفرصة فعمل في المستشفى... يصلي الفرض في وقته دون نسـيان، ويرتكب الحـرام بين الحين والحين، أي نعم، ولكن فرض الله واجب!

سـرح بفكره ذات مرة فزاره ضميره على استحياء... أليس حرامًا أن تـأكل لحـم المرضى يا سـيد أفندي يـا باشـتمرجي؟!... وصمت أمام ضميـره في عجب، كان السـؤال غريبًا أشـد ما تكون الغرابـة. فمنذ أن عـرف الطريق إلـى الحياة والجميع مـن حوله يفعلون ذلـك، المرضى غلابـة، هـذا صحيـح، ولكنه أشـد منهـم غلبًـا. والله يرزقكـم فلماذا تفكـرون؟!... الحقـن التـي عالـج بها أم حنفي وأنسـباء المسـتقبل لم يصـب أصحابهـا ضـرر. كانـوا دائمًـا يضحكون ويشـفون ويغـادرون المستشـفى في أتم صحة وأتم عافيـة، الأطباء مبذرون، والمداوي حقًّا هـو اللـه... ولم يـزره ضميره بعد ذلك، عـاد إلى مكمنـه وراح في نوم عميق وقد اقتنع تمامًا!... أراح واستراح.

ومضت الحياة بعدها هنية حارة - نحمدوه - لا مصاعب فيها، لو اعتمد على مرتبه لمات من الجوع. جنيهان وثمانية وعشرون قرشًا وستة مليمات فقط لا غير. يدفع منها عشرين قرشًا أجر الغرفة التي يسكنها. وجبة طعامه لا تتكلف أقل من خمسة قروش، حقًّا إنه يسترزق من هنا بقرشين ومن هنا بقرشين... والله سبحانه وتعالى يرزقكم، فهل تتبطرون؟!

التهم طبق الأرز بالخضار، والتهم قطعتين أخريين من اللحم، إن لم يأكلهما هو فسيأكلهما غيره... تجشأ بعد ذلك بالصحة والعافية، وأحس بدمائه تعربد في عروقه فغادر المطبخ بعد أن أخذ كوب الشاي في يده، وانطلق لا يدري إلى أين.

خرج إلى فناء المستشفى، ووقف وسط الخلاء والسكون وحيدًا متلذذًا بأنفاس السيجارة التي أشعلها ورشفات الشاي الساخن... مرت بذهنه الخواطر والأفكار، فاستعذبها وهز رأسه في رضا... وهبت نسمة باردة اصطكت لها أسنانه، دس السيجارة بين شفتيه وجذب منها نفسًا عميقًا سحبه إلى رئتيه، ثم عاد ونفثه. لكنه سرعان ما استدار عائدًا وقد دب النشاط في أوصاله... صعد درجات واخترق ممرات وألقى بكوب الشاي الفارغ عند حافة شباك، وتوجه إلى العنبر... عند باب العنبر وقف وهو يرقب المرضى منهمكين في تناول عشائهم، وما كاد جسده يظهر حتى صاح أحدهم:

«مفيش لحمة يا باشتمرجي؟!».

أحس وقتها أن يدًا جذبته من أحلى نومة لتوقظه في عنف، فصاح في غيظ:

«اطفح وانت ساكت يا مصران يا أعور، عاوز تموت!».

«مصروف لي لحمة، الدكتور قال كده!!».

ولم يعن السيد أفندي بالرد عليه، ذلك أنه لمح سعدية تخترق ممرًّا جانبيًّا يؤدي إلى سلم يفضي إلى حجرة الشغالات... لم يفكر، ولم يهتم بالتفكير، قادته غريزته فانساق لها كالأعمى، اندفع وراء سعدية في خطوات نشطة وأنفاس تتردد مسرعة، انثنت المرأة وهبطت سلمًا، فتمهل عند قمته، وما كادت تهبط السلم وتستدير إلى الممر المظلم حتى اندفع يقفز السلم قفزًا.

«سعدية!».

في صوته بحة لا تخطئها أذن امرأة مثل سعدية، فاستدارت نحوه وألصقت ظهرها بالحائط:

«خير يا سيد يا خويا؟».

«على فين؟».

سؤال لا معنى له، فالممر لا يؤدي إلا لحجرة الشغالات في نهايته، في عينيها قلق وفيهما شيء آخر، ارتبكت وفهمت فأربكته.

«خير... عاوز حاجة؟!».

دماؤه الساخنة لا تدع له فرصة للتريث، صدره يعلو ويهبط في انفعال وحشي... غابت الدنيا والأحداث وتوقف كل شيء عند لحظته.

«كنت باقول نقعد نتكلم شوية!».

حديث لا يفوت على سعدية التي تعرف من فنون الرجال ما لا يعرفه السيد، ثمة ضوء شاحب يمتد من حجرة الشغالات، يظهر فيه شبحها الممتلئ الملتصق بالحائط في فورة ونداء... إنه يعرف ما يدور بذهنها، وهي تعرف ما يدور بذهنه!

«وبعدين معاك يا سيد؟!».

«مش قادر يا سعدية... مش قادر يا ولية!».

ترى من ينتصر؟!... لقد انتصر هو على أم سالم وفوقية وفردوس والولية أم عبده أيضًا، في ليال كهذه الليلة، وأماكن من المستشفى كهذا المكان، عندما ينتابه الجنون، لا يدري أين رأسه من قدميه، ولا يفرق بين جميل وقبيح.

«وبعدين معاك يا سيد؟!».

خطا نحوها في جسارة حتى لامست قمة كرشه ذراعها، ومال عليها في بطء مستندًا إلى الحائط، ولم تتحرك من مكانها، فهل تسلم دون مقاومة؟... رقصت في أعماقه شياطين حمراء، فارتجف وتنهد وقال:

«وبعدين معاكي انتي يا مدوخاني؟!».

«سيد... حد يشوفنا، اعقل!».

وانفلتت فجأة وعلى غير انتظار تاركة إياه في حيرة ونار، كلهن كذلك، وابتسامة عربيدة تعبث بشفتيه، لكنه سينتصر، شبحها يسرع في ظلال الضوء الشاحب، لن يتحرك من مكانه، تنثني إلى الحجرة وتختفي داخلها بعد أن تلقي عليه نظرة.

ظل متسمرًا في مكانه، جمدته مشاعر ملكت عليه حواسه وأفكاره وأشعلت النيران في كل ذرة من جسده، امتدت يده السمينة فمسحت قطرات من العرق تصببت على جبينه، حاول أن يفكر دون جدوى، كان قد أصبح أسير شهوة عارمة، هو لا يستطيع الاقتراب من حجرتها وإلا حدث ما لا قبل له به، حجرة الشغالات عالم محرم على الرجال... الحائط بارد، وجسده يغلي، والساعة جاوزت التاسعة... وما زال في الليل متسع.

ما الذي تفعله عائشة الآن؟!

ذكرها يكاد يشعل الشيب في رأسه، لو كانت بين ذراعيه لاعتصرها عصرًا، لمزق شفتيها وحطم ضلوعها... هل يحبها حقًّا؟!... نعم، نعم نعم، وإلا فما هذا الذي يحسه كلما ذكرها أو رآها؟!

غادرت سعدية الحجرة فجأة، خطت خطوة واحدة ثم توقفت بعيدًا عنه.

«انت لسه واقف يا سيد، اعقل!».

جمود يشل كل تفكيره فلا يتحرك، حلقه جاف وكأنه لم يذق قطرة من المياه منذ سنوات، تقدم منها مسلوب الإرادة، لكنها لم تتراجع، تقدم خطوة أخرى ثم امتدت يده فجأة فجذبها بعيدًا عن الضوء، وارتمت المرأة، بقوة جذبته، فوق صدره السمين... قاومت في وهن، ولكن شفتيه سرعان ما انهالتا فوق وجهها وهو يخور كالثور!!

عندما عاد بعد ذلك إلى العنبر، كان المرضى قد غرقوا في سبات عميق، وارتفع شخير بعضهم، وترددت أنفاس البعض في هدوء..

وساد المكان سكون أنيس... فجلس السيد أفندي في استرخاء فوق مقعده وراء المنضدة الكالحة البياض، وأخذت أصابعه تعبث فيما فوقها من أدوية وأوراق.. كانت علامات الرضا والارتياح بادية على وجهه بوضوح، وابتسامة رائقة احتلت ملامحه السمينة، وفي لحظة، كان قد قرر أن يتقدم، فلم يعد يطيق البعد عن عائشة أكثر من ذلك!

ولكن... هل يفعل حقًّا؟!



الفصل العاشر

ساد الظلام بيوت الزقاق إلا من ضوء شاحب هنا، وذبالة مصباح تتراقص في وهن هناك... وغرق المكان في صمت تخلله صفير الرياح التي كانت تندفع من أعلى الزقاق في قوة عاصفة، فتنفذ من شقوق الأبواب والنوافذ.

وكان حمودة ممددًا - في نصف جلسة - فوق الفراش وقد تناثر بالأغطية... على رأسه طاقية من الصوف ابتلعت جبهته وأذنيه وصدغيه، وظهر شاربه الكث وكأنه كل شيء في وجهه، وساد الحجرة صمت تخللته أنفاس العيال وقد راحوا في سبات عميق، بينما كانت عطيات تعد كوب الينسون الساخن لزوجها الذي أخذ يرقبها بعينين قلقتين.

لم يذق حمودة - منذ أن غادر المستشفى - للراحة طعمًا... كلمات الطبيب وتحذيراته تطن في أذنيه بلا انقطاع، حماس السيد أفندي وثورته لا يفارقان خياله، وأولاده الخمسة في حاجة إليه، وزوجته تعمل من الصباح للمساء ولا تكف... وصدره يضيق حينًا، ويتسع للهواء حينًا، ولكن بحساب، الضعف يتسرب إلى جسده حتى ليكاد يفقده رشده. بالأمس أحس بالشبكة الفارغة على ذراعه كأنها طن من الحديد، وانتابه بعد طرحها دوار، فظل ساكنًا في مكانه متشبثًا

بالحبال، ثم ترنح، ولولا الستر لسقط من طوله... كل شيء يبدو له كئيبًا مرًّا.

تناول كوب الينسون من يد زوجته، وأخذ يراقبها وهي تدثر الأولاد وتسد شقوق الباب بخرق تمنع الهواء المتسرب في اندفاع... ثم استقامت واتجهت نحو الفراش وصعدت إليه... كانت هي ملاذه الوحيد وموضع سره، لكنه يخاف أن يصرح - حتى لعطيات - بما يعتمل في نفسه من قلق، وما يدور في ذهنه من أفكار... أفكار غريبة - جد غريبة - تعربد في ذهنه، ومهما حاول وجاهد ليضيق عليها الخناق ويكتمها في صدره، فإنَّ بوادر منها أخذ لسانه يفلتها - على الرغم منه - بين الحين والحين، ولولا سرعة تداركه الأمر، لانفضح للأهل ما يفكر فيه... وكأنه كفر!

ليس الأمر أمر هجرة، إنه فراق أهل وأصحاب وزقاق عاش فيه منذ طفولته، مرضه يلح عليه أن يقدم، فلا مفر، ووراءه بطون تريد أن تمتلئ، ولا يعرف في الدنيا غير صناعة الصيد وطرح الشباك واختيار المكان المليء بالرزق... دماؤه التي تجري في عروقه مالحة كمياه البحر، صدره العليل يأنس لهواء الشاطئ ويحبه ولو كان فيه نهايته... والمستقبل؟... المستقبل مجهول يبين له بلا ملامح... فماذا... ماذا يفعل؟!

مددت عطيات ساقيها تحت الغطاء فلامست قدماها الباردتان قدميه الدافئتين... فارتجف. عادت فلمت ساقيها ودثرتهما بطرف جلبابها وجلست إلى جواره متربعة صامتة... في عينيها حنان جارف وحب طاغ، لم يسمع منها في حياته كلمة تعكره، ولم تفعل في حياتها

غير ما أمرها أن تفعله. طالما حسد نفسه على عطيات، كانت - من دون نساء الزقاق - حلوة اللسان منكسرة الطبع لا تؤذي أحدًا ولا ترد لأحد أذاه، من الفجر حتى منتصف الليل لا يشغلها سوى رجلها وأولادها وبيتها، تحادث الناس بالحسنى، وتنساق لكلمات زوجها في طاعة عمياء، وحب مقرون باحترام شديد!

رشف حمودة من كوب الينسون بتلذذ، وضمه بين كفيه وأخذ يرقب البخار المتصاعد منه وقد غرق عقله في لجة محيرة... ما الذي ستقوله عطيات؟... يعرف أنها ستوافقه وتطيعه بلا كلمة اعتراض، ولكن، هل تستطيع حقًّا مغادرة الزقاق والشاطئ والسعي معه إلى المجهول دون خوف أو وجل؟

مالت بكتفها نحوه فالتصقت بكتفه، وأحس حمودة بذلك الشعور الفياض المتدفق الذي يطغى فيغرق مشاعره كلما جلس إليها في ليلة شاتية.

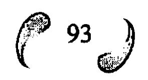
«إزاي صدرك دلوقت يا سي حمودة؟».

«نحمدوه يا عطا!!».

قالها في اقتضاب وكأنه يفر!... ولكن أين المفر؟... وراءه البحر وفيه ما فيه من مرض وعذاب وألم... وأمامه المجهول بضياعه وشحوب صوره ومعالمه... وبجواره رفيقة العمر فلماذا لا يجس النبض ويتلمس وعورة الطريق مستندًا إليها؟!

«عطيات... عاوز نقول لك على حاجة».

«خير يا سي حمودة؟!».



لكنـه لم يتكلـم، عاد إلـى الصمت مـن جديد... وأخـذت عطيات تتسـاءل في حيرة... ترى ما الذي يشـغل باله... هل قال له الطبيب غير مـا علمت؟... مع الأيام أصبحت تشـعر وكأنه ابنهـا لا زوجها!... كان دائمًا في حاجة إلى رعايتها وحمايتها.

«بالك مشغول بإيه يا سي حمودة؟!».

تمنت على الله أن يطلب سيجارة، فما كان أحب منظره إليها وهو يدخن.

«عاوز سيجارة يا عطيات!».

«وصدرك يا سي حمودة؟!».

رغم الزغرودة التي انطلقت في صدرها، إلا أن حكمتها كانت دائمًا أسـبق إلى لسـانها من أمانيهـا... لمحت علامات الضيـق على وجهه، فامتدت يدها تحت الوسادة وأخرجت صندوقًا قدمت له منه سيجارة... ومال حمـودة على عود الثقاب الذي أشـعلته... وتسـاءلت هي، لماذا تحب أن تراه مدخنًا يا ترى؟

«كنت عاوز نقول يا عطيات...».

وعاد الصمت من جديد، فقالت عطيات بصوت خافت:

«بتخبي على عطيات يا سي حمودة؟».

«آني نخبي عليكي...؟!».

قالها في استنكار، ورفع الكوب إلى شفتيه فأفرغ ما فيه دفعة واحدة، ثـم مال به إلى الأرض بجـوار الفراش، وعاد إلى جلسـته وقد احتقنت الدماء في وجهه...

«كنت عاوز نقول... إيه رأيك لو رحنا مصر؟!».

«مصر؟!».

«أيـوه مصر... صحتـي يا عطيات، العيـال محتاجين لـي، نعمل إيه بـس؟ نفضـل كده كل يـوم والتانـي في المستشـفى؟ والـلا نفضل كل يـوم والتاني بالشـكل ده؟... قولي لي يا بت النـاس نعمل إيه، نعمل إيه بس؟... هيه؟!».

اختنـق صوتـه، فكف عـن الحديث فجأة، وجاشـت نفـس عطيات بالحنان، فتسللت يدها إلى كفه على استحياء وقد باغتها الأمر فنكست رأسها ولاذت بالصمت، بينما عاد حمودة إلى الحديث من جديد:

«شوفي يا بت الناس، قالوا عد غنمك يا جحا، قال لهم واحدة واقفة وواحـدة نايمـة... آني فكـرت في الموضـوع كويس، وربنا ماينسـاش عبـده، لـو بعنا الشـبكة بكذا، والقارب بكـذا، نقدروا نفتحـوا دكانة في أيتها حتة في مصر، في أيها حي!».

«اللي تشوفه يا سي حمودة، اللي تشوفه!».

كأنها تقول له «كف عن الحديث!»... فراق الزقاق عند أهله كفراق الحياة سـواء بسـواء، لكنه مريض، صدره عليل، وحياته على الشـاطئ لا بد قصيرة، وما باليد حيلة...

«افرضي جرى لي حاجة يا عطيات... افرضي يعني... أسيبكم لمين؟!».

«اللي تشوفه يا سي حمودة... اللي تشوفه».

«مش اللي نشوفه... لأ، إنتي إيش قولك في الموضوع؟ هيه... إيش قولك يا عطيات؟!».

«القول قولك، أنا وياك منين ما تروح؟».

«آني كنت عارف إنك حاتزعلي... كنت عارف...».

«أبدًا وحياة نور عينيك... أبدًا يا سي حمودة».

اختنق صوتها، وسبحت عيناها في الدموع، وزفر حمودة وهو يقول:

«نفتح دكانة، نبيع لب، نعمل أيها حاجة، هو آني مش راجل يا عطيات، والعيال دول مش عيالي... حكم ربنا وده مقدر ومكتوب!».

«يا ترى حايقولوا إيه يا سي حمودة... حايقولوا إيه؟!».

استدار إليها بغتة وحملق في وجهها بغضب وحيرة... ليقولوا ما يحلو لهم، لن يترك نفسه فريسة للمرض، ولن يترك أولاده ليربيهم غيره...

«ما يقولوا اللي يقولوه، حد حاينفعني لما نروح فيها... لو كنتي سمعتي كلام الدكتور كنتي عرفتي».

«قال إيه... قال إيه وحياة النبي قال إيه؟!».

لهفتها عليه تبرد نار صدره، جزعها الصادق يملأ حياته بالسعادة:

«قال لي حاتموت لو قعدت هنا شهرين كمان...».

«يا مصيبتي، ومستني إيه يا سي حمودة... مستني إيه يا خويا؟».

سره الرهيب وجد له متنفسًا في النهاية، علامات الذعر واللهفة والجزع تظهر على وجهها كشمس في ظهيرة يوم صيف، الراحة تغمره فيقول في هدوء:

«يعني موافقة يا عطيات؟».

«إللا موافقة يا خويا... إلا كده، من بكرة نسيب الزقاق... من بكرة. إحنا لينا مين غيرك... أنا والعيال ما نسواش بصلة من غير نفسك!».

انهمرت دموعها فغطت وجهها بكفيها وغرقت في نشيج صامت، وانسحبت يده فربتت على كتفيها، ثم جذبها إليه فاستسلمت، وألقت برأسها فوق صدره، وتسمعت بأذنها دقات قلبه الرتيبة، وملأت خياشيمها رائحة أنفاسه المعطرة بالدخان...

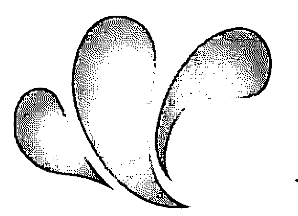
«آني... آني خدامتك يا سي حمودة... اتوكل على الله!».

ألقى ببقايا السيجارة على الأرض، ولف حولها ذراعه الآخر وضمها إلى صدره بحنان، وسوى الغطاء وراء ظهرها فانكمشت على نفسها ملتصقة به كقطة دافئة، رفع وجهها إليه فغمرته نظراتها... ابتسم وابتسمت، جفف دموعها ومال على خدها فطبع عليه قبلة حانية... تسرب الدفء إليهما فازداد التصاقهما، وهمست عطيات وهي تقبل رقبته ثم تدفن رأسها في صدره من جديد:

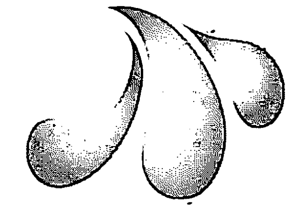
«إخص عليك يا سي حمودة، وكنت مخبي عني سبع أيام؟».

قال حمودة بصوت حالم متحشرج النبرات:

«إيش قولك يا عطيات... إيش قولك لو تاجرنا في السمك؟!».



الفصل الحادي عشر



همس المعلم محمد محدثًا زوجته وهو يحملق في الظلام:

«إيش قولك يا أم محمود؟!».

«خير يا خويا؟!».

«عاوز نجوز الواد!».

شهقت المرأة في فرح، ونهضت في مكانها وانحنت عليه قائلة بصوت مضطرب:

«ده يبقى يوم المنى يا بو محمود... يوم الهنا!».

«بس آني خايف... خايف نجوزه من هنا، ويرجع لعوايده من هنا!».

ردت عليه زوجته في سرعة ودون تفكير، وقد استخفها الفرح:

«جرى لك إيه يا خويا، والنبي أنت ظالمه، هو يعني أقل من مين؟!».

«يا ولية آني مش في كده، آني بنقول يعني أن الجواز يمكن يصلح حاله ويخليه يهتدي بالله وينتبه لشغله، لكن نرجع ونقول نستنى شوية لحد ما نشوف هو حايرسى على آني بر... وبعدها نتوكل!».

«والنبي أنت حر، حاكم أنت لك أحكام».

وعادت المرأة إلى استلقائها، وظلت مفتحة العينين، لكنها لم تستطيع الصبر فعادت إلى الحديث مرة أخرى:

«بقى يعني لو مشي كويس، تقول نستنى عليه لما نشوف حاله، وإذا راح كده واللا كده، تقعد تشتم فيه وتسود عيشته، يا بو محمود حرام عليك!».

وانتظرت أم محمود من زوجها أن يبادلها الحديث، لكنه كان غارقًا في التفكير يقلب الأمر على كل وجوهه، ومنذ سبعة أيام وهو لا يكف عن التفكير في الموضوع، وكاد ذات مساء يقدم عندما انفرد بالريس صادق لدقائق، لكن لسانه تعثر قبل أن ينطق بكلمة وانتابه الخوف... حقًّا لقد انقطع محمود عن زيارة البوظة أو السهر فيها، يخرج في الصباح مزاملًا حنفي في القارب، ويحمل الرزق مع ابن عمه كل مساء إلى الحلقة، ثم يعود إليه بالمال... ويبقى بجواره لا يبرح البيت...لكن، من يدريه ألا يعود محمود إلى سيرته الأولى؟!

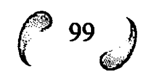
عادت أم محمود إلى الحديث من جديد وفي صوتها رنة غضب:

«بس يا خويا ما هو محمود بقى عال، اللهم صلي على النبي، هو يعيبه إيه؟».

فقال المعلم محمد في خجل:

«يا ولية افهميني، يعني نجوزوه بت الناس من هنا، ويروح يرافق عليها من هنا؟... ده يبقى اسمه كلام برضه؟».

«أستغفر الله العظيم، يا راجل تف من بقك».



«أتف من بقي ازاي؟... هو اللي يسهر في البوظة لوش الصبح تكتر عليه المعصية؟!».

ضحكت المرأة في سخرية وقالت هامسة:

«اسم الله... الله يرحم!».

«قصدك إيه؟!».

«يوه... ولا حاجة... بس يعني...».

تنحنح الريس محمد في غلظة، فكفت زوجته عن الحديث، ولمعت عيناه في الظلام، وقفزت إلى ذهنه ذكريات أيام خلت... فقد بعد وفاة السيد البلطي، صوابه وكأنه كان سجينًا طيلة حياته، فانطلق إلى البوظة لا يلوي على شيء، وعرف فيمن عرف في تلك الأيام امرأة كادت تلهيه عن حياته، لكنه تنبه فجأة عندما فاحت رائحة السيرة وعرفها أهل الزقاق، فاستغفر ربه وتاب... ونسي تلك الأيام ولم يعد يذكرها وكأنه لم يعشها، وحتى لو ذكرها عرضًا أو ذكره بها لسان زوجته الذي يعرف كيف يطعن في الوقت المناسب، فسرعان ما يحول الحديث بعيدًا عنها فينساها، وتغوص أحداثها إلى أعماق مظلمة ترقد فيها ولا يظهر لها أثر... لذلك قال محوِّلًا الحديث في لباقة، وقد رق صوته ولان:

«إيه رأيك في زوبة!».

قفزت زوجته جالسة مرة أخرى، وانتفضت كلماتها بالفرح:

«ست البنات... والنبي يا بو محمود فضك من اللي في دماغك ده واتوكل على الله خلينا نفرح بالواد!».



لم يكن المعلم محمد أقل تلهفًا على الأمر من زوجته بطبيعة الحال، فمنذ تلك الليلة وفي قلبه نار تضطرم وإحساس رهيب بالفناء... زواج محمود يلح على قلبه إلحاحًا متصلًا، كم من مرة نادى فيها على ولده وأجلسه بجانبه وهم أن يفاتحه في الأمر، أو يسأله لماذا لم يطلب الزواج حتى الآن، ولولا إرادة قوية، وعزيمة وصبر وقلة ثقة في ولده لانتهى الأمر منذ أيام... يسعده أشد السعادة أن يرى أحفادًا تجري دماؤه في عروقهم، ويشقيه أشد الشقاء ذلك الشك المقيم في نفسه نحو ولده... لم يخدعه عزوف محمود عن سهراته وحياته إياها، فهو مريض على أي حال وليس محمود بابن حرام ليتركه ويسهر، لكنه لن يظل العمر كله في الفراش، سوف يسعى إلى الرزق غدًا أو بعد غد، ويومها سيبين له الخطأ من الصواب، والحق من الباطل.

قال لزوجته وهو يستدير موليًا ظهره إياها، وفي صوته نبرة آمرة:

«لمي لسانك ومش عاوز حد يسمع بالسيرة دي... الأيام جاية، والمية تكدب الغطاس!».

وكان واثقًا أنها ستطيع، وأن أحدًا لن يعلم بما دار بينهما، فأولاها ظهره، وأغمض عينيه... وراح في النوم!



الفصل الثاني عشر

غـادر محمود وحنفي حلقة السـمك قبل الغروب بلحظات وسـارا متجاورين بحذاء الشاطئ المهجور... ذلك الشاطئ الذي لم يسبح فيه قارب، ولا ألقيت فيه شـبكة منذ ابتلعت مياهه جسـد السـيد البلطي... ولاحـت لهما على امتداد البصر صخـرة رأس التين رابضة تحت أقدام القصر الكبير، تنطحها أمـواج البحر بقممها الزبدية في زمجرة غضبى، وما تلبث أن تتكسـر عند أقدامها العتيدة في أنين مكتوم... وقد ظللهما الصمت وقتًا غير قصير وهما يسـيران، حتى إذا اقتربا من نهاية الطريق، كان عليهمـا أن يميـلا يسـارًا، ويعبـرا الشـارع، ثـم يدلفـا إلـى حـارة السـعداوي، ويخترقا بعدها حي السـيالة من الناحية المواجهة للميناء، ويتركا على يسـارهما مسـجد المرسـي أبو العباس بعد مسـيرة دقائق، ليغوصا في أزقة وحوارٍ تتشابك وتتلاقى وتتفرع في غير نظام، حتى إذا توسطا تلك الكتلة الضخمة المكدسة بالمنازل القديمة المتهاوية، انثنيا يمنـة ويسـرة في تعرج مسـتمر... ليصلا - بعد دقيقـة أو دقيقتين - إلى زقاق السيد البلطي.

لم يكن ذلك الطريق الذي سلكاه هو أقصر الطرق إلى الزقاق، لكنه كان الطريـق الـذي تعود حنفي السـير فيـه في هذا الوقت مـن كل يوم، يدفعـه إلـى رؤية الشـاطئ المهجور حنيـن جارف، ويظل طوال سـيره

بجوار الشـاطئ، يعاني من شيء يعبث بنفسـه وأمنه عبثًا متصلًا، يحسه قويًّا كبيرًا يملأ كيانه ويضغط على أفكاره، باهر الضوء... لفرط وضوحه وجلائه، لا يكاد يعرفه أو يميزه وكأنه يغشى البصر!

هنا غرق أبوه – وهو لا يصدق بأنه خاوى أو غاص مع جنية إلى قاع البحـر في تلك البقعة الرملية شـرقًا، الصخرية غربًـا... في مكان ما من هـذا الشـاطئ المهجور، كان السـيد يقف وسـط قاربه، يطرح الشـباك ويجذبها، ويحمل الرزق إلى بيته وآله!

هنـا مات أبـوه – ولا بد أنه مـات – واختفى، حتى جثتـه لم تلفظها الأمـواج ولـم تلق بها إلى الشـاطئ، بـل ابتلعتهـا وطوتهـا وأذابتها في أعماقها فلم يعد منه أثر.

هـل يسـتطيع أن يعيـد السـيرة مرة أخـرى؟!... أن يقسـم الشـاطئ ويختـار لعائلته تلك البقعة المهجورة... قلبه يفيض بالحماس والحب لتلـك الأفـكار، أمـا عقلـه؟... عقلـه الغريب يتمـرد ويرفـض ويقول: لماذا؟!... حنينه إلى الشـاطئ أمره غريب، ينمو في نفسه يومًا بعد يوم، وكلما لامسـت عينـاه رماله ومياهه تدفق الحنين إلى نفسـه تدفقًا هادرًا وكأنه ينبع من منبع فياض... ما إن يرى الصخرة حتى يتوقف – بالرغم منـه – ويلقـي ببصره إلى الأفق البعيـد متمنيًا – في ألـم – أن يطل عليه وجه أبيه من جوف المياه... في ذلك الوقت من كل يوم، عندما يلامس قرص الشمس حافة الأفق البعيد، يحلو لحنفي أن يجتر ماضيًا لم يعشه، ماضيًـا مجيـدًا مليئًا بالعـز والقوة والسـلطان، ويتملى حاضـرًا مهلهلًا مهـددًا، ويستشـف خلال أحداث الأيام ما سـيكون عليه المسـتقبل... ويعود دائمًا منكسر الخاطر... ويظل الشاطئ مهجورًا!

ما الذي يريده بالتحديد؟!

سؤال محير لا يعرف له جوابًا، ببساطة يريد العز والقوة والسلطان، يريد أن يزوج عائشة، وأن يتزوج زوبة، وأن يشفي حمودة، وأن يجد كل رجل في الزقاق رزقًا يقيم أوده ويملأ بطون أولاده!... وماذا بيده أن يفعل؟!... هل كتب عليه هذا التيه إلى ما لا نهاية؟!

«جرى إيه يا حنفي؟!... سرحان في إيه؟».

«هيه؟».

عندها فقط تنبه لوجود محمود... ماذا لو حدثه بأمر حيرته تلك، حقًا إنه يختلف عنه في كل شيء، لكنه ابن عمه قبل هذا وبعده، هو الآخر يعيش في عالم لا يمت إلى عالمه بصلة... ما الذي حدث للعائلة؟... هل أصابتها عين؟!... الفقير فيهم يزداد فقرًا، والغني يزداد بعدًا، واللقمة في فم هذا ليس لغيره نصيب فيها!... واقع لا جدال فيه، حديث الناس عنهم أحلام غير متحققة، يجمعهم زقاق ضيق، ويلجأ كل منهم إلى الآخر ويحمي كل منهم الآخر، هذا حق، ولكن، أهذا كل ما يجب؟!... فيهم من لا يكاد أحد يراه إلا في الملمات وكأنه غريب، ومنهم من اشترى بدل القارب قاربين، وبدل الشبكة شباكًا كثيرة... وبعد أيام أو شهور لن يصبح للقارب أو الشبكة قيمة عندما تأتي سفينة عبد الموجود حمدان وقد كثر الحديث عنها. أين الرجال في العائلة؟!... وأين الرجال على الشاطئ... رفع بصره إلى محمود واختطف من وجهه نظرة ثم تساءل: هل كتب عليهما أن يحملا العبء كله؟... محمود ليس صيادًا، وهنا المصيبة، ولن يكون صيادًا... يوم أو يومان وتعود ريمة إلى عادتها القديمة، ويعود محمود إلى البوظة وكايداهم.

لا ... لن تعود سيرة أبيه، فليس الزمن كالزمن، وليس الناس كالناس، والشاطئ أصبح مهجورًا!

***

ذات ليلة ثقلت عليه الحيرة فخلع ملابسه وألقى بجسده إلى المياه - أكان مجنونًا وقتها؟ - وظل يسبح ويتوغل غير عابئ، كان القمر بدرًا ونوره يفرش سطح المياه في وداعة، لكنه لا يغوص إلى أعماقها، بل يبقى مستلقيًا على السطح لا يتعداه، أراد أن يستشف ما في أعماق البحر من أسرار، كلت ذراعاه ولم يكف عن السباحة، ألقى بنظره إلى الوراء فوجد الشاطئ بعيدًا، جال ببصره حوله فبدت له الدنيا خلاء إلا منه، الصخرة مخيفة هائلة ضخمة... جاشت نفسه وتذكر أباه وتمنى لو أنه لم يمت حقًّا كما يقولون... فصرخ بكل قواه:

«يابا... يا سيد يا بلطي!».

ردت إليه الصخرة صدى صوته من جديد، فعاد إلى النداء واجف القلب مستنجدًا ببقية أمل... الموتى يستدلون على أجسادهم بالقبور، وأبوه لا قبر له ولا جسد... ترى أين هو الآن؟!... أكان في جوف سمكة اصطادها وباعها في الحلقة وأكل لحمه الناس؟!

«يابا... يا سيد يا بلطي... يابا... يابا... يابا...».

وخرج يومها من المياه والحزن يعتصر قلبه، لكنه كان مرتاحًا وكأنه أدى واجبًا... وعاد إلى الشاطئ ليالي أخرى، ونادى على أبيه فيها... وهو موقن أنه مات... مات... مات... فماذا يريد؟!... ولماذا يعود دائمًا، ويسبح ويتوغل في المياه ويناديي؟!

لاحـت لهما مئذنة المرسـي أبو العباس وقد هبـط الظلام وأضيئت المصابيـح، فخطـر لـه خاطـر... لمـاذا لا يذهـب إلـى بوظـة حسـين شـلوفة؟!... اجتاحته على الفور رغبة في مجالسـة الصحاب، ضحكة من هذا وبوظة ودخان وموال ويغرق القلب والعقل معًا في خدر لذيذ، لكنه لا يفقده وعيه ولا وقاره... قال في سرعة وكأنه يخاف التعثر:

«رايح فين يا محمود؟!».

«البيت يا حنفي... يعني حانروح فين؟».

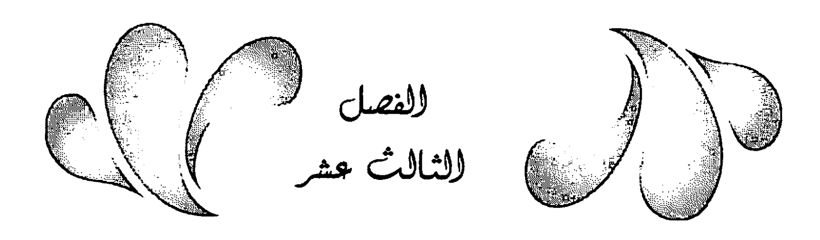
«ماتيجي نروحوا عند شلوفة!».

«لأ!!».

قالها محمود في اقتضاب وسرعة وكأنه يبعد عن نفسه شبحًا مخيفًا، فلاذ حنفي بالصمت.

لـم يحدث أن اجتمعا على شـيء إلا فيما نـدر، ولم يكن اختلافهما مثـار شـجار أو كراهية، على العكس، كان كل منهمـا يكن لصاحبه حبًّا عميقًا وودًّا يصدر عن إحساسهما بأخوة لا تنفصم. على أنهما قد أحسا ذلـك الاختلاف بيـن طبائعهمـا، فترك كل منهمـا صاحبـه لحياته دون اعتـراض أو تذمر... طالما سـهرا فـي البوظة معًا، لهـذا صحابه ولذاك أصدقاؤه، فإذا صادف وغادراها في وقت واحد، اتجه كل منهما ناحية، وسلك طريقًا مختلفًا...

عنـد التقاء شـارع وكالة الليمـون بحارة نور الصبـاح افترقا... انثنى حنفي إلـى اليمين متجهًا نحو شـارع البحرية فباب الكراسـتة، وغاص محمود في ظلام الحارة غارقًا في صمت حزين...



الفصل الثالث عشر

عندما دلف حنفي إلى بوظة حسين شلوفة، كان كل شيء فيها يقارب الوصول إلى ذروته... سحب الدخان انعقدت في سماء المكان، والموائد صفت متجاورة بالقرب من الجدران في استدارة، حولها مقاعد مستطيلة تلاصق الرجال فوقها وتزاحموا... والمعلم جمعة تصدر المجلس يحيط به الشعراء والمعجبون... لكن مقعد كايداهم كان لا يزال شاغرًا، يجلس حوله الطبال والزمار في انتظار واستكانة...

ألقى حنفي بالتحية على الرجال... فهللوا صائحين:

«ألف مسا... أمال فين محمود يا معلم حنفي؟!».

نفس السؤال الذي ألقوه عليه بالأمس وأول أمس وكل يوم منذ غاب محمود عن البوظة... ولم يجد حنفي جوابًا سوى هزة من كتفيه، وكلمات قالها وهو يبحث لنفسه عن مكان:

«قلت له ييجي، مرضيش!».

صاح المعلم جمعة في أسى:

«دول سبع ليال النهاردة يا جدعان، سبع ليال ومحمود غايب عنا، حد منكم زعله؟... البت عملت له حاجة ضايقته؟!».

وراح يجول بعينيه في الوجوه متسائلًا، غير أنه لم يظفر بغير الصمت جوابًا فهز رأسه في أسى وهو يرفع كوز البوظة إلى شفتيه في نهم.

وسرعان ما عاد كل شيء إلى حاله، انتحى حنفي ركنًا منزويًا وراح يرقب الجالسين في صمت، وارتفع صوت حكشه بائع لحمة الرأس مناديًا: «يا مسهل!»... وخاضت نفيسة بائعة الترمس بين الرجال وهي تلقي عليهم النكات وتحضهم على الشراء بكلمات مفضوحة، ثم صرخت ضاحكة من قرصة لدغها بها رجل لعبت البوظة برأسه... والكيزان تفرغ لتمتلئ من جديد... وكايداهم تدلف من باب المكان ملتفة في ملاءتها، فتعلو الصيحات مرحبة عابثة... ونهض إليها الشاطر الطبال وزين الزمار، وتسابقا في حمل الملاءة التي ألقتها عن جسدها في دلال، ليظهر ثوبها الفاقع اللون وقد انعكست على سطحه أضواء الكلوبات الباهرة، وتموجت مع استدارة ردفيها ونهديها وبطنها... ناداها رجل فردت عليه بابتسامة، زعق آخر بصوت ثمل:

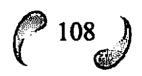
«يا ريتني ملاية لف!».

فرنت ضحكتها وجلجلت، ثم ردت عليه عابثة:

«بس يا دايب!».

ضج المكان بالضحك والتهليل، واتجهت كايداهم إلى مقعدها وهي تجول ببصرها في الوجوه، وما إن استقرت فوق المقعد حتى مالت إلى الوراء، فمال نحوها الشاطر وزين في عبودية وتبتل، وسألتهما كايداهم في همس:

«برضه مجاش؟!».



«لا والله يا ست كايداهم!».

لمحـت حنفي فألقت عليـه التحية، ورد حنفـي تحيتها في اقتضاب وهو يدفن نظراته في كوزه، وعادت تميل إلى الخلف وتسأل:

«حنفي ما قالش حاجة؟!».

فقالا في وقت واحد:

«بيقول انه ما رضيش ييجي!».

ظللـت وجهها سـحابة من كآبة، لكـن تقاطيعها سـرعان ما ابتلعت تلـك الكآبـة عندمـا صـاح أحــد الرجــال طالبًـا إحـدى رقصاتها... فابتسـمت في دلال وهـي تتناول السـيجارة التي امتدت بها يد حسـين شـلوفة، ونقر الشـاطر فوق طبلته، وصفق المعلم جمعة بكفين هائلتين وهو يصيح:

«والله لازم أليّل معاكي يا كايداهم!».

وصاحت كايداهم بمرح لتحية المعلم جمعة، قائلة:

«تعيش يا سيد الكل..».

وصفق البعض في انبسـاط وهم يستديرون في أماكنهم نحو جمعة، وصفـق آخـرون طالبيـن كيزانًـا أخـرى، وراح الجميـع يتصايحون في انتظار الغناء.

وقد مضت سـنوات طويلة لم تعرف فيها بوظة حسين شلوفة الشعر ولا قائليـه، ثمـة مواويل تطلقهـا حناجر الرجال بعد أن تثقل رءوسـهم وتتمايـل مـن الانسـجام حينًـا، ومـن عـدم السـيطرة عليها فـي غالب

الأحيان... وبصرف النظر عن حلاوة الصوت أو قبحه، كانت المواويل هي ألذ ما يمارسه الرجال حول كيزان البوظة.

حتى جاء جمعة ذات ليلة.

جاء وحيدًا وألقى التحية على الرجال فردوها، كان غريبًا فلم يعيروه اهتمامًا، جلس في أحد الأركان وأخذ يشرب في سكون، ظل يجرع كوزًا وراء الآخر، ويلتهم حبات الترمس وعيدان الجرجير في نهم، ويشترك في الحديث من بعيد بكلمة أو كلمتين، حتى إذا انتصف الليل كان الحديث قد جمع بينه وبينهم، فانتقل من مكانه وجلس معهم... وكان لا بد للانسجام من بلوغ ذروته، وذروة الانسجام هي الغناء!

وعلى غير انتظار لعلع صوت جمعة... انطلقت حنجرته بموال صمتت له كل الحناجر، وأرهفت لسماعه كل الآذان... وبهت الرجال وذهلوا لحلاوة صوته، كان صوتًا رخيمًا عذبًا ينسال في سهولة بجرس يجلجل في سعادة حزينة... وكان يقول الشعر!!

وسرعان ما ذاع الخبر في الحي، وانتشر بعد أيام ووصل إلى الأحياء الأخرى، فتوافد الشعراء من كرموز والأنفوشي وكوم الدكة، وعرف الكثيرون الطريق إلى بوظة شلوفة... وحول الكيزان سالت دموع، وجلجلت ضحكات... وحول جمعة التف الشباب في انبهار، وراحوا يلتقطون الأبيات من بين شفتيه ليرددوها في كل مكان... وكان محمود البلطي أحد أولئك الذين سحرهم شعر جمعة ومواويله... بهرته الدنيا الجديدة واجتذبته إليها بقوة لا تقهر... وأصبحت كلمات جمعة هي البلسم الذي يبرد نار قلقه وحيرته وعذابه، فحفظها عن ظهر قلب، وردّدها مرات ومرات... وغنّى ذات ليلة لعبت فيها البوظة برأسه،

فهلل له الرجال في حماس، ورأى كايداهم فسلبته لبه، وأطلق الشعر دون أن يعي، فاحتضنه جمعة وقربه إليه... فغنى وأشعر وأطلق من قلبه آهات كانت تتلوى على لسانه راقصة دامعة... وقربه جمعة من مجلسه... وانضم في ليلة إلى الشعراء وحاجاهم بأبيات، وأصبحت البوظة هي ملجأه الوحيد... وطبع الحزن أشعاره فتعلق الرجال به، واستعذب هو الحزن فرافقه في غير تذمر!

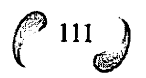
وقد ظهر محمود في تلك الليلة عند باب البوظة فجأة...

كان زائغ العينين، منبهر الأنفاس، شاحب الوجه، متسمرًا في مكانه متطلعًا إلى الداخل بنظرات شرهة غير مستقرة، كأنه يمتص بعينيه كل ما تضج به البوظة من حياة، ولمحه جمعة فصرخ بكل صوته وهو يفرد ذراعيه في الهواء ويقفز من مكانه:

«مين؟!... محمود البلطي؟! يا ألف مرحب!».

تحولت الرءوس كلها نحو الباب، وتوقف كل شيء للحظة، وصاح جمعة مرة أخرى وهو يضم صديقه إلى صدره، ونهض الرجال مرحبين، ورفع حنفي عينيه إلى محمود وعلى وجهه ابتسامة حنون... ولم تتحرك كايداهم من مكانها!

بدا محمود مرهقًا مكدودًا، ارتسمت على تقاطيعه علامات حيرة وألم دفين، صافح الرجال في ود، والتقت عيناه بعيني كايداهم فارتعد... تقدم منها في خطوات بطيئة ومن حوله الرجال... حتى إذا أصبح على بعد خطوة نهضت إليه، فتوقف عن السير، وجاءه صوتها عبر الضجيج والصخب:



«سلامتك يا سي محمود!».

«تسلمي يا كايداهم، الله يسلمك!».

«ليه غبت عنا المدة دي؟».

«الغايب حجته معاه!».

«واللي له حبيب ينساه؟!».

ضج الرجال بالضحك، وصاح جمعة في مرح:

«كايداهم بتقول شعر يا جدعان... عليه العوض!».

فرد عليه رجل وهو يرفع كوزه الممتلئ إلى شفتيه:

«اللي يدوق لدعة القلب يصبح نبي... عقبالنا يا رب!».

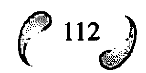
جـرع حنفي كـوزه دفعة واحدة، والتقط من فـوق المائدة حبات من الترمـس أخـذ يلقـي بها إلـى فمـه فـي سـرعـة، والتقـت عينـاه بعيني محمـود مـرة أخـرى، فصاح فـي عصبيـة وكأنه يخمـد بصياحـه بركانًا في أعماقه:

«ألـف مرحـب يا محمـود يا بن عمـي... آني مش قلت لـك تعالى، قلت لي لأ يا بن الناس؟!...».

كان شـيئًا غريبًـا أن يتحدث حنفي، وكان الأغـرب منه أن يصيح... لذلك، فقد حملق محمود في وجه ابن عمه غير مصدق ثم ابتسم عندما صاحت كايداهم:

«حنفي البلطي اتكلم يا جدعان... ميت فل!».

فصاح حنفي مدافعًا عن نفسه:



«نعملوا إيه يا كايداهم، ما انتي تنطقي الحجر!».

وصرخ رجل في مرح وكأنه ضبط حنفي متلبسًا بجريمة:

«حاسب يا جدع، دي رفيقة أخوك!».

وجذب جمعة محمود إلى جواره قائلًا:

«ليلتنا أنس يا رجالة... والنبي ليلتنا أنس!».

ثم ربت على كتف محمود في ود وحب وهو يقول:

«سبع ليالي يا جدع، سبع ليالي تغيب فيهم عن أحبابك؟... سبع ليالي يا محمود؟!».

وجلس محمود بجوار جمعة، وعاد الرجال إلى أماكنهم، وشحن الجو بشحنة هائلة من النشاط، كل شيء كان يبدو بهيجًا في تلك اللحظة، حتى حنفي انتابته نوبة عربيدة من سعادة كأنها ضياع، فحمل مقعده بيمناه وكوزه بيسراه واقترب من جمعة وجلس أمامه وهو يصيح:

«ملعون أبو الدنيا، محدش واخد منها حاجة!».

وتعالت الأنغام فجأة في موجات هادرة صاخبة... وغنى جمعة، وانداح صوته ساريًا كالمخدر، وألقت كايداهم بسيجارتها إلى الأرض وسحقتها، وتعالت نقرات الطبلة متموجة راقصة، فتراقص معها نغم المزمار في نشوة، وصفق الرجال وعلت وجوههم سعادة كأنها الغضب في وحشيتها، واهتز جمعة في مجلسه، وجذبت كايداهم الشال من فوق كتف زين وهي تنهض متقصعة، ثم لفته حول وسطها وانزلقت على أرض المكان بقدمين طائرتين وجسدها يهتز ويترجرج ويتراقص في سرعة وحذق، وتلاقت الأكف في تصفيق منتظم، وغنى جمعة: **«يا ليل»**،

واندفعت كايداهم تميل على الرجال وتجذب شواربهم في عبث وتنثر عليهم بسماتها ومداعباتها في سخاء... وحمي وطيس الرقصة، وحميت الأكف في تصفيقها، كما حميت الطبلة في نقراتها والمزمار في أنغامه وجمعة في لياليه... وسكر الرجال بخمر السعادة، تمايلوا وشربوا وتصايحوا وصرخوا وكأنهم تحولوا إلى مجانين... ودارت كايداهم حول نفسها، وهزت صدرها ووسطها، وراحت وجاءت، وشرب محمود، وشرب... ثم شرب كأنه يسابق الزمن، وبدت البوظة وكأنها جمرة ملتهبة، وكلما انتهى نغم طلبت كايداهم نغمًا آخر... انثنت في تمايلها واختطفت كوز البوظة من أمام محمود، وضعته فوق جبينها وهي تميل إلى الخلف، وراحت تتمايل وتتراقص، وجسدها ينثني، ويتثنى... شعرها تهدل حتى لامس الأرض، وما لبثت أن رفعت الكوز من مكانه وقربته إلى شفتيها، وأخذت ترشف - كالمعجزة - من البوظة على مهل، بينما وسطها يترجرج ويهتز، وعيناها لا تتركان عيني محمود وكأنهما شدتا إليهما بخيوط لا تنقطع... وتصبب منها العرق، وسال على وجهها وجيدها وانزلقت قطراته فوق صدرها... ومضت الدقائق، وبرقت في عينيها نظرات نشوانة عربيدة... ثم توقفت.

وتوقف الجميع وراحوا يلهثون في انفعال!

وجلست كايداهم بجوار محمود... وتصاعدت رائحتها إلى أنفه فغيبته عن وعيه... راح يجول ببصره في المكان غير مصدق، واضطرب قلبه وتراقص... ضياء ووجوه وناس ودخان... طعم البوظة اللاذع يرد إليه الروح، فيبتسم، وتغيض ابتسامته عندما يتذكر ما قاله رجل لحنفي: «حاسب يا جدع، دي رفيقة أخوك!»... لا يدري الرجل ما قالته له: «انت

زي أخويا يا محمود، عمرك ما خليتني أحس إنك راجل زي بقية الرجالة، كنت دايمًا حنين وقريب مني، زي أخويا، أبويا...!»... وعبثًا يحاول أن يعيد إلى شفتيه ابتسامتهما... راح يفكر في صراخ محموم لم يسمعه سواه: «حرمت عليَّ من دون الرجال جميعًا، ألأني أحبها؟!... عجب!... رضختُ للحرمان دون مجادلة أو تذمر... ألأني أعشقها؟!... ما أشد العجب!... لو طلبت منها روحها لما ضنت بها عليَّ، في عينيها نداء صارخ فكيف ألبيه؟... كيف؟... في قلبي حب لم يحمله قلب رجل من قبل... وحنانها؟... أليس برهانًا؟... لمسات يدها ليدي؟... نظراتها؟... كل هذا يغرقني في فيض من اللذة والألم معًا، لكن حبي يعذبني ويكويني ولا أعرف له دواء... هل من حل!؟... هل من دواء؟... فلنسأل جمعة:

وطبيب أريد أسألك عندكش دواء ينطال

للمغرم اللي عامل كفوفه للدموع منطال؟!

بدأت المحاجاة بيني وبين صديقي وأستاذي، توتر الرجال وران السكون العميق على المكان، تحملق فينا العيون كجمرات ملتهبة، المرجل السحري يغلي في أعماقي ويتصاعد منه البخار إلى ذهني شعرًا... الأنفاس تفح في قلق وكأنها تنفث في الهواء لهبًا، المعلم جمعة يرفع القرعة إلى شفتيه استعدادًا، وحنفي... حنفي يشب برأسه في لهفة وعلى وجهه علامات ألم طافح... حتى أنت يا حنفي؟!... ما الذي يؤلمك يا زين الصيادين؟!... وانداح صوت جمعة:

يا محمود اصبر، يا شيخ دا الصبر للأبطال

منين أجيب لك دوا ينشف عليك دمعك

من كتر نعيك على أحبابك تقل سمعك

قوم اسأل المولى قادر على جمعك

من غير حبيبك جميع الطب لك بطال!

أعـرف هذا يـا جمعة وأدريه وأعيه وأتعـذب، لوعتي يا رجال تكفي عشـرات منكم لتكونوا أعظم المحبين، رأسـي يدور بنشوة غابت عني أيامًـا بطول سـنين، قاومت كثيـرًا كي لا أعود إليكم، لكنني لم أسـتطع، كدت ألحق بحنفي بعد أن تركني بثوان، جلسـت مع الرجال في الزقاق فكـدت أختنـق، حديثهـم جـاف ثقيـل، ووجوههـم صارمـة جامـدة مهمومة... انطلقت فجأة كالمجنون وكأني أحطم قيودي... كنت أعدو في الطريق كالعطشان يبغي نبع ماء عذب... لاحت لي البوظة من بعيد كشـاطئ يسـعى إليه غريق... ضجيجكم وصراخكم حبيبان إلى قلبي، جسد كايداهم ملتصق بجسدي.. ورائحتها تملأ صدري... حبي مرض لا أدري كيف ولماذا أصبت به؟... اصرخوا وصيحوا وصفقوا وافغروا أفواهكـم وعبـوا مـن البوظـة واحملونـي على سـحابات اللـذة لأرتع لحظات فبعدها حرمان... أبي وأمي وأهلي في حاجة إليَّ، وأنا أحبهم، وأحبكم، وأتمزق بينهم، وبينكم...!

كايداهم تنهض من جواري لامرأة تقف عند الباب، تخطف الملاءة مـن زين وتختفـي في الظـلام قائلة إنها سـتعود... كلكـم تعرفون هذه المـرأة كما أعرفها، جميعكـم تعلمون أنها ذاهبة لتقدم جسـدها لرجل غيـري، زبـون لا بد وأن يكون له شـأن وإلا لما تركتنـا!... هل أنا رجل كالرجـال؟!... من منكم يحس ما أحس بـه؟... كلكم تنظرون إليَّ في ترقب منتظرين إنشـادي وأبياتي وشـعري، دموعي قريبة تكاد تطفر من

فـرط اللذة والألـم والخزي جميعًا... اسـقوني أولًا، هكـذا، ثم خذوا إنشادي لعلكم تشعرون:

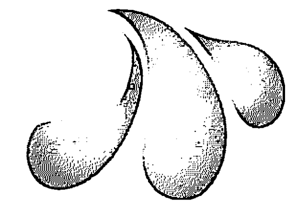
ما تلومونيش يا ناس، أنا لي حبيب غايب

قاعد معاكم لكن عقلي الذكي غايب

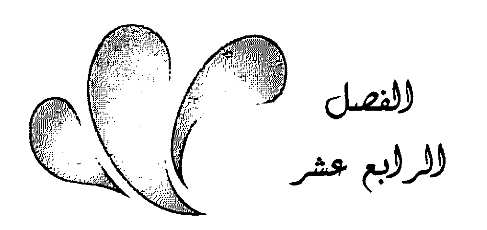
إن مت يا إخوان واللا صابني صايب

ابكم بحرقة، وشيلوا جسمي برتايب

حنفـي ينهـض كأن ثعبانًـا لدغـه، وجهـه وهـو يمضـي ينطـق بمـا لا أعـرف!... أنـي لـك يا حنفـي أن تفهم الحـي؟... كيـف تعرفه وقد شببت في زقاق السيد البلطي؟... والدك أسطورة يا ابن عمي يتغنى بها النـاس علـى الشـاطئ، وأبـي عجـوز كادت الميـاه تبتلعه لـولا رحمة اللـه!.... ولو مات لما قالـوا إنه تزوج جنية، فهـو لا يصلح!... وراءك مـاض هائل تسـتند إليـه وتفاخر بـه... شـاطئ مهجور تقـف أمامه كل غروب وتتأمل مياهه في عشق، أتحسبني غافلًا عما تفكر فيه؟!... إنك تريد أن تعيد السيرة وتبدأ القصة من جديد، تسير الآن في ظلام الطريق جامد الملامح سريع الخطوات، ستصحو في الصباح كعادتك وتسبقني إلى الشـاطئ... سـيخرج أبي معنا غدًا أو بعد غد فلـن يطول رقاده، لن أسـلم مـن لومه وتقريعـه... أحس كأني طائر في الهـواء معلق لا أرض لـي... خذوني يـا رجال في أفواهكـم، اغمروني بصيحاتكم، أنسـوني حبيبة القلب التي تتمرغ الآن في أحضان غيري... أنشـد يا جمعة أبياتًا تشـفي غليلـي أو تزيـد مـن النـار المشـتعلة فـي ضلوعـي... اصرخوا واضحكوا وضجوا وصموا آذاني فما عدت أحتمل!».



الفصل الرابع عشر



أهو مجنون؟!

ليكن... أصبحت لا تطيق، صدرها يجيش بما لا يستطيع أن يتحمله إنسان، مضى عليها اليوم تعساً قلقاً، ونهشت التعاسة والقلق أعصابها بلا رحمة... أكثر ما تخافه أن يزجرها... أن يهملها أو يحتقرها، وحتى لو فعل، فالتضحية رخيصة مهما دفعت... غير أنها لم تعد تستطيع الصبر.

نام أبوها، ونامت أم حنفي وعائشة، وسكنت الحركة في الزقاق كله، وعم الظلام وكثف حتى لم تعد ترى كفها التي بسطتها أمام وجهها.

غادر حنفي والرجال زقاقهم في الصباح، وذهبت لتجلس مع خالتها وابنة خالتها وبين كفيها كوب الشاي، جلست معهما وتحدثت إليهما، وراح الحديث بينهن وجاء، وثرثرن فيما يقوله الرجال عن سفينة عبد الموجود حمدان، والمستقبل المخيف الذي ينتظر رجال الشاطئ... وقالت من وراء ذهنها ما سمعته من أبيها: «**ده كلام فارغ، دول الرجالة اللي غاويين لت وعجن، ومنين عبد الموجود يجيب تمن مركب زي دي؟ ... أبويا قال كده يا خالتي!**».

غير أن سفينة عبد الموجود حمدان لم تكن هي التي تشغل بال خالتها في ذلك الصباح، كان هناك شيء آخر راحت العجوز تلوكه في

ذهنها وتعبر عنه بكلمات غامضة، كانت كمن يكتم في صدره أمرًا رهيبًا لا يريد البوح به، على أنها سرعان ما انفجرت بلا تحفظ تبكي وتنوح وتبوح بما يخيفها، وهي مؤمنة أشد الإيمان أن حنفي خاوى جنية مثلما فعل أبوه... انقبض قلب زوبة رغم قدم الحديث، وبهتت عائشة لبكاء أمها، ورعبها البادي على وجهها، وراح الحديث ينزلق بين ثلاثتهن، وكل منهن تحفر له مجرى يلائم هواها.. قالت أم حنفي إن زوجها جاءها في المنام وقال: «**ابعدي ابنك عن الجنية!**»، وكل شيء يؤكد مخاوفها وقلقها: «**أمال مش عاوز يتجوز ليه؟! ... المهر جاهز، والعرايس على قفا من يشيل!**».

وتساءلت زوبة بينها وبين نفسها: «حقاً، لماذا لا يتزوجها؟... هل عائشة هي السبب الوحيد؟ ... هناك علامات! نظراته، صمته العميق، رأيه الصائب، قوته ... ثم، من أين يتأتى هذا الرجل إن لم يكن قد خاوى حقًّا؟!».

وكأن شيئًا رفعها إلى السماء، ثم ألقى بها إلى الأرض فتصدعت، أحست كأن روحها قد فارقتها، وانتابها الرعب، وأمه تقول في ولولة:

«**عملها، عملها زي ما عملها أبوه، واحدة من إياهم رابطاه، يا حسرتي!**».

تشاغلت أصابع زوبة بأطراف شالها وهي ترجف، وقالت عائشة في لهجتها القاسية المريرة:

«**مش بعيد والنبي يعملها، ما هي عيلة البلطي مبلية!**».

وصاحت زوبة بلا وعي:

«فال الله ولا فالك يا عيشة، تفي من بقك يا ختي!».

فردت عليها عائشة في جبروت:

«أمال مش عاوز يتجوز ليه، هو مش راجل زي الرجالة؟».

وأرخـت زوبـة عينيها أمام نظرات عائشـة الغامضة القاسـية ... هل كشـفت سـرها؟! ... هل عرفـت أنها تحب حنفـي؟! ... رفعـت إليها عينيـن مبللتين بالدموع، لكنها وجدت عيني عائشـة فـي انتظارها، ولـم تعد تحتمل، فنهضت متعثرة لا تلوي على شيء.

***

ومضـى النهار ولم يأت، وجزء كبيـر من الليل ولـم تدب قدماه على أرض الزقـاق ... وكانـت قـد قررت في نفسـها أمـرًا، ليكن مـا يكون، ليحدث ما يحدث، لتنطبق السـماء على الأرض، لكنها ستسأله إن كان قد خاوى حقًّا؟

عنـد الضحى كانت جالسـة في وجـوم عندما وجدت عائشـة تقف فوق رأسها كالسيف وهي تقول في دهاء:

«اللي واخد عقلك يتهنى به، بانادي عليكي بقالي مدة!».

انكشف المستور وتعرى، حقيقة مشاعرها تصرخ في كل من يراها، وحقيقة مشاعره هو لم تعد مجالاً لشكها، ولكن ...

لم يرها فـي الصباح وهو يغادر الحجرة، وعندما خرجت إلى الفناء وجدته واقفًا عند باب البيت في انتظارها ... شـبكته على كتفه، ولاسته فوق رأسه، وعيناه تحملقان فيها بجسارة، خفضت عينيها وقلبها يرقص في طرب:

«صباح الخير يا سي حنفي!».

لـم يـرد التحيـة، وتحركت شـفتاه في قلـق، وأحسـت - ولا تدري كيـف - أنه يريد أن يقول شـيئاً ... تقدم منها خطـوة، واقترب منها وهو يـرد تحيتها بعد طول صمت، ثم اعتـدل في وقفته وهم بالحديث، لولا أن هوى صوت عائشة فوق رأسيهما كمطرقة شيطان:

«الله، انت لسه ماتوكلتش على الله يا خويا؟!».

وأفلحـت اللئيمـة فيمـا أرادت، جعلتـه يفر من البيـت كمن تلاحقه النار، استدارت إليها فلمحت على وجهها ابتسامتها الصفراء الساخرة، فابتسمت دونما رغبة في الابتسام، وقالت كأنها تستجلب رضاها:

«ربنا يحميه لك يا عيشة!».

مصمصت عائشة وهي تقول:

«يحميه لي أنا لوحدي؟!».

«يحميه للزقاق كله!!».

وغادرتهـا وفي قلبها ثـورة ظلت تزداد اضطرامًـا لحظة بعد أخرى، مـا الـذي كان يريـد أن يقوله لهـا؟ ... خمنـت، وقلبت الأمـر على كل وجوهــه دون أن تسـتقر أو تهـدأ، خيـل إليها أنه سـيقول لهـا: **«باحبك يـا زوبـة»** ... وأحيانًـا أخرى تخيلـت أنه سـيقول لها: **«أنا رايـح لابويا صـادق بعد الطرح طوالي»** ... ثم قالت خالتها ما قالت، وقالت عائشـة ما أرادت، وأحست أنها تهوي إلى قرار مظلم.

ومضى النهار كأثقل ما يمر نهار، غسـلت وطبخت وثرثرت وزارت وعادت، وكانت تنتظره في كل دقيقة لتسأله، وستسأله!

الليل ساكن بارد، وشخير والدها يملأ الحجرة، والباب مفتوح نصف فتحة، وعيناها محملقتان في الظلام، وأذناها تتسمعان حديث الريح وتنتظران بلهفة دبات قدميه، وما إن تسمعها حتى تنهض إليه وتلتقي به في الفناء ...و... وليحدث بعدها ما يحدث!

هل نامت عائشة؟!...

أهذه خطواته؟! ...نـ... نـ... نعم! ... نعم هي!

عنفت دقات قلبها حتى أوجعت صدرها، ونهضت كالملسوعة وقد توترت كل أعصابها، لكنها تسمرت في مكانها كأن قوة تشدها إلى الأرض، واقتربت الخطوات واقتربت، ثم خفت سرعتها، وصر باب الطريق، واندفعت كالمجنونة!

***

حدث كل شيء دون أن تدري وكأن هناك من حملها وألقى بها في أحضانه!!... مرة واحدة وجدت ذراعيه تضمانها إلى صدره في قوة... فجأة تحققت كل أحلام يقظتها ومنامها، اللحظات التي سبقت ذلك سقطت من عمرها، ولا تدري أهو الذي همس:

«زوبة!».

«سي حنفي!».

وساد الصمت إلا من أنفاسها وأنفاسه، أرادت أن تتراجع مبتعدة عنه فاقتربت حتى التصقت به أكثر... كان جسده ملتهبًا، وكانت ترتجف في عنف، وخافت، غير أن شفتيه بددتا كل خوف.

جذبها إلى الحجرة الخالية في طرف الفناء، فانقادت له بلا تفكير... ليصنع بها ما شاء... قبلها بجنون أفقدها الوعي فتعلقت بعنقه في الظلام وراحت تغمره بقبلاتها، سقطت شفتاه فوق أنفها وعينيها وجبينها وشعرها وشفتيها.

«سي حنفي!».

أهذا صوتها أم صوت قلبها!... أصابعه مغروسة في لحمها، ليته يغرسهما أكثر... ما أعذب أن تتألم من فرط قوته، خارت قواها ولم تعد تستطيع الوقوف فترنحت، ارتجفت ساقاها وتهاوى جسدها بين ذراعيه... ما، ما الذي حدث؟!

«سي حنفي... اخص عليك!».

الغريب أنها تتدلل، بل وتبتسم!

سقط الحجاب واخترق وتبخر وكأنه لم يكن، ماذا سيقول عنها بعد ذلك؟!... ليقل ما يحلو له، ليظن فيها الظنون، ليهجرها إن أراد، فهي تحبه، وستحبه، وتقبله كلما استطاعت الوصول إليه، ما ألذ العيب لو كان العيب والفجور هما حنفي وشاربه وشفتيه.

جذبها، لا لا، حملها فجلسا على الأرض اللزجة متجاورين، لا... ملتصقين، لا لا... ممتزجين!

وتلاشى من الدنيا كل شيء، حتى هو لم يعد له وجود... لا أهل ولا خير ولا شر.

دفنت رأسها في صدره، وانهمرت أنفاسه لتدثر وجهها بغلالة دافئة، وأخذت تهدأ رويدًا رويدًا... لكنها كانت تشعر برغبة عربيدة لا تقاوم،

وانقشع على غير توقع ستار الخجل فانطلقت... ماذا سيفعل بعد ذلك، و... هل يفعل؟!... هل تدعوه؟!... أي فجور هذا يا بنت البلطية؟!... لكنها - للعجب - ضحكت لحلاوة ذلك الفجور، وهزت رأسها وكأنها تطرد عنها أشباحًا من نار... هل يقاوم هو الآخر ما تقاومه؟ وهل تراوده نفسه؟ همست لنفسها باسمة أنها عربيدة فاجرة معجونة بماء النار!... فليكن الدنيا برد!... حنفي يبتعد عنها قليلًا، فابتسمت في دهاء.. إنه يقاوم!! وأحست بالسعادة كما لم تحس بها من قبل، ولكن... لماذا لا تلقي إليه بالطعم لعله يتلقفه ولترَ ما يقول:

«ليه عملت كده يا سي حنفي؟!».

كاذبة... لكن كذبها له حلاوة العسل...

كأنها رأته في الظلام يبتسم، فارتجفت في انفعال وتداخلت في نفسها، ثم اقتربت منه - كالقطة - وأوت إلى صدره وراحت تزوم!

«بردانة يا زوبة؟!».

«ليه عملت كده يا سي حنفي؟!».

ليست كاذبة هذه المرة تمامًا، شيء كان ينبعث من أعماقها فتجيش به نفسها... فجأة، أحست إحساسًا غامضًا بالسعادة والألم معًا... كيف فعلت ما فعلت؟! كيف أقدمت؟!... ما الذي دفعها إلى هذا الجنون؟!

«وبعدها معاكي يا زوبة؟!».

دموعها تنهمر من عينيها... دموع ندم أم دموع فرح؟... لم تكن تدري. ثمة رغبة حارقة في البكاء... فقط أرادت أن تبكي، صفت الدنيا في عينيها كصفاء السماء في ليلة صيف ندية، صدرها هادئ ساكن،

كسطح البحر بعد عاصفة هوجاء.

«بتبكي يا زوبة؟».

هزت رأسها دون حديث. لذة لا تعادلها لذة. تعمل اليوم بطوله دون توقف، وتقضي الليل بطوله دون نوم، وتنتظره في النهار والليل... ما الذي يدريه هو عن دمعها؟!

«لإمتى حايطول الانتظار يا سي حنفي»

«حانكلم أبويا صادق، نكلمه وخلاص ... نتوكل على الله واللي يحصل يحصل!»

«والجنية؟!»

«جنية إيه يا بت؟!»

«اللي انت مخاويها!»

انفلتت ضحكته رغمًا عنه، فزم شفتيه في قوة، وأخذ جسده يهتز، وتسللت أصابعها إلى شعيرات صدره كما تسللت الراحة إلى قلبها، وعادت تقول في دلال:

«بتضحك على إيه يا سي حنفي؟»

«مين اللي قاللك الكلام ده؟»

«خالتي...»

« يابت اعقلي، أنت بتصدقي؟!»

« طب وعيشة؟!»

قالتهـا دون وعـي، ويا ليتها ما فعلت ... لو كانت دموعها في البداية مـاء، فجفـاف عينيهـا بعـد ذلك لهـب ... صمـت دون جـواب، وطال صمته، وزفر في ضيق ... وتعلقت أنفاسها في انتظار كلماته ...

«والله ما آني عارف يا زوبة، إيش قولك إنتي؟».

«اللي تشوفه يا سي حنفي».

«عيشة منكسرة يا زوبة، وملهاش غيري».

«وآني لي مين».

أحسـت بابتسـامته في تلاعـب أصابعه بيدها، فابتسـمت وعاد إليها هدوؤهـا، لكنهـا ما لبثـت أن انقضت عليـه بدهاء تنتزع منـه ما حلمت بسماعه طيلة أيامها ولياليها:

«بتحبني يا سي حنفي؟!».

«بنحبـك؟! ... ربنـا اللـي يعلـم، ياما ليالي مابنشـوفش فيهـا النوم يا زوبة! حاسس من غيرك إني مش عايش... وإنتي يا بت؟!».

كلماته تبتسم، فابتسمت هي الأخرى وقالت بسرعة خاطفة:

«أيوه!».

«أيوه إيه يا بت؟»

«الله ... وبعدين معاك؟!».

«عارفة يازوبة، آني نفسي في تلات حاجات».

رفعت شـفتيها إلى شفتيه وطبعت عليهما قبلة ... وأحست أنها تزاد عطشًا...

« نفسي في قارب ... ونفسي في شبكة جديدة!»

«والحاجة التالتة؟!»

ونخسها باصبعه في جنبها فقفزت ضاحكة، وامتدت كفه إلى فمها يحجب الضحكة المرحة عن أسماع النائمين... واستسلمت لكفه، ومالت معه حتى لامست رأسها صدره، وأغمضت عينيها!

وعاد الصمت من جديد، ومال حنفي على وجهها فلثمه في هدوء وقد تطايرت من رأسه آثار البوظة تمامًا ... أحس براحة شديدة وهو يضمها إلى صدره، بدا كل شيء له بهيجًا، وتذكر غناء محمود وشعره فابتسم في حب. لولا هذه الأبيات لما اكتوى بنار الوجد ففر من البوظة هاربًا ... وأخذت أفكاره تترتب في ذهنه فكرة وراءها فكرة، وصفا تفكيره وهدأ فراح يقول كأنه يحلم:

«بقى عندي تلاتة وستين جنيه يا زوبة، ندفع منهم مهرك ويفضل تمن قارب وشبكة!»

«وحانسكن فين؟»

«هنا، في الأوضة دي»

وأخذا يحملقان في الظلام، ويتحسسان بنظراتهما جدران الحجرة الخالية وأرضها، وجذبتهما الأحلام فراحا يؤثثانها ... وضعت زوبة دولابًا في الركن الأيسر، والفراش بجوار الباب - في مكان جلوسهما - وفرشت على الأرض كليمًا أسيوطيًّا، وأنجبت له ولدين وبنتين، وزوجت عائشة من ابن الحلال ... و ... وضحكت من قلبها، وضحك من قلبه، وسرقتهما السعادة فلم يشعرا بزمن،

ولعلع صوت المؤذن فلم يسمعاه، وسعلت أم حنفي فانتفضا مذعورين.

تسلل حنفي إلى حجرته عندما كانت أمه تتقلب على جنبها لتنهض وألقى بنفسه فوق الحشية وتوسد ذراعه وأخذ يحملق في السقف سعيدًا ... وحاول أن يفكر، أن يستعيد ما حدث ، حاول ... حاول ... ولم يفلح!

ذابت الأفكار والأماني والأحلام في رجفة الرضا التي اجتاحته، وبقي عقله خاليًا من كل شيء، وظلت أحاسيسه على مستواها من السعادة وكأنه توقف تمامًا عن الحياة. ثم حاول أن يمسك بطرف الخيط، تذكر أشعار محمود في البوظة، ثم نساها ... وهبطت زوبة على ذهنه، وذابت ... وحل محلها حمودة، وتميع .. وفزت كايداهم برقصاتها، واختفت ... وسعلت أمه مرة أخرى، ثم غاب عنه صوت سعالها ... واستشعر أحضان زوبة، وفر من ذكراها ... ونادت عليه أمه، فرد عليها بلا وعي:

«**أيوه يامه صاحي!**».

شهقت العجوز وهي تتحسس مكانه ببصرها الكليل:

«**كفى الله الشر يا بني، إيه اللي مصحيك؟**».

وانبثق صوت عائشة في الظلام كعواء مقبض:

«**وهو نام علشان يصحى!**».

وهب حنفي في مكانه كالملدوغ، حملق أمامه في غضب، أتكون عائشة قد أحست بالأمر؟

«قصدك إيه يا بت؟!».

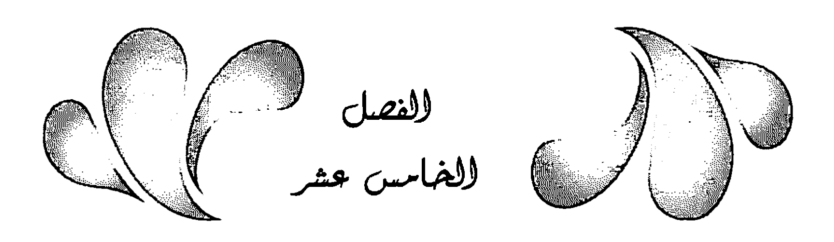
«ولاحاجة يا خويا ... دانت لسه داخل أهو!».

«وانتي مالك يا مقصوفة الرقبة؟!».

وصاحت أمه:

«مالها إزاي ... صحتك يا ضنايا!».

وبدأ موال كل صباح.



الفصل الخامس عشر

بدأ موال كل صباح، لكن عائشة لم تكن ككل صباح، كان الشك قد تحول إلى يقين، والخوف من المقدر أصبح حقيقة هوت فوق رأسها بعنف وقسوة... فذعرت، وحنقت، لا... ثارت، بل أصبحت وكأنها إنسان وقع بين براثن وحش خرافي ولم يعد أمامه سوى الدفاع المستميت.

كيف تحتمل الأمر؟... كيف يتزوج حنفي قبل أن يزوجها؟

لا... لم يحدث هذا، لن يحدث...

ليس أمامها سوى طريق واحد، ليس هناك غيره... هبطت من الفراش وهي تتدثر بشالها وتتثاءب، وتنظر إلى شقيقها بنصف عين، قوة غريبة تتوالد في أعماقها، عقلها يتحرك بسرعة، وبجنون، لسانها يتلاعب في فمها غير قادر على الصمت، اختلست نظرة أخيرة من حنفي ووجدته مطرقًا... فيم يفكر؟ هل عقد النية على أن يفعلها؟!...

«يا بني اسمع كلامي، ما هو لو كنت متجوز ماكنتش سهرت الليالي، كنت لقيت واحدة تلمك، يا واد اعقل!».

ولم يرد حنفي، لم يفه بكلمة، كل ما فعله أنه زفر من أعماقه... إذن، فلم يعد هناك مجال للتردد... ليس هناك وقت، ووجدت لسانها يتحرك، وصوتها يخرج وكأنها في حلم:

«والله يا امه ما عرفت أنام الليلة ولا دقيقة، زي ما اكون سمعت رغي وكلام وحديث في الحوش، قلت بسم الله الرحمن الرحيم، وعطشت، مديت إيدي للقلة لقيتها فاضية، خفت اطلع برة، عطشت زيادة، قلت يعني يا بت حيكون مين، إلا يعني حايكون مين، خرجت أشرب من الزير... و...».

وصمتت، والتقت عيناها بعيني حنفي، فيهما ألم، و... وتوسل، ارتجفت، وازدردت لعابها، ثم استدارت نحو المصباح، وسألتها العجوز:

«وإيه يا بت؟...».

ولم تستطع أن تمنع نفسها من الحديث... لم تستطع، ولم تستطع أن تخوض فيما كانت تريد الخوض فيه، هل فهم حنفي؟... هل يتراجع؟... عيناه معلقتان بوجهها، وشفتاه مطبقتان في عزم...

«أنا عارفة بقى يا امة، آهو تخاريف نوم، فين الكبريت؟».

وأضاءت المصباح ثم انفلتت مسرعة إلى الفناء لتعد الشاي... ورأت زوبة...

«صباح الخير».

وكانت زوبة تبتسم... وجهها مضيء بنور سعادة لم تستطع إخفاءها...

«صباح الخير يا عيشة».

كأنها لم تفعل شيئًا، كأنها لم ترتكب إثمًا... واندلع في صدرها شعور بالكراهية، والبغضاء، وتمنت أن تصفعها، أن تكشف للناس

سرها، أن تذلها، وفي قسوة، أن تمزق تلك الابتسامة المرتسمة على الوجه الجميل وتسحقها بقدمها... ووصل إليها صوت أمها من الداخل:

«يا واد اسمع كلامي وريح قلبي حرام عليك!».

المعركة تبدأ وهي بعيدة عن الميدان، يجب أن تنتقل إليها وإلا انطبقت السماء على الأرض، ووافق حنفي... واندفعت بلا وعي إلى الحجرة...

«فين الشاي يا بت».

«على النار... ا... ا... آديني باولع البابور!».

كان واجمًا مطرقًا، جسده مكوم ورأسه مدفونة بين ركبتيه، وكالمنومة وجدت نفسها تقول:

«زي ما اكون سمعت يا امة... ...».

ونهض حنفي مندفعًا، وأزاحها عن طريقه وهو يغادر الحجرة دون أن ينتظر الشاي، ودون أن يشعل سيجارة، ودون أن يلقي عليهما التحية، وزغردت الفرحة في صدرها... انتصرت، ولكن... لماذا آذت أخاها؟ لماذا آذته؟!... أطلت وراءه وراحت تناديه، لكنه لم يرد عليها، ولم يلتفت لزوبة التي استقبلته بابتسامة انتشرت على صفحة وجهها فملأته، كأنه لم يكن في أحضانها منذ دقائق... رفعت إليها عينيها، وفاضت نفسها برغبة عنيفة في الإيذاء... كيف تبتسم له الفاجرة كل هذه الابتسامة، ألم تندم؟... ألا تخجل؟... ماذا حدث للدنيا؟...

الغريب الغريب، والعجيب العجيب، أن يحدث هذا في عائلة البلطي، في زقاق السيد البلطي، وفي بيت حنفي البلطي، بل حنفي

البلطي هو الفاعل دون غيره... ماذا بقي لها بعد ذلك، لن تلوم بعد اليوم أحدًا لو تعرى في الطريق وسار أمام الناس يعرض عليهم عورته... اهتزت الدنيا وارتجت من حولها، ولم تصدق، بل هي لا تستطيع أن تصدق.

مرتاحة؟... نعم، راضية؟... لا!!

أيقنت في ذلك الصباح أن حنفي لم يخاو كما فعل أبوها، بل خاوى زوبة... وقد كانت تتمنى - في أعماقها - أن يزوجه السيد البلطي من إحدى أميرات البحر لترتاح من رعبها وقلقها وترقبها... كتمت هذا الإحساس ودفنته في أعماقها دون أن تجرؤ على جذبه إلى ضياء التفكير الواضح...

وكاد رأسها ينفجر... وجه زوبة تغير فما عادت زوبة التي ألفتها ولا عرفتها... وجه العالم تغير وتبدل، أصبح ذا لون شاحب وملامح مطموسة. بمن تستجير؟!

ترى هل كانت تفعل مثلما فعلت زوبة لو واتتها الفرصة مع السيد أفندي؟!

فعلتها التي أقضت مضجعها وأطارت النوم من عينيها، وأسلمتها لرهبة ورعب شديدين، باتت الآن ماسخة لا طعم لها... عذابها أبله، وخوفها سخيف، وأرقها طفلي لا يعني شيئًا. كل ما فعلته هو أنها أسلمت كفها لكفه مرة، هذه فعلتها المشينة... وباتت ليلتها تبعد كفها عن جسدها وكأنها لامست الشيطان نفسه. لو استجابت لمناجاة الرجل لما خسرت شيئًا، بل لربما كسبته زوجًا. أحست باشمئزاز ونفور أشد

عندما ذكرته... كلماتها معه على السلم خطيئة ظنت أنها لن تمحى من تاريخ البلطية إلى الأبد... ضعفها أمام نظراته، وانهيارها أمام توسلاته أسلماها فريسة للهم والقلق حتى جافته وصدته وزجرته، فارتاحت نفسها بعد طول عذاب واستقرت بعد طول أرق وقلق... ورغم هذا لم يكف السيد أفندي عن زيارة أمها، ولم يكف عن التهامها بنظراته، ولم يكف عن إلقاء الكلام بألف معنى، وكانت تفهم ما يقصد... توسل وحايل ولو أرادت لركع أمامها، لكنها رفضت، ثم هددته بالأمس أن تخبر أخاها بمحاولاته، فارتعب، وارتعبت هي الأخرى لقولها الذي لم تلكه في ذهنها، بل وجدته ينطلق من فمها وكأنها كانت تكفر به عما اقترفت من ذنوب!...

قال لها الرجل في صوت مرتجف وهو يغادر البيت:

«أنا قصدي شريف يا عيشة!».

فقالت بجبروت وقسوة:

«اللي قصده شريف يا سيد أفندي ما يكلمش حريم!».

فر الرجل مذعورًا... وربما لن يعود. ومضت ساعات قليلة، ثم شاهدت أخاها في أحضان ابنة خالتها، كان يقبلها، سمعت صوت القبلات بأذنيها، ضمها إلى صدره، سمعت تنهدات الفاجرة وزفراتها وهمسها... وتقلص جسدها من الانفعال، ووقف شعر رأسها ألمًا ورعبًا، ولم تدر ماذا تفعل.

كان الظلام حالكًا حقًّا، لكن خيالها أضاء الظلام وألقى فيه بكتلة من ضياء لا يخطئ في نورها الأعمى. سمعت النجوى والهمس

وصـوت القبل. ليتها ما أرقت، وليتها ما عطشـت وما غادرت الفراش، ليتهـا ترددت وصبرت حتى يطلع النهـار... ولكن ما حدث قد حدث، ومـا كان قـد كان... انهار كل شـيء، وتحطـم الإله، وتمرغ ابن السـيد البلطي في طين الحجرة الخالية.

«بت يا عيشة... إنتي حاتنعسي، فزي هاتي لي كباية شاي!».

أمهـا مطرقـة تفكـر... كل ما يشـغل بالها هـو حنفـي وزواج حنفي وكأنهـا لم تنجب غيره... أمها تفكر فـي حنفي، وحنفي يفكر في زوبة، وهي وحيدة تكاد تموت من البرد!

هل أخطأت أم أصابت؟!

لـم تـأت زوبـة كعادتهـا كل صبـاح... فلتنادهـا لتـرى مـا تصنعه الفاجـرات حين يتحدثن... طوفان رهيـب من الكراهية والحقد يجتاح نفسـها ويطغـى ويفيـض فترتجـف لهـول إحساسـها بـه... هـل تكـره زوبة حقًا؟!

«يا زوبة... زوووبة!».

جاءت بلا كلمة، ذليلة، شاحبة الوجه، منكسرة العينين، لعل خروجه دون تحيتها قد أثار في نفسها الخوف... لتتعذب تلك التي كانت سعيدة وهي في أحضان حنفي، ولتعذبها هي أكثر، وتتلذذ...

«ما تيجي يا ختي، إنتي نعستي واللا إيه؟!».

صعدت إلـى الفراش، وجلسـت متربعـة يداعبها النـوم، ويتراقص رأسـها فوق رقبتهـا، رأس مليء بالخبث والمكـر، ووجه جميل يخفي وراءه إثمًا فاجرًا!

أعدت الشاي وصبته في الأكواب، وجلست تتأملها وتنتظر الفرصة للانقضـاض، كوب الشـاي يهتـز في يد أمهـا، سـتعـود إلـى النـوم من جديـد كعادتها، وتتركهما وحدهمـا لتتبادلا الحديث، وسـيكون اليوم حديثًا شيقًا...

«باين عليكي مانمتيش الليلة يا زوبة».

شيئًا فشيئًا حتى تكون اللذة أقوى، الرعب يطل في عينيك يا فاجرة، ليـت أخـي يرى وجهـك كمـا أراه الآن، لكني أعلم أنه سـيحبه... أنت كالشيطان، بل أنت شيطان زين لأفضل الشباب والرجال طعم الخطيئة فوقـع... ترى لـو طال بكمـا الوقت، أكنت تسـلمينه نفسـك؟!... وما يدريني ما حدث قبل أن أنهض؟... لعله عبث بنهديك، وجاس بأصابعه خلال صدرك... وتحسس بكفيه بطنك... و... ومن يدري؟!

نار قلبي تزداد اشـتعالًا، ولن تبرد ناري قبل أن أهوي بالحقيقة فوق رأسـك لأهشـم كبرياءك... ولكـن لا، قطرة قطرة لأتشـفى على مهل. جميلـة حقًـا، وممتلئة حقًا، لكنـك فاجرة... ومن الفاجـرات من يفقن فـي جمالهـن ملكات يعشـن في القصور. لـو كان أبي على قيـد الحياة لعرف كيف يربي هذه العائلة... ولكن حسـرتي شديدة، لقد ذهب دون أن يترك وراءه رجلًا يخافه الناس، ولا حتى تخافه حريمه.

«ما لك ياختي، زي ما تكوني بايتة بعيد عن فرشتك!».

«أبدًا يا عيشة، بس الدنيا برد قوي يا بت خالتي!».

يا ناعمة اللسـان، الضوء يتسـرب من النافذة، والنهار يطلع ليكشف عن خبايا الليل والظلام.

«طب اطفي اللمبة النهار طلع!!».

أطيعـي كالخادمة، لا شـك عنـدي أنك خمنت ما يدور في رأسـي، لا عمـل لـك إلا التنصت علينا وسـماع مـا يدور بيننا، لـولا جنون أمي وتخريفهـا لما طاف بذهن أخي أن يفكر في الزواج من عاهرة مثلك... يليق بابن السـيد البلطـي أن يتزوج أميرة من الأميرات، ترفعين رأسـك وتنظرين إليَّ بلا خجل... والله لأكسرن هذا الرأس...

«إلـلا قولي لي يا زوبة... أنا شـايفة ياختي فرشـتك زي ما هيَّ، انتي مانمتيش عليها الليلة وإلا إيه؟!».

«وبعدين معاكي يا عيشة، مالكيش دعوة بيه يا بت خالتي!».

«يوه... هو أنا قلت حاجة لسه!!».

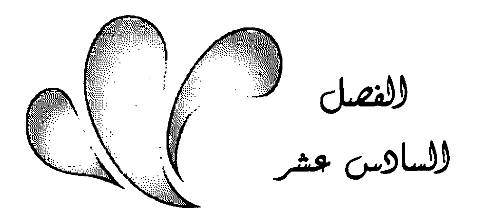
«فتك بعافية!!».

تردين عليَّ وكأنك طاهرة الذيل؟... وتغادرين الحجرة غاضبة؟... ولكن إلى أين؟... في النهار متسع، بل في العمر ما يكفي لأسقيك المر على مهل!

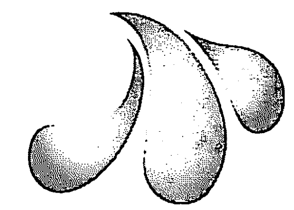
فلأدثـر عظامـي الناتئـة، ولأغفـو قليـلًا فقد تعبـت... لمـاذا يطلع النهـار؟! لماذا لا تظل الدنيا في ظلام أبدي؟... ترى، متى يعود السـيد أفندي؟... لوعتي عليك يا كفي، متى تذوق لمساته مرة أخرى؟!

هل يعود إلى الزقاق؟...

يالي من مجنونة!!... كيف فعلت معه ما فعلت؟!



الفصل السادس عشر



أشـرقت الشـمس، ولم يطـل قرصها الدافـئ على النـاس... وأيقن حنفـي وهو يغـادر الزقاق أن اليـوم لن يكون فيه صيد، كانت السـحب الكثيفة السوداء تحجب السماء عن النظر، وسطح المياه مربدًّا، والريح عاصفة... وقد سـار في الشوارع والأزقة شارد الذهن، وكلمات عائشة لا تـزال تطـن في أذنيه، وكان أكثر ما يعذبه أنه لم يسـتطع أن يرد عليها، أو يوقف حديثها... بل هو لم يستطع أن يرفع عينيه!

مـر به رجل وألقى عليه التحية، فلم يسـمعه، ولم يرد تحيته، اقترب مـن باب الرصيف تقوده قدماه دون وعي منه، واجتاز الباب في سـرعة كأنه يهرب من شيطان يطارده... رأى الرجال وقد تجمعوا أمام قواربهم الخالية منكمشـين مـن البرد، تتلاعـب الرياح بسـراويلهم الفضفاضة، وتدفع القـوارب المتراصة بجوار بعضها فتحتك جوانبها مرسـلة أزيزًا يثير الأعصاب... ولمح محمود يقف مستندًا إلى جوار المقهى شاحب الوجه، محمر العينين، سارحًا ببصره إلى الأفق البعيد، فأيقن أنه لم ينم ليلته هو الآخر... اقترب منه وألقى عليه التحية، ثم وقف بجواره يرقب الحياة من حوله ببصر زائغ وعقل غائب.

هل سـمعت عائشـة شـيئًا؟... هل رأتهما؟... صوبـت حديثها إلى صدره كأنها تطلق سهامًا تعرف أين تصيب!... كيف أقدم على ما أقدم

عليـه؟... وكيف سـمحت له زوبة بذلـك؟... ولمـاذا انتظرته؟... هل هو نادم؟

بحـث في أعماقه فلم يجد سـوى الرضا، وبجانـب الرضا عثر على شـيء كالقلق، كالاضطـراب، كالضيق الذي ينتاب المـرء عندما يصنع شيئًا غير مألوف، والناس من حوله في دهشة!

أيقظه محمود من أفكاره عندما قال:

«أبويا نزل يا حنفي، أبويا وصل!».

بوغت حنفي بحضور المعلم محمد البلطي، ارتجف لسماع اسمه، واعترت جسـده قشـعريرة بـاردة عندمـا رأى عمه يخطو فـوق حجارة الرصيف وسـط الريح بقدميـن ثابتتين... ترى ما الـذي يحدث لو علم أهل الزقاق بما حدث؟... كيف يواجههم إذا زلَّ لسـان عائشـة وفقدت صوابها وقالت شيئًا؟!

تدافـع الرجال نحو المعلـم محمد مهنئين، وتقـدم حنفي نحو عمه وانحنى على يده ليقبلها... وكان واضحًا أن المعلم محمد سعيد بعودته إلى الشـاطئ، سـعيد بشـبكته الجديـدة الملقـاة على كتفـه... وقد رفع العجوز عينيه ناظرًا إلى الأفق المظلم، وقال في مرح:

«يظهـر أن البحـر بيعاندنـي يـا رجالـه، يـوم مـا ننـزل يعمـل الموج عمايله... يالله بينا على القهوة، مفيش فايدة!».

وأطلـق ضحكتـه مجلجلة وهو يتجـه إلى المقهـى الزجاجي القائم علـى الرصيـف، يتبعـه الرجال منسـحبين واحـدًا وراء الآخـر، تاركين وراءهم قوارب خالية تتأرجح فوق سطح مضطرب.

كان مـن عادة الرجال في الأيام العاصفة التـي يتعذر فيها خروجهم إلـى الصيـد، أن يتجمعوا فـي المقهى، يرقبـون مياه البحـر المتلاطمة، ويدخنـون ويثرثـرون ويشـربون الشـاي في إسـراف، وكأنهـم في يوم عيـد... كانوا في تلك الأيام النادرة يمضـون أوقاتًا هي في غالب الأمر أجمـل أوقاتهـم، لـولا مـا كان يشـوب ذلـك الجمـال من قطـع رزق، أو احتياج إلى المال.

على أن شعورهم في ذلك الصباح، كان - على غير العادة - مضطربًا بالتوتر والقلق، كانوا مسرورين لمواتاة الفرصة أخيرًا لتجمعهم، بعد أن أضناهم ذلك الخوف الذي يسيطر عليهم كلما مر يوم وتناثرت الأقوال حول أسطول الصيد المزمع إنشاؤه.

كانـوا يلتقون كل يوم بعد الغروب في المقاهي التي اعتادوا التجمع فيهـا، غير أن إحساسًـا غريبًـا كان يبعـد كلًّا منهم عن الآخر، إحساسًـا بالخوف أن تتجسد الكلمات التي يلوكونها حول هذا الموضوع فتصبح حقيقـة، وأن يواجـه كل منهـم الآخر بمـا يعتمل في نفسـه... ورغم أن أحاديثهـم حول هذا الموضوع قد كثرت في الأيام الأخيرة، خاصة بعد أن ثرثر بعض رجال عبد الموجود حمدان في المجالس مؤكدين حقيقة الأمـر، إلا أن عيونهـم كانـت تتلاقى في حيرة، يطل منها سـؤال واحد: «ماذا نحن فاعلون؟!».

لكن السؤال - أبدًا - لم يجد له جوابًا سوى الصمت الحزين!

قال قائل: إن عبد الموجود حمدان شارك بعض أغنياء الإنجليز بمال وفير، وأنه يبحث الآن عن مشـترٍ لقواربه الاثني عشر!... وقال آخر: إن السفينة الواحدة من هذه السفن، تستطيع وسق ثلاثين طنًّا من الأسماك،

وأن الرجال على سفن كهذه يستعملون شباكًا غير الشباك، شباكًا من حديد مجدول، تلقى إلى البحر بواسطة أوناش ضخمة، فتغوص في المياه إلى الأعماق، وتجذب من الأسماك ما يفوق حجمه حجم الحيتان!

وصل الأمر إلى المعلم محمد البلطي وهو لا يزال راقدًا في فراشه، وسمعت أذناه أكثر من قول، وحمل الرجال إليه أكثر من رأي... فسأل عن عبد الموجود حمدان، وعلم أنه لم يعد يزور الشاطئ في الأيام الأخيرة.... فصمت واضطرب، فإن عبد الموجود لم يزره في مرضه، بل هو لم يكلف نفسه سؤال رجل من عائلة البلطي!... فكيف يعلل هذا الأمر؟... وبماذا يعلله؟...

وكلما صمت الرجال من حوله في انتظار رأيه، ازداد اضطرابه وقلقه، لكنه راح يهون عليهم الأمر، ويبتسم في وجوههم متظاهرًا باللامبالاة، ويرسل المراسيل للتفاوض مع الخواجة ستاكس لشراء شبكة جديدة غير التي ضاعت منه في الحادث...

لكن الحقيقة أنه كان أشدهم حيرة، كان ضياع الشبكة بالنسبة إليه كارثة تقصم الظهر، فلم يكن عنده من المال ما يكفي لشراء شبكة جديدة... ثلاثون جنيهًا مبلغ ليس باليسير، والخواجة ستاكس لا يعرف الرحمة أو العدل، وقد طالت المفاوضات بينهما، مفاوضات قام بها المعلم صادق حينًا، والريس جابر حينًا آخر... لكنها نجحت أخيرًا، وأفلح الرجال في شراء الشبكة على أن يسدد ثمنها على أقساط. ومنذ ذلك اليوم والمعلم محمد يضع فرحته بالشبكة الجديدة تحت نار هادئة لتتمدد وتشغل الحيز الأكبر من تفكيره.

وقد حاول العجوز كثيرًا أن يؤجل الحديث عن عبد الموجود حمدان إلى أن يتضح له الصواب من الخطأ... فرغم ثراء عبد الموجود، فإنه كان يحبه، فمنذ خمسة عشر عامًا كان الرجل تابعًا من أتباع البلطية، يخرج للصيد لقاء ربع الرزق، لكنه تغير مع الأيام، ونمت ثروته - ولا يدري أحد كيف! - حتى اشترى اثنى عشر قاربًا، وأصبح لديه جيش من الرجال يعملون تحت إمرته... ورغم أن المعلم محمد كان يعلم ما يكنه له عبد الموجود من احترام عميق، فإنه وضع في اعتباره أنه رجل صلب لا يستهان به، لذلك... فما إن خرج من البيت لأول مرة في ذلك الصباح، يحمل شبكته الجديدة فوق كتفه، ويذهب إلى الشاطئ، ويرى ما كان من ثورة الطبيعة وعلو الأمواج واشتداد الرياح، حتى أيقن - في قرارة نفسه - أن الرجال سيضعون المسئولية كلها فوق كتفه، فلم يجد ما يعالج به أفكاره ومخاوفه وحيرته سوى الابتسام.



ما كاد يدلف إلى المقهى حتى اختار لنفسه مقعدًا في صدر المكان، وجذب الريس جابر مقعدًا وجلس على يمينه، وأحكم حمودة شاله الصوفي حول رأسه، ثم فرك كفيه وصفق مناديًا عليوة الجرسون، وقبع حنفي بجوار محمود وسط الحلقة التي اكتملت حول المعلم محمد... وأخذ الرجال يتصايحون في مرح مصطنع، وصيحات عليوة تتمطى وتتنغم وهو يطلب للرجال مشاربهم.. وسرعان ما انعقدت سحب الدخان في سماء المكان، وكركرت الجوزة، وعلا صوت الرشفات، وامتلأ الجو بدفء لذيذ بعث في نفوس الرجال بالثقة.

وعلـى غير انتظـار، دوت في المكان صيحة رجـل وقف عند الباب بجسـده الفـارع الطويل، ووجهه الأسـمر المسـتطيل، وشـاربه الغليظ الـذي يمتد طرفاه فـوق صدغين غائريـن، ورفع يده بالتحية إلى رأسـه قائلًا بصوت جهوري:

«صباح الخير يا رجالة!».

ثم التفت إلى المعلم محمد وصاح مرة أخرى:

«أنا سـمعت يـا معلمي أنـك قمت بالسـلامة، وحياة مقام المرسـي أبـو العبـاس مـا كنـت هنا لمـا حصـل اللـي حصل، ألـف الحمـد لله على السلامة!!».

نهض المعلم محمد لاستقبال الوافد الجديد، ووقف الرجال جميعًا لوقوفـه، وأخذوا يصافحـون الرجل في احترام مشـوب بالحيرة، وقدم المعلـم صـادق مقعده للضيـف، وصفق المعلـم محمد مناديًـا عليوة، وطلب شايًا للريس عبد الموجود حمدان.

***

سـرعان ما تجمـع الرجال حـول المجلس، وجذبـوا مقاعدهم من أطراف المقهى وكل منهم يشعر أن شيئًا لا بد سيحدث، وتلاعبت الأسئلة في الأفواه، وارتسمـت علامـات استفهـام كبيـرة فوق الوجوه.

وأحس المعلم محمد بالعيون التي أحاطت به في إلحاح تطلب منه القيام بواجبه، وأحس أكثر بثقل المسـئولية الملقاة على عاتقه... وكان بخبرتـه يعلـم نتيجـة المشـاحنة والمصادمة مـع رجل كعبـد الموجود لا يؤخذ إلا باللين والكلمة الطيبة.

دار ببصـره في الوجـوه، فوقعت عيناه على محمـود، وكان يتثاءب، فانقبض وهو يتذكر أن ولده - وإن كان قد بدّر في الحضور إلى الشاطئ - لـم يبـت ليلته في البيـت... وعربدت الخواطر في ذهنـه، ثم اضطربت واسـتكانت عندما ربت عبد الموجود على فخـذه محييًا، فرفع يده إلى صدره يرد التحية، عندما صاح رجل من وسط الجمع على غير انتظار:

«**إلا صحيح الكلام اللي بينقال ده يا معلمي؟!**».

وقـع المحظـور، ولم يعد هناك مفـر، كان واضحًـا أن الرجل يوجه حديثه لعبد الموجود، فسـاد الصمت تمامًا حتى أحس الجميع بالضيق والحـرج، خاصـة وأن عبـد الموجـود لاذ هـو الآخـر به وعلـى وجهه ابتسامة نصف نصف... على أنه دس سيجارة بين شفتيه، ونفث دخانها في عصبية، ومال على المعلم محمد وقال هامسًا:

«**حكاية إيه يا معلمي؟!**».

ضحك المعلم محمد وقال موجهًا حديثه للرجل الذي سأل:

«**طيب استنى على رزقك شوية، هو حمري جمري؟!**».

ثم ربت على كتف عبد الموجود وهو يقول في هدوء ولا مبالاة:

«**حكاية المراكب اللي بيقولوا عليها**».

«**كل شيء نصيب**».

قال عبد الموجود ذلك... وسكن كل شيء، وخفقت قلوب الرجال خفقـات عاتية، وكأنمـا عبد الموجود قـد ضاق بالعيون التـي أحاطته، والصمت الذي لف المكان، فعاد يقول مؤكدًا حديثه:

«كل شيء بأمر الله، كله بأمره!».

وعلا صوت من وسط الجمع المحتشد:

«وده اسمه كلام؟!».

برقت عينا عبد الموجود، وارتفع رأسه في الهواء في تحد كأنه تمثال من الصخر، وصوب عينيه نحو محمود البلطي - وكان هو صاحب الصوت - وصاح فيه بصبر نافذ:

«قصدك إيه يا محمود؟!».

وعاجله محمود بالرد في ثورة:

«قصدي يا بويا ان ده ما اسموش كلام، نروحوا احنا فين بعد ما تطلع المراكب دي، نجوعوا، نشحتوا؟!».

وصاح عبد الموجود في دهاء:

«كل واحد ورزقه يا بن والدي!».

وكأنما ضاق الرجال بمراوغته، فعلت الهمهمات، وقال أحدهم في غضب:

«حايبقى فين الرزق ده، إذا كانوا بيقولوا إن المراكب توسق أكثر من ثلاثين طن مرة واحدة...».

وقال رجل آخر:

«الكلام بالعقل يا رجالة، كله ينصلح بالتراضي!».

وأحس عبد الموجود بالحلقة تضيق حول عنقه، فزمجر موجهًا حديثه للمعلم محمد:

«عاجبك كده يا معلمي، عاجبك؟».

وعاد الصمت يلف المكان، وأطرق المعلم محمد مفكرًا، وأحاطته العيون في ترقب في انتظار كلمته، وعبث عبد الموجود بطرف شاربه في قلق، وعاد يقول مواجهًا زمجرة الرجال وهمهماتهم وكأنه يتعجل الموقف:

«إيش قولك يابا محمد، عاجبك الكلام ده؟!».

وأخيرًا... أخيرًا تحدث المعلم محمد، فصمت الرجال - كالعادة - وأسلموا له القيادة دون تفكير.

«ما هو ربك عرفوه بالعقل يا عبد الموجود!!».

«ودي فيها قلة عقل يا بويا؟!».

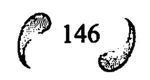
وأخذ المعلم محمد يتحسس طريقه بحذر:

«ما هو إحنا ما نعرفوش الحكاية كلها، اتكلم وإحنا نسمع!».

اعتدل عبد الموجود وقد أدرك بذكائه الشرك الذي نُصب له، وكان عليوة قد وضع كوب الشاي أمامه، فامتدت يده إليه، وأخذ يرشف منه على مهل، ثم قال في صوت ثابت:

«الحدوتة مش عايزة كلام... جاني راجل انجليزي اسمه «هوب»، وقال لي الحكاية وما فيها عاوزينك تشترك معانا في مركب صيد، مركب واحد يا معلمي، مش أسطول... الراجل قال يا عبد الموجود انت النص، وإحنا النص، والمكسب بالنص... كلام زين؟!».

وقال المعلم محمد في صبر وهو يهز رأسه:



«زين!...».

«هـو قـال لي كـده، قلت لـه يلزمكـم كام، قال خمس ألـوف، قلت ماشي... اللي ورايا واللي قدامي وحياة مقام المرسي، دفعتهم واتوكلت على الله... فيها إيه دي؟!».

ولأول مـرة يظهـر الغضب على وجه المعلم محمـد البلطي، عندما رفـع وجهه إليه، أيقن الجميع أن اللحظة الحاسـمة قـد دنت، وتوترت علـى الفور أعصاب الرجال، وتحفز البلطية... وحتى هذه اللحظة كان المعلم محمد يراوغ نفسه، ويهرب من أفكاره متعللًا بأي حجة يصادفها عقله، لكنه لم يتصور أن الأمر قد وصل إلى هذا الحد، كان يمني نفسـه بإقناع عبد الموجود بالعدول عن مشروعه، لكن كلمات الرجل وضعت حـدًّا فاصـلًا بين الظـن واليقين، كمـا أدرك أن ولده أسـلم الرجال قياد المعركة بتهوره واسترساله في الغضب، فلا مجال إذن للتردد:

«والرجالة دول يا عبد الموجود، ياكلوا منين بعد عملتك دي؟!».

«كل واحد ورزقه يابا!».

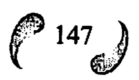
«وقتهـا حاتغطوا السـوق بالسـمك، والتاجر له اللي يسـعفه، واللي يرخص له، واللي يدي له سمكة كبيرة!».

«كل واحد وشطارته!!».

وزعق رجل وكأنما الكيل قد فاض به:

«واحنا يا ريس عبد الموجود...وولادنا؟!».

«ربنا ما ينساش حد!».



كان المعلم محمد قد أعاد سيطرته على نفسه مرة أخرى، فقال في صوت رائق هادئ، وفي لهجته رنة عتاب:

«لكن انت نسيتنا يا عبد الموجود!».

وأحس عبد الموجود أنه وقع، ولم يكن أمامه سوى سبيل واحد للفرار، فأشاح بوجهه بعيدًا عن المعلم محمد، وشوَّح بذراعه في استهانة، وقال كمن ضاق بالأمر كله:

«ما حدش بيحوش رزق حد!».

كان من الممكن أن يمر الأمر بسلام، وأن ينتهي أية نهاية لو لم يفعل عبد الموجود ذلك، غير أنه كان يعلم أن فعلة كهذه لا يمكن أن تمر، وكان له ما أراد، فما كاد يفعل ذلك حتى استشاط البلطية غضبًا، ونهض محمود من مقعده ثائرًا وهو يصيح في انفعال:

«عيب عليك تشوح في وش المعلم محمد البلطي يا عبد الموجود!».

ونهض حنفي هو الآخر متحفزًا، وتوتر الجو وتكهرب، وران الصمت فترة، انفجرت بعدها ضوضاء الرجال وهم يتحفزون لأمر خطير... وكما فعل عبد الموجود فعلته وهو واثق من نتيجتها، راح يتلقى الثورة بالأسلوب الوحيد الذي كان يعلم أنه كالماء البارد، يقلل من حرارتها إن لم يستطع إطفاءها... قال في صوت خافت وهو يخفض رأسه إلى الأرض:

«مقصديش يا ابني وحياة النبي!».

وعاد محمود إلى الصياح مرة أخرى:

«أنا مش ابنك، أنا ابن محمد البلطي!».

كان واضحًا أن محمود فقد أعصابه، ولم يكن باستطاعة أحد أن يتدخل سوى المعلم محمد نفسه، لكنه ظل صامتًا يرقب المعركة بعين الخبير، وراح عبد الموجود يسير في نفس الطريق بلا يأس، فقال في صوت ناعم:

«عيب يا محمود، دانا مربيك وشايلك على كتفي!».

وزمجر محمود غضبًا، وخطا نحوه خطوة وهو يقول في تحد:

«وابويا رباك وخلاك صياد وبني آدم!».

أيقن المعلم محمد أن عبد الموجود أفلح في الهرب كما أيقن أن ولده أسلمه - مرة أخرى - قيادة المعركة بتهوره واسترساله في الغضب، فصاح محاولًا الإمساك بطرف الحديث من جديد:

«اقعد يا واد بلاش كلام فاضي!».

لكن عبد الموجود لم يكن من الغفلة بحيث يفلت من يده خيط المبادرة، فبالرغم من جلوس محمود، إلا أنه أبى أن يُفلت تلك الفرصة الذهبية التي سلمها له، فنهض من مكانه وهو يعدل من وضع شاله الحريري الفاخر حول عنقه، وتظاهر بالغضب وهو يقول محدثًا المعلم محمد:

«آني اتشتمت في مقامك يا معلمي، معلش، برضه محمود زي اخويا الصغير... سلام عليكم!».

واندفع يشق طريقه نحو الباب غير آبه بالصيحات التي راحت تطلب منه الجلوس، وما أن استقبل الهواء البارد في الخارج، حتى ابتسم ابتسامة واسعة، وارتاحت ملامحه فوق صفحة وجهه وكأنه تخلص من

عبء ثقيل... بينما كان جو المقهى مشحونًا متوترًا، والرجال صامتين واجمين، وأخذ الصمت الكئيب يضغط على أعصابهم لحظة بعد أخرى، والكل مطرق ساهم، حتى صاح أحدهم في صوت كالعويل:

«عليه العوض ومنه العوض!».

ورفع المعلم عينيه إلى ولده في حسرة، كان يحسب حساب هروب عبد الموجود، وكان يستطيع لو أراد أن يلقنه درسًا لا ينساه، وقد حمد لولده أن حاجاه في البداية محاجاة رجل لرجل، كلمة تغني عن عشرة، واللين أفضل من القسوة، لكنه فقد أعصابه، وأعطاه الفرصة للهرب... طلب العجوز شايًا، ثم أشعل سيجارة وراح يفكر وقد أعياه الأمر... ثم انتبه من استغراقه عندما قال المعلم صادق:

«العمل إيه يا رجال؟!».

فرد أحدهم في نبرات يائسة:

«العمل؟!... العمل عمل الله يا معلمي!».

وعاد الصمت يلف المكان مع يأس عميق تسلل إلى نفوس الرجال، كانوا كمن وقعوا في مصيدة لا يجدون منها مفرًّا، فراحوا يتخبطون على غير هدى، كذلك كانت أفكارهم تتخبط في كل اتجاه، تشرق وتغرب وتضرب أخماسًا في أسداس، ثم ترتد في عجز وحيرة... وأخيرًا قال واحد منهم:

«ما هو لازم... لازم تشوفوا حل يا رجالة!».

ابتسم آخر في مرارة وهو يتساءل:

«عندك انت حل؟!».



وصاح محمود البلطي على غير انتظار:

«أنا عندي حل... نشترك...».

ثـم توقف عن الحديث عندما استدارت نحـوه كل الرءوس، ومال البعـض إلـى الأمـام، والبعـض إلـى الخلـف وراحـوا يحملقـون فيه، وانصبـت عليـه نظـرات والده الغاضبـة، وأحس بنظـرات حنفي تلهب صدغه، فتلجلج، لكنه قاوم ارتباكه وقال في اندفاع:

«نشترك كلنا ونجيبوا مركب!!».

انغرسـت نظرات الرجال في صدره كالنصـال، لمح على وجوههم خيبة أمل واستهانة أدمت فؤاده، وقال أبوه في سخرية:

«عارف المركب ثمنها كام يا معلم محمود يا بلطي؟!».

ونكس محمود رأسه، بينما استطرد أبوه في سخريته اللاذعة:

«حداك عشر ألوف تشتري بيهم مركب؟!».

تمنـى محمـود لـو انشـقت الأرض وابتلعتـه، هوت كلمـات والده البـاردة على دمائه السـاخنة فجمدتها، أحس بالمـرارة تندلع في حلقه، وضاق بكل شـيء، وخطـرت بباله كايداهم فارتجـف، وتحدث حنفي لأول مرة منذ بدأ الحديث، فجاء كلامه بردًا على قلبه، ولكن... أتشفي كلماته الجرح العميق؟ إنه لا يصلح أن يكون صيادًا... أبدًا، لا يصلح.

قال حنفي في هدوء شديد:

«محمـود معاه حق يابا محمد، يعني الحكايـة مش حاتيجي بين يوم وليلة برضه!!».

كاد المعلم أن يفقد أعصابه وينهال على ابن أخيه بالشتم عندما لمح السخرية في عيون الرجال، لكنه استطاع أن يكتم ثورته، فقد تعود في حديث حنفي منطقًا سليمًا، وعندما رفع حاجبيه دهشة، كان حنفي يستطرد وهو يواجه نظرات الرجال في جسارة وإيمان:

«قصدي نقول ان قدام عبد الموجود بالقليلة سنة على ما تيجي المركب... وفي السنة دي يحلها ألف حلال».

ابتلعت عيون الرجال ما فيها من سخرية، ثم أطلت منها حيرة ارتسمت على تقاطيع وجوههم... وقال رجل:

«قصدك إيه يا حنفي؟!».

«قصدي ان عبد الموجود كان صياد زينا بالقارب والمجداف».

وصاح حمودة كأنه غريق يطلب النجدة:

«بس عبد الموجود معاه ألوف يا حنفي، ألوف عملها في خمستاشر سنة، وعملها من كل باب، من كل حتة تجلب القرش!».

ورد حنفي وهو يميل نحو خاله:

«عملها في خمستاشر سنة يا خالي وكان بذراعه، واحنا كتير، إحنا أكثر من ستين راجل وأربعين قارب، لو كانت قلوبنا على بعضها نعملوا حاجة!».

«زي إيه... حاجة إيه يا حنفي!».

قالها الريس محمد وقد عادت إليه الطمأنينة، فاستدار حنفي نحو عمه وقال وهو يلوك الأمر في ذهنه:

«يابا الرجالة موجودين، وإيد لوحدها ما تصقفش، فكروا في حل يابا، لازم كل واحد يقول كلمته... وبعد يوم، واتنين، وثلاث أيام لازم نوصلوا لبر، ونرسي لنا على شط... والا إيه يا رجالة؟!».

كانت كلمات حنفي كالسحر، أحس كل رجل أن أمامه فرصة، ومدت كلمات حنفي أمامهم بساطًا يستطيعون السير فوقه، وعلى مهل... لذلك، فسرعان ما علت أصواتهم وتشابكت، وما أن مرت دقائق، حتى حميت المناقشة، وعاد النشاط يدب في أذهانهم، وعاد عليوة ينادي على طلباتهم، وسرى في الجو دفء وحماس... بينما غرق حنفي في التفكير...

***

كان يعلم تمامًا أن الحل ليس بالأمر اليسير، لم يكن في ذهنه فكرة محددة عما يريد، أيقظت كلمات محمود في صدره إحساسًا بالحب دفعه لأن يدافع عنها. هل كان على حق فيما قال؟... سيقضي الرجال صباحهم، وربما امتدت جلستهم إلى المساء، وهم يتناقشون ويثرثرون... في قلبه غصة، فهو يعرفهم جيدًا، تجمعهم يدفع بالطمأنينة إلى قلوبهم، وبعد ساعات سينسون الأمر كله!!... ويسلمون أمرهم لله.

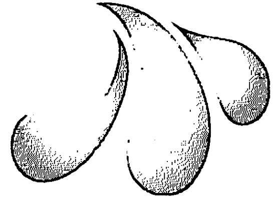
لو كان أبوه حيًا لوجد الحل في كلمة، هكذا يقولون دائمًا، لم تقف أمامه عقبة، ولم تحيره مشكلة... غير أنه يفكر ويفكر دون أن يعثر على حل، أصبح كل شيء معقدًا وكأن جدارًا أقيم أمامه فسد عليه كل مخرج، ثمة شيء في أعماقه يصيح به أن لا بد من حل، وكل مشكلة ولها حلال، ولكن مشكلته ليس لها شاطئ ترسو عليه... تقسيم الشاطئ أمر ساذج، وشراء سفينة أبعد من نجوم السماء فكلهم فقراء على باب

الله، فكيف قال ما قال... ضحكوا من محمود عندما ألقى إليهم باقتراحه، لكنهم لم يضحكوا منه عندما ردد نفس الكلام... عيب محمود أنه يفكر بقلبه لا بعقله، يمسك الحقيقة بيديه ولا يعرف ماذا يصنع بها، وإنما يعرف كيف يغنيها... وعائشة في البيت تنتظره بحديثها اللاذع، وكرامته تتمرغ على الأرض دون أن يستطيع أن ينفض عنها التراب، هل يحدث المعلم صادق؟... وماذا يقول عنه الرجال لو فعل؟... يترك المصائب لهم ويبحث عن عروس؟!... ماذا جرى لعقله، لماذا يشعر وكأنه مسئول عن مشاكل الدنيا كلها... الرجال يثرثرون ويتناقشون ولا مخرج... ما الذي كتب عليه؟!... لو حقق عبد الموجود مأربه لتشردوا جميعًا، لما وجدوا من يشتري سمكاتهم... ستقلع سفينته وتعود محملة بصيد لم تره عيونهم، سيضيع صيدهم في طوفان الرزق الذي سيغرق به عبد الموجود البلاد... هل كان على حق فيما قال؟!

أثارهم وأثار جدالهم ووقع هو في الحيرة، يحس أنه كالأعمى الذي يتخبط في طريق مزدحم، ماذا كتب عليهم جميعًا؟... حالهم ينحدر من سيئ إلى أسوأ... ورجل منهم يضع كفه في كف الغريب ليقتلهم... لا بد من حل!... لا بد من مخرج... ولكن أين؟!

هل يذهب إلى الصخرة، ويصرخ مناديًا أباه؟





الفصل السابع عشر

همست زوجة أحد الصيادين في أذن جاراتها:

«سمعتي يا ختي اللي بيقولوه؟!».

ظهر الاهتمام الشديد في عيني الجارة وهي تزيح طفلها الحابي عن حجرها، وقالت في لهفة:

«خير يا ام علي حصل إيه؟!».

مالت أم علي حتى كادت شفتاها تلاصقان أذن صاحبتها وهي تهمس:

«آل ياختي شافوا حنفي البلطي وهو طالع من المية بعد نصف الليل ومعاه جنية!!».

خبطت الجارة صدرها بكفيها، وبرقت عيناها وهي تقول في جزع:

«يا لهوي، ماهو أبوه عمل كده، وكانت آخرته معاها تحت المية!».

ولثلاثة أسابيع بطولها، لم يكن لرجال الشاطئ أو نسائه من حديث سوى حكاية حنفي... كان الحديث عن السفينة قد بدأ يفتر، وكلما مر يوم أحس الرجال أن أعناقهم محاطة بأطواق من حديد تجذبهم نحو هاوية لا قرار لها، واستولى اليأس على أغلبهم، واسودت الدنيا في

وجوههم... فرغم مناقشاتهم العديدة في المقاهـي والبيوت وحتى في الغرز، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يجـدوا حلًّا للمشكلة.

كان عبـد الموجـود حمدان قـد اختفـى تمامًا من الشـاطئ، وأعلن رجاله عن رغبته في بيع قواربه، وراحوا يقضون أيامهم متسـكعين فوق الرصيف وعلى المقاهي وفي الغرز ينثرون الحديث عن السـفينة وعما سـتجلبه لهـم مـن خيـر... وعـن أجورهـم التـي يقبضونها رغـم أنهم لا يؤدون عملًا... وتمادى بعضهم - بإيعاز من عبد الموجود - فتحدثوا عن الخطابات التي يرسلها الخواجة الإنجليزي إلى المعلم عبد الموجود، وعن توصيته له بأن يدفع أجور الرجال دون انقطاع، بل وأن يبحث عن رجال جدد ينضمون إلى طاقم السفينة.

وفجـأة... انقطـع الحديث عن عبـد الموجود وسـفينته، انقطع عندما همس أحدهم في أذن صديق له بخبر حنفي والجنية، ولم يستطع الصديق أن يحمل الخبر وحده، فنقله إلى آخر... وما أن غربت شمس ذلك اليوم، حتى أصبح الخبر محور كل كلمة تقال، وكل حديث يتصل بين الرجال.

حتـى رجـال عبـد الموجـود راحوا يشـاركون فـي الحديـث برهبة وخوف، ويسـألون صاحـب الخبر عمـا رآه... وكلما تحـدث الرجل، كلمـا انبهـر الباقون... وعلـى غير انتظـار، انفتحت أمـام الجميع طاقة الأمل، فتعلقوا بها وكأنهم في حلم.

***

حدث الأمر عندما أرسل الرجل ولده ليشتري طعامًا بعد عودته من سـهرة قضاها مع الصحاب، وكان يقطن بيتًا قريبًا من الشاطئ المهجور

بالقرب من صخرة رأس التين... وما كاد الطفل يغادر حارة السعداوي ويستقبل الشاطئ، حتى لمح شبحًا يطفو فوق سطح المياه، فظنه في البداية أحد تلك الصناديق التي يقذفها الموج بين الحين والحين إثر عاصفة هبت فابتلعت أمواجها إحدى السفن، كانت هذه الصناديق عادة ما تكون محملة بالبضائع التي يجد رجال الساحل فيها ما يدخل على حياتهم البهجة لأيام قد تطول أو تقصر حسب قيمة ما فيها... اندفع الطفل نحو الشاطئ تخب قدماه في الرمال الممتدة على طول الساحل وهو يمني نفسه بصيد ثمين، وأخذ يقترب حتى لاح له الشبح عن قرب، فرآه على هيئة إنسان، وجف حلقه في البداية وانتابه الذعر ظنًّا منه أنه لا بد وأن يكون أحد ملوك الجان الذين يسكنون قاع البحر، لكنه سرعان ما استطاع أن يميز - في ضوء القمر - وجه حنفي وهو يغادر المياه، فتوقف مصعوقًا للحظة، واستولى عليه الذعر، وتذكر كل ما حكي له عن آل البلطي وسرهم الذي يكتمونه في صدورهم، ويوقفونه على أفراد عائلتهم... فاستدار في حذر كالمخدر وهو يقتلع قدميه من الرمال في صعوبة، وأخذ يجرجر ساقيه وجسده يرتجف ارتجافًا شديدًا متصلًا، وشبح حنفي عند الشاطئ يملأ صدره بالذعر... وما أن ابتعد قليلًا حتى أطلق ساقيه للريح، وظل يجري بكل قواه حابسًا في صدره صرخة هائلة أطلقها عندما خطا الخطوة الأولى داخل الحارة، ثم تبعها بصرخات متلاحقة سمعها أبوه، فاندفع الرجل إلى الخارج متلقيًا بين ذراعيه جسد ولده المتهاوي، وعبثًا حاول في البداية أن يفهم منه شيئًا، كان الطفل يرتجف وقد غاض لونه وابيضت عيناه من فرط الرعب، على أنه استطاع بعد لحظات أن ينطق اسم حنفي البلطي، ثم الجنية، ثم الشاطئ... وراح يرتجف من جديد.

وكان هذا كافيًا لبعث الأوهام في ذهن الأب، فسرعان ما حمل ولده إلى الداخل، ونهر زوجته الباكية المولولة، وانطلق إلى الشاطئ وصدره يفور بما فيه من أحاسيس.

كان حديث الجن - حتى ذلك الحين - بالنسبة إليه غامضًا ومثيرًا في ذات الوقت، لا يخوض فيه إلا بمقدار، ولا يتحدث عنه إلا بكلمات لا تغني ولا تفصح عن رأي... لكنه ما كاد يستقبل الشاطئ في تلك الليلة، حتى لمح شبح حنفي منتصبًا وسط الرياح الباردة، عاريًا كما ولدته أمه، تتساقط المياه من جسده المبتل، وجهته البحر العريض، وظهره إلى الشاطئ... كان حنفي جامدًا لا يتحرك وكأنه مشدود إلى المياه بقوة سحرية، وبدا للرجل طويلًا أكثر من المعتاد، عريض الكتفين كأنه عشرة رجال، شامخ الرأس كإله قوي قادر على إخضاع ذلك الموج العاتي لذراعيه الهائلتين!

راح الرجل يتحسس طريقه وسط هياكل القوارب القديمة الملقاة على طول الشاطئ حتى أصبح بينه وبين حنفي خطوات معدودة، وهبت موجة عاتية وزحفت مياهها فوق الرمال حتى لامست قدمي حنفي الثابتتين وغطتهما دون أن يتحرك هذا أو يظهر عليه أنه شعر بها... كان يحملق في الظلام البعيد كأنه يرقب أحدًا لا يزال هناك... وسرى الخوف والذعر فملأ قلب الرجل، وظل مكانه جامدًا لا يتحرك حتى ارتدى حنفي ملابسه على مهل، ولف رأسه الكبير بلاسته، ثم استدار ومضى في طريقه إلى المدينة... وظل شبحه العملاق منتصبًا أمام عيني الرجل حتى اختفى... ووقتها فقط، استطاع صاحبنا أن يتحرك من مكانه، وأن يمضي إلى بيته.

ووصل الخبر إلى كل أذن... وازداد الهمس بين الرجال وهم يكتمون الأمر عن أفراد البلطي، وراحت مخيلاتهم تنسج وتبني وتشيد، حتى استقر اليقين في أذهان الجميع أن حنفي لا بد سيصنع شيئًا... لا بد أن يحرض زوجته وأولاده الساكنين في قاع البحر على إغراق السفينة قبل وصولها، أو يطلب منهم أن يثيروا عاصفة هوجاء تودي بالسفينة ومن فيها... وساعة بعد ساعة، ويومًا بعد يوم، أخذ الحديث يتشعب وتولد له أطراف جديدة... ومن رجل إلى رجل كانت الحادثة تزداد غموضًا، وتضاف إليها أحداث!!

تذكر أحدهم أن حنفي صرخ في ذلك اليوم الذي هرب فيه عبد الموجود من المقهى الزجاجي أن هناك حلًّا، وعندما سأله الرجال عن الحل لم يفصح... ثم تذكروا جميعًا ما حدث بعد ذلك، فقد نهض حنفي بصحبة محمود واختفيا طيلة النهار حتى ظهرا في صبيحة اليوم التالي... وقال أحدهم وهو يخبط ركبته بكفيه:

«أيوه آني فاكر كويس، محمود راح البوظة بعد نصف الليل، وحنفي ما كنش موجود... يبقى كان فين يا رجالة؟!».

ومضوا جميعًا في الحديث متحمسين متشبثين بذلك الأمل الذي بدا لهم وسط كتل اليأس كمصباح باهر في ليلة حالكة السواد.

واجتاحت الشاطئ موجة من الأمل أغرقت النفوس، فبات الرجال - مؤمنين بظنهم أشد الإيمان - ينتظرون حلول الفرج بين يوم وآخر، وقد ران على نفوسهم رضا لم يعهدوه فيها منذ أيام طويلة.

وأصيبوا بعد ذلك باستسلام شديد، وتبدل حالهم من اليأس إلى الأمل، وزحفت الابتسامات على وجوههم من جديد، وتغيرت نظراتهم لآل البلطي... حتى تحياتهم لحنفي ولرجال الزقاق راحوا يلقونها عليهم باحترام شديد، ويقابلون عجب حنفي ودهشته، بنظرة من يعلم بواطن الأمور، ويقولون لبعضهم في همس: «ما هو مش عاوز حد يعرف أحسن تأذيه زي ما أذت أبوه!»... حتى عندما صاح حنفي في بعض الرجال ذات مساء:

«أنتم نايمين يا رجالة؟!... إيش قولكم في اللي حاصل ده، الأيام بتجري وأنتم ولا هنا، آني سمعت إن عبد الموجود قال إن المركب واصل بعد شهر!».

يومها صاح فيه أحدهم:

«البركة فيك يا معلم حنفي!».

وكانت هذه المرة الأولى التي يقرن اسمه بلقب معلم من رجل في مثل سنه أو يزيد، وقد بهت حنفي وأخذ يحملق في الرجل مغيظًا، ثم صاح في ضيق:

«قصدك إيه يابن أبويا، إيد لوحدها ما تصقفش، لازم تتفقوا على حاجة!».

وصاح آخر في مرح وحماس:

«كلنا رجالتك يابو الأحناف!».

ونفد صبر حنفي، وكست ملامحه سحابة يأس شديد، فأشاح عنهم وانتحى جانبًا وقد غرق في الهم، وعاد الرجال - مطمئنين - إلى

ما كانوا فيه وقد ازداد استعذابهم لإلقاء المسئولية على كتفي حنفي، بل على غيب كانوا يقدسونه...

حتى رجال الزقاق سرت إليهم العدوى، وأصبحوا وكأنهم نسوا كل شيء، وعادت الحياة تسير سيرتها الأولى وكأن شيئًا لم يحدث.

وكلما بدا حنفي مطرقًا صامتًا قليل الكلام، كلما أيقنوا أنه لا بد يدبر الأمر أو ينتظر التنفيذ، وأنهم سيصبحون ذات يوم ليجدوا المشكلة قد حلت وكأنهم كانوا يحلمون لا أكثر... كيف لا، ومحمود البلطي عاد سيرته ولم يعد يزور الشاطئ إلا لمامًا، ولم يعد يناقش كما كان يفعل في البداية...

ثم حدث أن اقترب أحد الرجال من حنفي وسأله باسمًا:

«**ما لك يا حنفي كفى الله الشر؟!**».

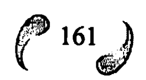
ويقسم الذين حضروا تلك الواقعة، أن حنفي لم يفعل شيئًا سوى أنه رفع عينيه إلى الرجل، ثم انطلق منهما ضوء باهر!

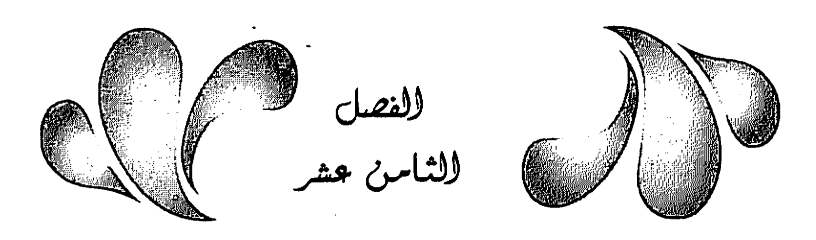
ولم يذكروا، بل لم يتذكروا أن حنفي نهض صارخًا:

«**ملعون أبوكم، أنتوا عاوزين تاكلوها بالساهل؟!**».

وأن الرجل لم يثر لثورة حنفي، بل ضحك وهو يتغامز مع أصحابه غمزات من يعرف السر ويطلع على الغيب!

وقد ضاق حنفي يومها بكل هذا، فنهض لاعنًا ومضى في سبيله، وما كاد يبتعد خطوات، حتى علت ضحكاتهم وصكت أذنيه، فاتجه إلى البوظة لا يلوي على شيء!





الفصل الثامن عشر

رغم كل شيء كانت زوبة سعيدة، فلم يعد هناك شك في أن حنفي يحبها، ومنذ الليلة التي حملها فيها إلى الحجرة الخالية، والدنيا قد اكتست في نظرها بأزهى ألوانها، وتعطرت بأجمل روائحها... أجمل أوقاتها تلك التي تختلس فيها اللحظات في حجرتها الجديدة، تتسلل إليها في الليل أو النهار، تقبع فيها وحيدة إلا من خيالها المعربد الثائر. تعيش لحظات وهي نشوانة بذكرياتها، تدفن رأسها بين كفيها، وتقبل يديها وكأنها تقبل حنفي، تمتص أصابعها وتلوك لسانها وكأنها تستحلب ريقه العذب... تنسمت في تلك الليلة أنفاسه، فلم تفارقها رائحته رغم مرور الأيام الطويلة، راحت تتجول في فراغ الحجرة بعينيها، وترتب بخيالها أثاث بيتها الجديد، وتحلم... وفي الحلم كانت تعيش أعذب أمانيها وأحلاها... انقشع الحجاب، وهوى الحائط الذي كان يفصلها عنه... من في الدنيا يفوقها سعادة؟!... كيف يحزن الناس كل هذا الحزن من أجل سفينة صيد جديدة؟!... لماذا يعيشون وكأنهم في مأتم؟!... لولا أنباء تلك السفينة لتم زواجها... توقفت الحياة على الشاطئ وفي الزقاق وكأن الناس ينتظرون قيام الساعة، ولو كان الأمر بيدها لقتلت عبد الموجود حمدان وأراحت الرجال منه، ولو كان بيدها لقطعت لسان عائشة وارتاحت من غمزها ولمزها... ورغم كل ما حدث، رغم كلمات حنفي، ورغم أنها كشفت سرها وعرفت ما بينها وبين السيد أفندي، فهي

لـم تكف، تزحف، تزحـف كالأفعى متلصصة إلى كل مـكان توجد فيه، وتنفـث فـي الهـواء كلماتهـا كالسـم، وتلاحقهـا بالتلميح أينمـا ذهبت، وترسل الخوف الرهيب إلى قلبها بلا رحمة، ولا تكف عن تعذيبها...

منـذ أيام وقـف حنفي - وكأنه أحـس بعذابها - وسـط الفناء وألقى عليهـا التحية بصوت رنان ثابت وكأنه يعلن حبـه للجميع، مد إليها يده مبتسـمًا - لكن ابتسـامته كانت ما تزال منكسـرة! - والتقط يدها وراح ينظـر في عينيهـا... ومـرت لحظة سـقطت بعدها كلمات عائشـة فوق رأسـها كالمطارق... تسـللت كعادتها إلى الفناء، ووقفـت تنظر إليهما تبتسم في خبث وهي قائلة:

«انت لسة هنا يا أخويا... آني بنحسبك اتوكلت!».

وارتجفـت هي، حاولـت الفرار... لكن حنفي تشـبث بيدها، ورفع عينيه نحو أخته، وقال في صوت باتر:

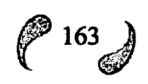
«فيه حاجة يا عيشة؟!».

واندفعـت عائشـة نحو الحمـام وهي تتعثر، وغمغمـت بكلمات لم يسـمعها أحدهمـا، وابتسـم حنفـي فـي انتصـار ولا مبـالاة، وضغطت أصابعـه على يدها فـي قوة، وتألمـت، لكنها اسـتعذبت الألـم فتأوهت مبتسمة وهي تقول في دلال:

«إيدي يا سي حنفي!».

خفف قبضته ثم قال:

«آني مش ناسي يا زوبة، لما الحال يتعدل حانكلم أبويا صادق وربنا عالم اللي في قلبي يا بت خالتي!».



ابتسمت ولم ترد، زغردت الدماء في عروقها، والتهبت وجنتاها، فخفضت عينيها في خجل حقيقي، وعاد صوته يدغدغ أذنيها:

«إيش قولك يا زوبة؟».

«القول قولك يا ابن خالتي، آني خدامتك».

جذبها نحوه في جسارة وهو يقول مداعبًا:

«وبعدها معاكي يا بت؟!».

«وبعدها معاك انت... يوه!».

الغريب أنها هي التي جذبت يدها من يده، وأنها هي التي فرت وتركته، ولو طاوعت قلبها لعادت إليه وأعادت كفها إلى كفه... لماذا نتدلل ونحن نعيش أجمل أوقات عمرنا، ألا يضيّع دلالنا لحظات من الممكن أن نسعد بها؟!... أكانت تدعوه عندما فرت إلى حجرتها؟!!... لا تدري، وإن كانت تدري عن يقين أنه لن يتبعها... الحياة بين عينيه عمر لا تعرف النساء حلاوته... كيف تفكر وكيف تحسب وبم تشعر؟!... توقف كل شيء حولها، وأحست أنها تسبح في الفضاء وقد انتشت روحها بالسعادة... ولذة عربيدة تسللت إلى جسدها... وما عاد يهمها أحد، حتى عائشة... فعندما قابلتها في الفناء بعد ذلك واجهت عينيها في جسارة... وانكسرت عينا عائشة في ذلك اليوم... فلم تتركها، بل لاحقتها بعد لحظات وسألتها بابتسامة عابثة:

«ما لك يا عيشة، آني شايفاكي اليومين دول ياختي زي اللي في قلبك حاجة عاوزه تقوليها؟!».

رفعت عائشة إليها عينين يطل منهما غضب وثورة، ورسمت على شفتيها ابتسامة صفراء، وتقدمت منها خطوة ثم قالت متحدية:

«ولا حاجة يا بت خالتي... بس يعني...».

«بس يعني إيه؟!».

«يعني...».

«عيشة... عيب عليك العمايل دي!».

«ومش عيب عليكي تخطفي أخويا مني؟!».

ارتجف قلب زوبة، ثم هدأ... وصعدت من أعماقها ابتسامة هانئة ارتسمت على وجهها... ليكن، لتقل ما تقول، لتتركها لنارها تأكلها... ولكن، لماذا تتركها؟!... لماذا لا تنتقم؟!

الدنيا جميلة رغم أنفها وأنف عبد الموجود حمدان، السيد البلطي سيصبح حماها عن قريب، كثيرًا ما تساءلت، كيف ينجب أعظم الرجال هذه الأفعى!؟

«هو آني جريت وراه يا عيشة، ابن خالتي وبيسلم عليَّ، وانتي مالك؟».

«أخويا!».

«اسم الله، آهو عندك، حوشيه لو قدرت وابعدي عني آني!».

من أين جاءت بكل هذه السخرية، كيف نطقت هذه الكلمات؟ بدا لها الأمر غريبًا، وإن كان الأغرب هي تلك النشوة التي كانت تحسها، شعرت برغبة شديدة في الضحك، بل في الغناء، وفي الذهاب إلى عبد الموجود حمدان، وصفعه، والبصق في وجهه... تركتها عائشة دون كلمة، ووقفت

وحدها وسط الفناء يرتجف جسدها بألف انفعال... وبلا وعي تبعت عائشة، دلفت إلى الحجرة وألقت التحية على خالتها وجلست بجوارها وراحت تهز ساقيها وتبتسم في استهانة... ثم أخذت تحدث خالتها، راحت تثرثر وتثرثر وتضحك وتتحدث... حتى سألتها عائشة:

«ما لك مفرفشة النهار ده قوي كده يا زوبة؟!».

فردت في جسارة:

«يوه... ربنا يديم المعروف يا عيشة!».

«اللي واكل عقلك...».

«يتهنى به... ربنا يهنيه ويسعده، اسم الله!».

وضحكت خالتها وهي تقول:

«والله انتوا فايقين يا بنات».

ولا تدري كيف مضى ذلك اليوم، مضى دون أن تنطفئ النار التي اشتعلت فجأة في قلبها... ومرت أيام، وازداد اضطرام النار وكأن أحداث الحياة لهيب يزيد من حرارة حبها ودمائها!... هموم جاءت فوضعت فوق الهموم، شح الصيد أسبوعًا، وعاود حمودة المرض، ولم يتغير في الحياة شيء، السيد أفندي يروح ويجيء، يعود حمودة وأم حنفي ويجالس الرجال ويسهر في الزقاق ويتهامس مع عائشة، فلماذا تقتل حبها، وتحمل الهم وحدها؟..

تلصصت ذات يوم لتسمع همس عائشة مع السيد أفندي فاصطدمت قدمها بكوز ملقى على الأرض، فافترقا قبل أن تسمع شيئًا، وجارتها عائشة وفي عينيها غضب هائل:

«زوبة، آني بيني وبينك حاجة يا بت خالتي؟!».

كانت تصرخ كالمجنونة وكأنها فقدت وعيها... وقالت زوبة بصوت هادئ:

«ليه يا عيشة، هو آني عملت لك حاجة يا ختي؟!».

«لأ ما عملتيش، الكوز هو اللي عمل... تكونيش فاكرة كل الناس زيك يا أم عين قارحة؟!».

«عيشة!».

«اسم الله عليكي ياختي، ما لك، خوفتيني!».

«عيشة؟!».

نفد صبرها واندلعت نار العذاب فحرقت فؤادها، وراحت تنظر لعائشة وهي تتأود وتصيح عليها غضبًا كالطوفان، كانت تصرخ وتسب وتلعن، فلماذا تصمت، وما الذي يسكتها؟... فلتسبها وتلعنها هي الأخرى، فمم تخاف؟... لا بد إذن أن في الأمر شيئًا، وإلا، فما الذي أثار غضبها؟... لتهوي بكل غيظها على صدغ عائشة، ولتتحمل صفعة كفها، ولتشد شعرها، ولتتحمل شد شعرها... نحيفة كالصرصار لكنها في قوة غول... صراخها يعلو فيملأ الزقاق... وللصراخ لذة، وللدموع لذة، وللعراك نشوة!... انقلبت الدنيا ولفظت البيوت سكانها وامتلأ الفناء بالنساء، عطيات وزغدانة وحسنية وأم محمود و... وكلهن كلهن تجمعن، والدماء تسيل من أنفها كما تسيل من فم عائشة... أعذب أمانيها أن تقبل الآن ابنة خالتها وتبكي على صدرها وتقول لها: **«إحنا لبعض يا ختي!»** ولكن... كيف تفعل وصرخات عائشة تدوي، فلتدو

صرخاتها هي الأخرى... يسألونها عن السبب، فهل تقول؟... لتصرخ فيهم فما أعظم القوة وألذها:

«اسألوها أم لسان طويل قليلة الأدب!».

ويسألون عائشة، فتبكي في استكانة وذلة وهي تقول:

«الله يسامحك يا زوبة، كده برضه؟!».

وازداد اضطرام النار في قلب زوبة، كادت تجن وهي ترى الشرك الذي نصبته لها عائشة بذكائها ودهائها... قالت إحداهن:

«ليه كده يا زوبة!... دي عيشة حتى منكسرة!».

وصرخت زوبة... صرخت، صرخت:

«اسألوها... اسألوها... سيبوني في حاااالي!».

وعادت تصرخ، وتبكي، وتمزق شعرها، وتلطم خديها... وتسمع خالتها وهي تقول بصوتها الثاقب:

«انتي مجنونة يا بت، إيه اللي جرى لك؟!».

وتصيح بكل صوتها:

«آني يا خالتي، آني مجنونة؟!».

«أمال إيه عمايلك دي... صوتك طالع لآخر الزقاق، والله عال، الكبير والصغير بيتفرج النهارده على نسوان البلطية، أصل الزقاق ما بقاش فيه راجل يحكمه ويخزم نسوانه... لو كان السيد موجود مكانتش واحدة منكم قدرت تطلع صوتها، انت فين يا سيد... انت فين تيجي تشوووف... فينك يا زين الرجالة، يا حسرتي!».

كان الصمت قد ساد عندما تحدثت العجوز، وراح صوتها الرفيع يتموج في جو الفناء، وانهمرت دموعها فجأة فغطت وجنتيها... ومصمصت النسوة، وجمدت زوبة وهي تحملق في العيون التي راحت تتهمها، وقالت عطيات بصوت خفيض:

«مش عيب عليكم يا بنات، هوه إحنا ناقصين، كفاية اللي بيجرى على الشط، كفاية يا اولاد ما حصل في الأيام السودة دي!».

وقالت زغدانة وصوتها مختنق بالبكاء:

«والنبي أبويا ما بيشوف النوم، كل ما تيجي إخبارية ان المركب واصلة، يقعد والهم راكبه.... ولا حد حاسس، حتى الرجالة بقت حالتهم حال ولا كأنهم هنا!».

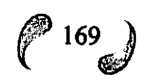
ولم تعد زوبة تطيق أكثر من ذلك، جالت بعينيها الدامعتين في الوجوه، ثم صرخت فيهن فجأة وكأنها تصد عن نفسها شرًّا داهمًا:

«ما كلنا كده يا اخواتي، اسألوها مالها ومالي... هو أنا اللي عليَّ الحق؟!».

ثم سكتت فجأة... واندفعت نحو حجرتها وأغلقتها عليها.

لتنطبق السماء على الأرض، ليُغرق البحر العالم بأمواجه، لتصعد الجنيات والشياطين من أعماق المياه ليحرقوا كل حي، ليحدث ما يحدث فما عادت تطيق، أصواتهن تصل إليها وهي تعلم أنهن لن يصمتن حتى تغرب الشمس ويأتي الرجال، وساعتها لن تستطيع إحداهن أن تفتح فمها بكلمة...

لمن تعيش؟!... ولم تعيش؟... ومن سيحميها؟!



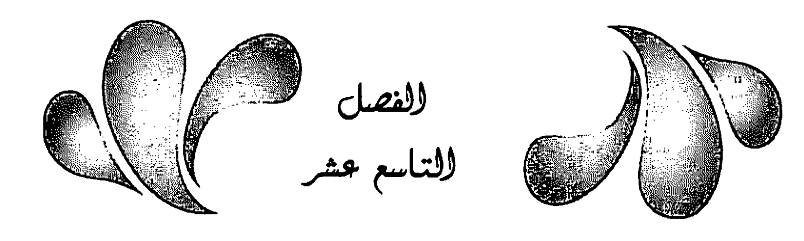
طوال عمرها وهي تشعر أنها كالمنبوذة، أب إذا جاءها فلكي يأكل وينام، وإذا غادرها فلكي يعمل أو يجلس على المقهى، وأم ماتت وهي طفلة، وقلبها تعلق برجل، ولا يزال الطريق إليه طويلًا!...

كم عانت وكم تعذبت... فهل شعر بها أحد؟

طرقة على الباب... لماذا لا يتركونها؟

طرقة أخرى... هي تعلم ما سيحدث، سيدخلن عليها ويجذبنها لتصالح عائشة... وسيتم الصلح، وستقبل رأسها، وستقبل عائشة رأسها، وستبكيان لدقائق، ثم تبتسمان، وستصفو نفسها لا محالة... فكيف يكره القلب الذي ذاق حلاوة الحب؟... والله ما كرهت في حياتها شقيقة حنفي... طرقة ثالثة ونداء ملح... لتسلم أمرها إلى الله.

«مين؟!».



الفصل
التاسع عشر

كانت طيور النورس البيضاء تملأ سماء الميناء مرفرفة صائحة في ضجة ومرح، وراح المعلم محمد البلطي يرقبها في انقضاضها السريع على صفحة المياه، وارتفاعها عنه، وتجمعها حول صيد طاف على السطح الذي أخذ يتلاعب بعد سكون، وافتراقها في الهواء وهي تصفق بأجنحتها طربًا... وما لبث العجوز أن استدار بوجهه نحو حنفي القابع عند مقدمة القارب، وقال وهو يقبض على طرفي المجدافين:

«هو محمود سهر امبارح في بوظة شلوفة؟».

صمت حنفي ولم يرد، وتشاغل بجذب حبال الشبكة، وكأنما كان في صمته الجواب الكافي، فلم يهتم العجوز بسماع الرد، وعاد يسرح مرة أخرى مراقبًا طيور النورس وهي تتزايد في ضجة وصخب... وما لبث أن قال:

«النورس هاجم قوي، والنوة نازلة يا حنفي... حاتقعد لها بالقليلة أسبوع!».

كان تجمع النورس هو علامة هبوب الرياح، ما أن يتكاثر عدده، ويملأ صراخه الفضاء، حتى يعرف أهل الشاطئ فيه نذيرًا بعاصفة قوية... وكان حنفي يرقب الطيور في صمت، ولا يجد لديه ما يقوله لعمه... ذلك أن ذهنه كان مشغولًا بما فيه من أفكار متلاطمة سوداء،

يشعر بأيامه تمر ثقيلة، وبالرغم من تناثر الإشاعات في الأيام السابقة عما حدث لعبد الموجود حمدان، ورغم ازدياد سريانها بين الرجال الذين تلقفوها في شوق وكأنها المعجزة... إلا أنه - ولا يدري السبب - لم يستطع تصديقها بل رفضها في حيرة، وكلما ظهر الاطمئنان على وجوه الرجال، وكلما عادت حياتهم إلى ما كانت فيه من طمأنينة كلما أحس بالقلق والتوتر... وازداد شعوره بالوحشة والوحدة، وأضيف إلى همومه هم جديد، لماذا... لماذا يجد نفسه دائمًا في ناحية، والرجال في ناحية أخرى؟

يقولون إن الإنجليزي الذي دفع له عبد الموجود نقوده لم يكن سوى نصاب، فقد مرت الشهور دون أن يظهر للسفينة أثر، بل إن عبد الموجود عاد يرسل رجاله بقواربهم العديدة التي لم يجد لها مشتريًا... قالوا هذا وصدقوه واطمأنوا إليه، وراح حنفي يسألهم في قلق: «**هل حلت المشكلة بهذا؟!**»... كان يرى كل شيء كما هو، ما زالت الأسماك في جوف المياه لا تصل إليها شباكهم، وما زال الرجال - رغم ما جمعهم يومًا - متفرقين، من يملك قرشًا يضعه بين أسنانه في حرص ويخفيه عن الناس، ومن يملك الفقر لا يسأل ولا يبحث بل يستسلم لحياته في وداعة!...

ثمة خاطر خطر له ذات مرة وهو في طريقه إلى البيت، ماذا لو جاءت السفينة فجأة؟... ماذا لو أصبح الصبح فوجدوها راسية على الرصيف شامخة كغول يهدد حياتهم وبيوتهم؟... كيف يصحون من الحلم وقتها؟... وإذا فرض وكانت الإشاعة حقيقية، ماذا يحدث إذا أشرق فجر آخر ووجدوا رجلًا قد اشترى سفينة أخرى؟!

قـال ذلـك للرجـال بالأمـس فقــط، قاله لهـم وتحمـل في صمت وحـزن مـا انهـال عليـه مـن صيحـات واسـتنكار صبـوه مـن أفواههم بلا حسـاب، وطلبوا منـه بعد ذلك أن يوحد الله ويصلـي على النبي... وأكـدوا لـه أن الخبـر صحيـح، ثـم أخـذوا يتغامـزون فيما بينهـم تلك الغمـزات التـي كانـت تثيـره؟... مـاذا وراءهـا؟... عبثًـا، عبثًـا حاول أن يعرف!

استدار نحو عمه، وانتزع لسانه من مكمنه وهو يسأله:

«إيش قولك يا عمي في حكاية عبد الموجود؟».

بوغـت العجـوز بسـؤال ابن أخيـه، فنظر فـي وجهـه متفحصًا، كان تفكيـره في تلك اللحظة بعيدًا كل البعـد عما كان يدور في ذهن حنفي، لكنه سرعان ما تمالك وقال مبتسمًا:

«إيش قولك انت يا حنفي؟».

قال حنفي في قوة وصرامة:

«آني مانيش مصدق ان الحكاية طلعت نصب، هو ده معقول يابا؟... دي الحكاية فيها محامي وشهود وشهر عقاري!».

«هم الانجليز يعرفوا ربنا يا حنفي... آهم بيقولوا...».

قاطعه حنفي فاقد الصبر:

«بيقولوا إيه؟...».

«الواد رومة رجع يقول ان المركب واصل خلاص، حلف لي الصبح انـه شـاف التلغراف بعينـه، لكني آني مش مصـدق، هو ابـن القديمة ده

يعـرف يفك الخط عربي لمـا حايفكه انجليزي... ثـم إن عبد الموجود نزل قواربه المية تاني!».

«وورومة شاف عبد الموجود فين؟».

«آل امبـارح قابلـه عند ابو العبـاس، راح منادي عليه وقال له اسـتعد يا رومة المركب خلاص واصل!».

«آني كنت عارف يابا... عارف وحياة النبي!».

«انت بتصدق؟!».

قالهـا المعلم محمد في حماس جـذب إليه عيني حنفي، فضيق هذا ما بين حاجبيه في غضب، وقال متحمسًا:

«ليـه ما صدقـش يابا محمد ليـه؟... مين اللي قـال ان المركب مش حاتوصـل، دول كل يـوم يطلعـوا بحاجة جديدة لاجل مـا يدوخونا في دوامة ما تبطلش دوران!».

ثم اعتدل في جلسته وكأنه عثر على برهان وعاد يقول:

«شـوف يابا... من مدة عبد الموجود سـاب الرجالة في القهوة وجرى بعيـد، بعـت رجالته يدللـوا على اللي يشـتري قواربه، وهـوب لقيناه كأنه فص ملح وداب، بعد شوية سمعنا إن المركب مش واصل وان الانجليزي نصـاب، واللي قالـوا كده رجالة عبـد الموجود برضـه، وبعدين القوارب نزلـت الميـه... وبعدهـا عبـد الموجـود بلسـانه قـال لرومـة ان المركب واصل... فين الحق يابا، حد يعرف في ده كله فين راسه من رجليه، وحياة النبي ده مغرز لاجل ما يشحطط الرجالة يمين وشمال، يوم كده ويوم كده علشان يتلهوا عنه ويسيبوه يدبر تدابيره... مش كده والا إيه؟!... هيه؟».

«ما هو يا واد بيقولوا ان الـ....».

«بيقولوا بيقولوا، ما توحد الله يا بويا، هم مين اللي بيقولوا؟!».

«جرى إيه يا واد... الرجالة!».

«والرجالة إيش عرفهم، عرفوا منين، ما تصلوا على النبي امال».

«أمـا غريبة، انـت جرى لعقلك حاجة يا واد، هـي المركب مخوفاك كده؟!».

قال المعلم محمد ذلك وهو يبتسـم في إشـفاق، كان وجه حنفي قد اكتسـى بلـون الغضب الأحمر، وراحت يداه تجذبان حبال الشـبكة في عصبية وتوتر، ولكن الابتسـامة لم تفعل شيئًا حيال ذلك الغضب الذي استولى على حنفي، فعاد يقول:

«آنـي يابـا بنبص لقدام، لبعيـد يا معلمي لبعيد، لـو حصلت الحكاية دي، لو جت المركب، حانعملوا إيه؟ إيه اللي حانعملوا؟!».

«فيه رب اسمه الكريم!».

«هي السما حاتشتي سمك يا بويا؟».

«انت حاتكفر يا واد، قول لا إله إلا الله!».

«لا إله إلا الله محمد رسول الله، بس كل شيء بالعقل يا ناس».

«قصدك إيه؟!».

ولـم يـرد حنفي... وسـاد الصمت بينهمـا، وحلقت فوق رأسـيهما طيـور النورس الصارخة، وهبت نسـمة من الشـمال، فالتفتا دون وعي إلـى حيـث كان الأفق ملبدًا بالسـحب السـوداء، فاستدارا برأسـيهما،



والتقـت عيونهما للحظـة خاطفة، نهضا بعدها للعمل في نشـاط ودون توقـف، قبضت أكفهمـا على الحبال، وراحا يجذبان الشـبكة في حنكة ودرايـة، وذابت حـرارة الحديث فـي اهتمامهمـا بالصيـد... بينما كان الرجال في القوارب الأخرى المتناثرة في الميناء يفعلون نفس الشيء... وبدأت الصيحات تملأ الجو... «يا متولي!».... «يا بو العباس»، وصاح المعلـم محمـد صيحته، وصـاح حنفي صيحتـه... وجـذب كل منهما أفكاره بعيدًا عن الآخر.

ومـا أن ظهرت الشـباك على سـطح المياه محملة بالأسـماك، حتى تكاثـر طير النورس، وملأ الجو من حولهما ضجيجًا وصياحًا، وراحت أفراده تنقض على الأسـماك الصغيرة التي كانت تقفز من ثقوب الشبكة محاولة الفرار من مصيرها...

كان ارتيـاح حنفي يعـادل ضيقه لانقطاع الحديث، ما إن سـأله عمه عما يقصده حتى وقع في نفس الحيرة... حقًّا، ما الذي يقصده؟... وما الذي يبغيه؟... إلى أين يذهبون؟... وماذا يفعلون؟... ماذا يفعلون؟... هل ينتهي بهم الأمر إلى العمل عند عبد الموجود حمدان؟... أم ينتهي بهم إلى النزوح من الشـاطئ الذي عاصر أعظـم أيامهم؟.. كيف ينتهي بهـم الحـال؟... أيذهبون إلى رشـيد؟... أم يمضون فـي طريقهم نحو الشـرق وفي الشـاطئ متسـع للجميع؟... لكن لكل بقعة ناسها وأهلها وصيادوهـا... والطـرق جميعًا مسـدودة، عدا طريقًا واحـدًا!... طريقًا يظهـر له خـلال سـحابات الظـلام المتكثفة حـول عقله، لكنـه لا يرى نهايتـه، أو إلـى أين يؤدي!... هل تسـتطيع قوارب الرجـال مجتمعة أن تقف في وجه الطغيان الجديد؟!..

أسـراب القـوارب تعـود محملة برزقهـا، لكنها غدًا لم تجد سـمكة تحيي شـباكها... وأصـوات الرجال تـدوي بالغناء والمـرح، لكنها لن تعرف سـوى الصمت بعـد أيام... لمـاذا فعل عبد الموجـود ذلك؟... لمـاذا يقعـون هـم دون سـائر الصياديـن تحـت وطـأة ذلـك الغـول المخيـف؟... يقولون إن السـفينة تسـتطيع إغراق البر كله بالأسـماك، تسـتطيع أن تغطي البلاد كلها حتى أسـوان، والسـفينة تجيء بسفينتين، تمامًـا كمـا يجلـب القـارب قاربيـن لـو توفـر الـرزق وحنـت الميـاه على الشباك.

ذراعاه تجدفان في الطريق إلى الرصيف، وسـحب العاصفة تتجمع وتزحف لتغرق الشـاطئ بعد دقائق بالأمطار، ولتحيل سطح البحر إلى جحيم... عمه يجلس في اسـترخاء ورضاء وهـو يدخن، الرجال كلهم مطمئنون إلا هو!.... فلماذا؟!!... لماذا؟!...

«إيش قولك يا حنفي؟».

«خير يابا».

«في محمود».

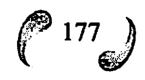
«ما له يابا؟».

«بنقول يعني مش حايفلح وينصلح حاله إلا لما نجوزوه!».

وتوقفـت يـدا حنفي عـن التجديـف، ونظر إلـى عمه غيـر مصدق، الرجل يبتسم وكأن الدنيا خلت من الهموم.... ما الذي حدث لعقولهم؟

«إيش قولك يابن خويا؟».

«القول قولك يا عمي!».



ولـو استطاع لصـرخ فيـه: «انت مجنـون يا عمـي؟... إحنـا في إيه والا فـي إيـه؟...»، لكنـه لا يسـتطيع، لا يسـتطيع أن يقول ذلـك لعمه، ولا يسـتطيع أن يقنـع الرجال بوجهـة نظره، ولا يسـتطيع أن يتزوج!... و... ولا يسـتطيع شـيئًا... محمـود لن يوافـق على الـزواج، كانت ليلة الأمس عرسًـا زف فيه محمود إلى كايداهم، رقص له الرجال وغنوا... لم ينقص سوى المأذون ليصبح كل شيء في تمام أصوله، طالما عجب لمحمـود ولحبـه... قال له ابن عمه ذات مسـاء إنه لـم يقـرب كايداهم، وأنه لن يقربها، كاد يضحك منه ويتهمه بالجنون أو الخنوثة لولا كلماته الحزينـة، كلمـات التصقت بقلبه ولـم تفارقه حتـى الآن... «ما أخبيش عليك يا حنفي، الولية رايداني... لكن نرجع ونقول إيه آخرتها، حاناكل في نفس الماعون اللي أكل فيه كل واحد؟!».

«بنقول نجوزوه ونخلصوا يمكن ينكن في حضن مراته!».

«هو محمود ما له يابا، ما هو زين في وسط الرجالة».

«وهـو الجواز وحش يا واد، طب واللـه العظيم لولا إني عارف انك مستني أختك لجوزتك من سنين، دانا أبوك يا واد!».

«كله بأمر الله يابا محمد... بكرة تتعدل!».

«تتعدل قوي... إنما إيش قولك؟ ما تشور عليَّ يا حنفي!!».

«والله يابا... ...».

وصمـت... وكان لا بـد أن يصمـت. فمـاذا يقـول؟... صرخـات النورس تدوي في أذنيه... وفكرة تضيء في ذهنه! تسطع بنورها الوهاج فيبتسـم دون أن يعي... أيكون الأمر خاصًا بعائشـة؟... أيتزوج محمود

عائشــة؟... ولم لا؟... بل لا بد أن الأمر كذلك، وإلا، فلمَ يبتسم عمه، ولـمَ تحـدث عن زواج عائشـة؟... قلبه ينبض في مـرح وكأنهم يزفونه الليلـة إلى زوبة!... الرصيـف يقترب، والعرق يتصبـب من جبينه رغم البـرد القـارس، ودمـاؤه تركـض فـي عروقـه فـي نشـوة... لمـاذا فكر عبـد الموجـود فـي شـراء السـفينة؟ ولمـاذا لا يكـون الأمـر كمـا قال الرجال؟!... نعم، لا بد أن الإنجليز نصبوا على عبد الموجود وخطفوا منـه نقوده. لماذا يحمل الهم وحده، ليتـرك العنان لأجراس الفرح تدق في قلبه كما تدق في قلوب الكثيرين...

«بوجي يا حنفي. على إيدك».

«على الله يابا».

وصـلا إلى الرصيف، قفز مـن مكانه خفيفًا، وحمل الأسـماك فوق كتفـه وكأن بـه قـوة عشـرة رجـال... سـيعود عمـه للحديـث وهما في طريقهمـا إلى الحلقة، الوقت لا يزال مبكـرًا فلن يذهب إلى المقهى... محمود يتزوج عائشـة، ويتزوج هو زوبـة... ولكن، أيرضى محمود أن يتـرك كايداهـم؟... وهل يقبـل هو أن يـزوج أخته من رجـل تعلق قلبه بامـرأة فاحشـة؟... أيلقـي بشـقيقته إلى أحضـان رجل يحلـم بمومس ولو كان هذا الرجل هو محمود؟!...

الطريق طويل، وبشائر المطر راحت تتساقط رذاذًا يغسل وجه الدنيا من حوله... وعمه يسـير بجواره مطرقًا، ولو طلب عائشـة فلن يستطيع أن يرفـض، لـن يسـتطيع أن يقـول لا... وسـترحب أمه، وتفـرح أخته، وربما يذعن محمود... سـتلتقي عيونهما فماذا يقـول وقتها؟.... حتى الفرح لا بد له من نغمة حزينة؟!

«تعرف يا واد يا حنفي، آني خايف نموت قبل ما نفرح بيكم ونشوف ولادكم!».

«ربنا يديك طولة العمر يابا... بكرة تتعدل».

«قلت في عقل بالي نجوزوه قبل ما نموت... ومن يوم حكاية الغرق دي يا حنفي وآني قلبي بياكلني... الواد سارح على حل شعره!».

«ما توحد الله يابا أمال...».

«بنقول لك يا واد من يوم حكاية الغرق وآني بنفكر في الموضوع، هو لولا ابن المتعوس عبد الموجود كنت جوزته من أيامها، حكاية جت زي القضا، لا كنا عارفين نعيش ولا ناكلو لقمة براحة... ما هو كارنا كده يا حنفي، يوم البحر يديلك، وعشرة ياخد منك... انت يا واد شغلاك حكاية المركب دي... لكن افرض أنها جت، حانعملوا إيه يعني، نموتوه؟... كلام فاضي، نقعدوا على الرصيف ونعيطوا؟... نبقى نسوان، كل واحد برزقه يا حنفي، ومحدش بيموت من الجوع!».

«ده صحيح يابا، إنما لازم نشوفوا حل قبل ما تطبل على دماغنا!».

«نشوفوا حل؟... ربنا موجود! ده هم فوق الهموم يا واد، ولما تيجي المركب يبقى يحلها حلال... إمبارح بالليل قلت في عقل بالي، إزاي نوقفوا عيشنا على حاجة في علم الغيب؟... ويعني لو جت المركب حايحصل إيه؟... كل ما فيها إننا نشدوا حيلنا حبتين، سعر الرزق حاينزل في السوق، ده صحيح، بدال ما ترمي طرحة ارمي اتنين... وبدال اتنين ارمي تلاتة!... كده والا لأ؟!».

«لأ... ما هو ده مش حل!».

«شـفت يابن السـيد، دماغك ناشـفة زي أبوك... وآهو الكلام سرح بينا، وبدال ما نتكلموا في الفرح، تجرنا بت الأبالسـة سيرة المركب دي للغم، سيبها لربك يعدلها، قلت إيه بقى في جواز محمود؟!».

«انت شورته يابا؟!».

«هو آني أعمى يابن السيد، ما آني عارف حكاية الولية اللي مرافقها!».

«ولية؟!».

«وقفـت ليـه؟... مد بينـا، هو آني نايـم على عنية يـا واد، آني عارف كل حاجـة مـن زمان، قلت آهة شـاب زي بقية الشـبان، جـدع زي بقية الجدعـان، وبعد ما كنت نسـيت حكايـة الجواز، قلت نصبر شـوية لما تتعدل وينصلح حاله، رجعت نفكر فيها تاني!».

«برضه لازمن تشوره!».

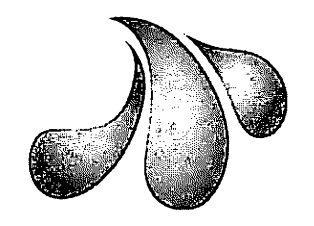
«هو يقدر يقول لأ... دآني...».

«وحّد الله يابا، ده جواز مش لعب!».

«ما هو اللي آني ناعي همه يا حنفي، خايف ندي له بت الناس يمرمط بيها الأرض... ده اللي آني ناعي همه!...».

وسـاد بينهمـا الصمت من جديـد... ولاحت لهما حلقة الأسـماك من بعيد... كان الرجال متناثرين أمامها وحولها، يروحون ويجيئون في نشاط، وأصواتهـم تصـل إليهما صارخة بالأسـعار... وهطلـت الأمطار فأغرقت ملابسـهما، وأسـرعا في سـيرهما... حتـى إذا اقتربا منها، بـرز حمودة من الداخل يحمل شـبكته على كتفه، وقفص أسـماكه الخالي فـي يده... وما كادا يصلان إليه، حتى همس في أذن حنفي بلهجة سريعة حاسمة:

«عاوزك بعد ما تخلص يا حنفي!».



الفصل العشرون



رفـع حنفي السـلال الفارغة تحت إبطه، واسـتدار نحـو الباب وقد بـدت على وجهه علامات اهتمام شـديد... كان حمـودة لا يزال مكانه منـذ تركـه حنفـي، ومـا إن رأى ابـن أخته مقبـلًا عليه حتـى تنفس ملء صـدره... وسـرعان ما لحق بهمـا المعلم محمد وهو يـدس النقود في جيب صديريته، وما إن حاذاهما حتى انطلق الجميع مغادرين الحلقة.

❊❊❊

ساروا بحذاء الشاطئ متجهين إلى الغرب فلاحت لهم مقهى سلومة من بعيد، واشـتد هبوب الرياح وزمجرتها، وعادت السـماء تمطر رذاذًا خفيفًـا بعدمـا توقف المطر... عن يمينهم كان البحـر يلد أمواجًا عاتية، كانـت تزحـف في جبروت، ثـم ترتمي على الشـاطئ الرملـي وتذوب فيـه... ومـا هي إلا لحظـات حتى اقتربـوا من المقهـى، فتوقف المعلم محمد عن المسير، واستدار نحوهما وهو يقول:

«على فين... مش رايحين القهوة؟!».

فقال حمودة على الفور:

«لا والله يابا محمد، حانروح نشتري دوا من الميدان!».

فقال المعلم محمد بصوت خفيض، موجهًا حديثه إلى حنفي:



«عاوز فلوس يا حنفي؟!».

«لأ يابا... معايا».

«ما تاخدلك قرشين يا واد...».

«معايا كفايتي يابا، لما نعوز نطلب!».

«سلام عليكم».

قالها المعلم محمد وهو يستدير ليعبر الطريق، ومضى الرجلان في طريقهما بلا كلمة... حتى قال حنفي فجأة:

«خير يا خالي؟».

«خير يا حنفي... خير إن شاء الله».

لاح لهما الشاطئ المهجور مربد السطح ثائر الأمواج مصطخب المياه، وعند نهايته كانت صخرة رأس التين بلونها الداكن، تتلقى نهش الأمواج في صلابة وجبروت، وسرعان ما غرق حنفي فيما كان يغرق فيه كلما لاح لنظره هذا الشاطئ، أحس في قلبه برهبة لم يستطع تفسيرها، خطف نظرة من وجه خاله الذي كان يسير بجواره منكس الرأس مستسلمًا لأفكاره، وقد بانت على ملامحه علامات الهم... لاك حنفي في ذهنه كل احتمال، وتردى في الحيرة كعادته، لكن عينيه سرعان ما برقتا، وتوقفت كل أفكاره عند ذلك الخاطر... ترى، هل يبغي حمودة الرحيل؟!

«على فين يا حنفي؟!».

كان حنفي كعادته يَجِدّ في السير نحو الصخرة الشامخة، لكنه انتبه على سؤال خاله، فابتسم في وهن وتبع حمودة الذي كان يعبر الطريق

إلى حارة السعداوي، ومن ثم راحا يسيران من حارة إلى الزقاق، ومن زقاق إلى آخر دون أن ينطق أحدهما بكلمة، وكأنه يخشى الحديث... وراح حنفي يتساءل وقد استحوذ عليه القلق، سيثور الرجال في الزقاق، وستطول المناقشات والأخذ والرد، وليس هناك سوى حل واحد، فالعقل يقول لحمودة، ارحل، ولكن القلب يتشبث به في استماتة غير قادر على فراقه... فأيهما يتبع؟!

كانت المقهى التي دلفا إليها مكتظة بالرجال، أغلقت أبوابها ونوافذها، فعبق الجو بالدخان وبخار الشاي والينسون، وارتفعت طرقعات أوراق اللعب وهي تصفع المناضد في حماس مختلطة بصيحات استحسان، أو صرخات لاعنة، وضحكات مرحة ونكات بذيئة!

اتجها إلى أحد الأركان، وألقى حنفي بسلاله الفارغة تحت قدميه، بينما دسَّ حمودة سلته الوحيدة تحت المنضدة، ثم أخرج صندوق سجائره ودسَّ إحداها بين شفتيه... ونادى حنفي الجرسون، وطلب الشاي، ثم التفت إلى خاله وقال كأنه يزيح عبئًا ثقيلًا ناءت به كتفاه:

«خير يا خالي، خير إن شاء الله؟!».

«أيوه يا حنفي... كنت عاوز نقول....».

وتوقف حمودة عن الحديث وزفر في ضيق وهو يخبط ركبته ببطن يده، وراحت عينا حنفي ترقبانه في حنان، فقد كان يعلم مقدار ما يعانيه خاله، ومقدار ما سيعانيه في المستقبل، على أنه أحس رغمًا عنه بالراحة تغمر كيانه أن فكر حمودة في الرحيل، وحتى تلك اللحظة لم يكن

موقتًا من الأمر، لكنه شيء كالإلهام كان يلح عليه، سيرحل حمودة ولا شك، سيرحل ويترك الزقاق إلى مكان جاف الهواء يشفي علته... وتشاغل حمودة بسيجارته بينما غاص حنفي في تفكيره متسائلًا: لماذا يتردد حمودة في الإفصاح عما يريد؟... سيقف الجميع في وجهه، وسينصره هو... سيهبون صارخين لاعنين، فكيف يفارق فرد من عائلة البلطي زقاقها؟!... ووجد نفسه يبتسم في سخرية... فما جدوى الحياة والموت يتهددها بين لحظة وأخرى؟!

لماذا لا يفتح الطريق أمام خاله... مسكين حمودة...

«كنت عاوز نقول يا حنفي، إيش قولك في حالي؟».

أفصح يا خال فما عاد هناك وقت للتردد، أقدم يا خال فما عاد في صدرك متسع للتراجع، أتسألني عن حالك؟!... وجهك أصفر، وعيناك غائرتان، وصدغاك شاحبان، ورقبتك نحيلة... لماذا تسألني وحشرجة صدرك يسمعها جيراننا في الزقاق المجاور؟!

«إيش قولك يا حنفي؟... سكت ليه».

«حانقول إيه يا خالي، حانقول إيه بس».

«إيش قولك في حالي؟!».

«حالك؟... اسأل صدرك يا خالي، اسأل السيد أفندي، اسأل الحكيم وأنت تعرف حالك!».

تهلل وجه حمودة وبرقت عيناه، وأخذ يحملق في وجه حنفي كأنه يراه لأول مرة، رفع كوب الشاي إلى شفتيه ورشف منه في تلذذ... إلى أي مدى يشبه حنفي أباه؟... إلى أي حد يذهل؟!... نفس الوجه، نفس

العينيـن الثاقبتيـن، نفـس الأنف الكبيـر ذي الطاقتين الواسـعتين، نفس الشـفتين الغليظتين والشارب الكث، حتى الذقن العريضة المستوية في أسفل الوجه وكأنها قاعدة بناء شامخ!... ليس حنفي أكبر الرجال عمرًا، ولا أرفعهم مقامًا، لكنه أقرب الجميع إلى قلوب الجميع... إنه صامت فـي حنـان ينتظر حديثه، وسـيلقي بين يديه بما في نفسـه، يكاد يوقن أن السـيد تـرك فـي ولـده سـرًّا لا يعرفه أحـد... تـرى، هل حـدس حنفي ما يجول بخاطره؟

«ما هو علشان كده يا حنفي كنت بنقول...».

«عاوز ترحل يا خالي؟!».

كأنـه أزاح عـن صدره عبئًا ثقيـلًا، ليتنفس في حريـة إذن، وليجذب نفسًا من السيجارة، وليرشف رشفة من الشاي، فقد اجتاز الخطر.

«أيوة يا حنفي، العيال يا ابن اختي، خلاص آني مانيش قادر!».

«والزقاق؟!».

«صحتـي ضاعت يا حنفي، كل يوم والتانـي أروح في إيديكم، إيش قولك؟».

«على بركة الله يا خالي!».

«يعني أنت معايا؟...».

«ما باليد حيلة... بس...».

«بـس إيه يا حنفـي، العين بصيـرة واليد قصيرة، آخر مـرة جاني فيها الدور السـيد أفندي اشترى الدوا من جيبه، حرام يا ناس داني ما بننزلش

الميـة إلا بالعافيـة، القرشـين اللـي حيلتي خـلاص، راحوا علـى الدوا، هـو آنـي غريب على الزقاق يا حنفي؟ داني جيته وآني ابن تسـع سـنين، والمرحـوم أبـوك كان هو أبويـا وأخويا، وأنت عـارف إزاي جه الزقاق وإزاي عمـل العيلـة، عشـنا كلنـا في حجـاه، ولحـم أكتافنا مـن خيره، وسـيرته لازم نحفظهـا ونصونهـا آي نعم، لكن العمل إيـه؟... هيه؟... العمل إيه يا حنفي؟».

كان حمـودة يتحـدث ويتحـدث وهـو يرتجـف من الانفعـال، راح يصب بين يدي حنفي كل ما يريد قوله، واختنق صوته وغص حلقه ولم يكف عن الحديث:

«العمـل إيه دلوقت؟... أبـص للعيال وهم مهزولـون قلبي ينقبض، مـش قادر يا بـن أختي نسـتنى، ما يهونش علـيَّ نموت ونسـيبهم، لازم نرحل، لازم يا حنفي!».

كانـت ملامـح حنفـي تنطـق بالألـم الدفيـن، اغرورقت عينـا خاله بالدموع فانتفض قلبه بالأسى، رسم على شفتيه ابتسامة وقال في هدوء:

«ونويت على فين إن شاء الله؟».

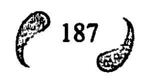
«حاننزل مشوار مصر، ونجس النبض هناك، ندور وربك يعدلها!».

«حاتشتغل إيه في مصر، هو فيه صيد هناك؟».

«في النيل يا حنفي، لكن آني مش حانشتغل صياد!».

تقلصـت ملامـح حنفي فجـأة، واعتـدل فـي مكانـه، وراح يحملق في خاله:

«أمال حاتعمل إيه يا خالي؟!».



«آني فكرت كتير يا حنفي، ورسيت لي على بر».

«خير...».

«حانفتح دكانة سمك، نشتغل سماك!».

«سماك؟!».

قالها حنفي وذهنه ينتفض بالانفعال... وعاد حمودة يقول:

«أيوة يا بن أختي، بقى صلي بينا على النبي!».

ولأول مرة منذ زمن طويل كان حنفي يُصغي لحديث ما بكل جوارحه، كان قلبه يضطرب اضطرابًا شديدًا، لاح له الفرج عن بعد وكأنه طريق الخلاص، خاله يتحدث ويشرح ويحكي... هذا هو الحل!... كيف لم يفكر فيه؟... بل كيف لم يعثر عليه؟... إذا باع حمودة قاربه وشبكته وافتتح محلًّا للأسماك لن يجوعوا... يصيدون صيدهم، ويحملونه إلى القطار بدلًا من الحلقة يبيع خاله في القاهرة رزقهم فيُرزقون ويرزقونه... ليفعل عبد الموجود ما بدا له، ليأتي بسفينتين أو ثلاث فلسوف يفعلون ذلك مهما طال الزمن، ولو تجمع الرجال بقواربهم وشباكهم واتفقوا لا استطاع حمودة بيع أسماكهم بأسعار معتدلة... خاله يتحدث عن ثلاجة كبيرة معروضة للبيع، ما أحلى حديثك يا خال، لولا الملامة لقبلتك ورقصت وطربت، سيزداد الرزق ولن تتحكم فينا سوق الحلقة ولا أسعار تجارها... حقيقة هذه أم حلم؟!... هذا... هذا وحده هو الحل.

«معايا يا حنفي؟!».

«معاك يا خالي... معاك، قول، معاك قوي!».



«دكانـة زي مـا قلت لك على قد الحال، فـي حتة لا هي كده ولا هي كـده، يعنـي بين البينيـن، نحط فيهـا التلاجـة، وتبعتوا لي السـمك أول بـأول، يـوم بيـوم، وبدال ما نشـتري مـن الغريـب، إنتو أهلي، والعيشـة تبقى معدن!».

كيف حملت كل هذا في صدرك دون أن تبوح به، إنه يا خال ما كنت أبحث عنه طوال الشهور الماضية، ولكن اسمع فقد تفتحت لعينيَّ طاقة الحياة:

«عاوز نقول كلمة يا خالي!».

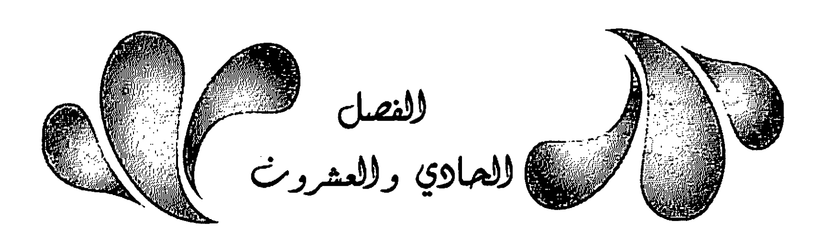
«خير يا حنفي!».

«عبـد الموجود مـش حايقدر يئذينا بعد كده، الـرزق يوصل لك في نفـس اليوم، نشـوفوا مواعيد القطـارات، ونرتب أمورنـا أول بأول، ولو وافـق الرجالـة على كده، قصدي الرجالة كلهم يـا خالي، تبقى انحلت، يبيـع عبـد الموجود مطرح ما هـو عايز، في مصر مش حايقدر يسـعف، المركـب بتغيب بدل اليوم عشـرة في عرض البحـر، والقارب على الله ساعة بساعة، اليوم بيومه... فاهمني يا خالي؟!».

«قصدك إيه يا حنفي؟».

«بقى صلي بينا على النبي!».

«ألف صلا على الحبيب!!».



الفصل الحادي والعشرون

فتـح محمود عينيه، وأجال بصره فـي الحجرة، فارتد إليه وعيه على الفور، ونهض متثاقلًا وهو يتثاءب ويتمطى.

كان الظلام يسـود الحجرة، رغم تسـرب بصيص من ضوء النهار من فرجـة النافـذة المواجهـة للفـراش، التفـت إلـى يسـارها فـرأى مـكان «كايداهم» شاغرًا، أجال بصره في الحجرة ولمح على الكنبة بقايا سهرة الأمـس... صنـدوق سـجائر، قطـع ملونة من الـورق لا بد أنهـا لا تزال تحمل رائحة المخدر، الجوزة قائمة عند قاعدة الشباك، المجمرة متربعة وسـط الحجرة وقد خمدت نارها، لاسته ملقاة في إهمال، وحذاؤه عند الدولاب... و... وراح ذهنه يسـترجع أحـداث الليلة الماضية، فلاحت لـه مـن خلال بقايا ضباب أزرق ما زال عالقًا بحواسـه شـاحبة مختلطة، أحس بدوار، وسعل... ثم ارتكن إلى الوسادة وأغمض عينيه من جديد.

ترى... أين ينتهي به المطاف؟!

تقلَّب في مكانه ودثَّر نفسـه بالغطاء، ثم دفن رأسـه في الوسادة وهو يتثـاءب، انتظر أن تدلـف كايداهم من الباب، لكن اللحظات مرت وهو وحيـد، سـمع همسًـا في الخـارج، لكنـه لم يفسـره، ولم يبـال... طال انتظـاره فنهض مائلًا بجسـده نحـو الكنبة والتقط صندوق السـجائر... أشـعل سيجارة ونفث دخانها، وسـعل. تنبه وقتها أنه لم يخرج للصيد،

وهز كتفيه في استهانة، لا بد أن يغضب أبوه... تصاعدت من فمه وأنفه سحب الدخان فعاد يلقي برأسه إلى الوسادة.

ماذا بعد... ماذا بعد يا كايداهم؟!

***

أذاقته بالأمس من فنون الحب ما لم يحلم به، قدمت له جسدها وروحها وعبثت وضحكت ورقصت وبكت وتمرغت على صدره وسقته من خمر لم يذق ألذ منها. طلع عليه النهار حنونًا كحنو قبلاتهما في آخر الليل... هل يصدق؟!... هل تملك المرأة مثل هذه الكنوز؟... ماذا قالت له، وماذا قال لها؟!... زفوهما بالأمس في البوظة وغنوا ورقصوا ورقصت هي له وحده، غنى وغنى وغنى ولم يكف عن الغناء حتى دفعوه إلى صدرها... كيف بدأ الأمر، وكيف انتهى؟... فقد المعلم جمعة بالأمس وقاره، بكى وهو يغني ودمعت عيناه وقال والدموع تنزلق على وجنتيه:

«نفسي نفرح بيك يا محمود!».

كأنه والد يناجي ولده، سمع ذات يوم أن للمعلم جمعة ابنًا قتله الإنجليز في هوجة سعد، أذهله بكاء الرجل كما أذهل الجميع ولم يستطع أحد أن يسأل عن السبب... تركوه يرقص ويصفق ويغني ويعب من البوظة أكوازًا وراء أكواز... تحول المكان إلى جمرة ملتهبة من الحياة والسعادة، امتلأت البوظة بالرجال واختنق جوها بالدخان، قلبه يحن إلى «كايداهم» وهو غارق في أحضانها، لماذا تأخرت وماذا تفعل في الخارج؟... ما الذي قاله من أشعار بالأمس؟... لا يذكر، وإن كان

موقنًا أن المعلم جمعة سيردد شعره اليوم لتحيته... فجأة صاحوا في الطبال والزمار أن يعزفا لحن الزفاف، ضحكت «كايداهم» حتى كادت تسقط من الضحك، ثم أطلقت زغرودة ألهبت المشاعر وأدارت الرءوس.

صاح رجل:

«عاوزين عريس!».

وصرخ آخر:

«آني نفسي نتجوز!».

رد عليه ثالث:

«تتجوز مين يابن القديمة؟».

فقال الرجل وهو يتمايل مترنحًا:

«أمك يابن أم جلمبو!!».

وضج المكان بالضحك...

انتهت السيجارة، فليشعل غيرها... أخذت الذكريات تسلل من ظلام ذهنه في تسلسل... نفسه تصفو وتشف حتى ليكاد يمسك بأصابعه حبه الكامن في صدره، الحياة حلوة، أجمل لحظاتها تلك التي نلقي فيها بأنفسنا في خضم صخبها وضجيجها ونارها لتلهبنا وتصقل مشاعرنا فنقول الشعر، عندما زغردت «كايداهم» مرة أخرى، جذبه المعلم جمعة من يده وألقى به على صدرها، احتضنته وهي تقول بحنان:

«اسم الله عليك!».

كاد يتشبث بها، ويدفن رأسه بين نهديها، ويبكي!... لولا أن غنى الرجال مع اللحن المعزوف: «اتمخطري يا حلوة يا زينة!»، ضجة وصراخ وغناء، لهيب تندلع ألسنته في النفوس فتحيل الحياة في نظر السعداء إلى جنة حمراء، لأول مرة يرى الرجال وجه «كايداهم» وقد كسته طبقة كثيفة من الحزن، نظر إليها من خلال أبخرة البوظة التي كانت تغلي في جوفه، رآها كالدامعة... همس في أذنها فجاء صوته وكأنه آت من أعماق المحيط:

«ما لك يا «كايداهم»؟!».

قبضت بأصابعها على ذراعه، وأنشبت أظافرها في صديريته، وعضت على شفتها السفلى، وتقلص وجهها، فهمس في حنان:

«ما لك يا «كايداهم»؟!».

«ولا حاجة يا محمود، ولا حاجة... روَّحني!».

اعتصر الحنان قلبه، تطلب منه أن يذهب بها إلى البيت، ليس غريبًا أن يذهب معها، لكن الغريب أن يذهب بها وهي التي تذهب بكل الرجال... ريح الطريق قوية باردة، والأصوات تصل إليهما من البوظة صاخبة... وهما وحيدان كل منهما متشبث بالآخر، يعبران شارع السبع بنات، وتغوص أقدامهما في طين الزقاق الصاعد إلى حيث يربض حي النساء، السكون يشمل الكون، تمزقه بين الحين والحين ضحكة فاجرة، أو صوت فاحش... رجل يترنح ويلقي بنفسه في طريقهما فيزيحه بذراعه، ويمضيان صامتين في الظلام يسود الحجرة، والبرودة جمدت كل شيء فيها، ونور المصباح الذي أضاءته «كايداهم» شاحب كوجهها.

«ما لك يا «كايداهم»؟!».

جلست أمامه فوق الكنبة، ونظرت إليه طويلًا ثم ابتسمت قائلة:

«معاك سيجارة؟».

مد لها يده بالسيجارة فأشعلتها، ثم سهمت ببصرها، وعادت تنظر إليه متفحصة، وكأنها تبحث في وجهه عن شيء...

«تحششن يا محمود؟».

صمت ولم يرد... نهضت وسارت إلى الدولاب، وراحت وجاءت وهي تعد الجوزة والمجمرة وتنفخ في النار وهو ساهم ينتظر عودتها، لم يكن يفكر في شيء بعينه، ولم يكن يعرف كيف يفكر... كان يعلم أن الليلة ستنتهي ككل ليلة، سيلقي كل منهما بجسده بجوار الآخر، ستقبل يده ويقبل وجنتها. ستدفن رأسها في صدره ثم ينامان!... يظن الرجال أنه نالها كما نالوها واحدًا بعد الآخر، لا يدري السبب فيما ينتابه من ضيق كلما فكر في هذا الموضوع، لو أرادها لما رفضت، هو موقن من ذلك، لكنه حرمها على نفسه كمعبود مقدس منذ تلك الليلة... لماذا وهي عملة متداولة في كل يد؟... شعرها تهدل على كتفيها، ودماؤها صعدت لتصبغ وجنتيها، والنار ملتهبة تحت أقدامها... راح يحملق فيها وهو يتساءل في دهشة: «أهذه هي «كايداهم»؟!»... جرت عيناه فوق بشرتها ثم استقرتا فوق أنفها، فوجده دقيقًا مستويًا ذا فتحتين رشيقتين، العجيب أنه اكتشف جهله بملامحها!... شفتاها مكتنزتان مستويتان في امتلاء، منطبقتان في ليونة، أراحت كل شفة نفسها على صدر الأخرى في تعب... حول عينيها سواد يعطيهما جلالًا أخاذًا، ذقنها مدببة أنيقة

صغيرة، رقبتها مستديرة ممتلئة، وشعرها فاحم كسواد الليل، يحيط بوجهها كإطار يحيط بصورة رائعة الحسن... إذن، إذن فهذه هي «كايداهم»... حبيبة القلب، وملهمته، وباعثة الحياة في حياته!

أصابعها تعد الجوزة في حنكة، أصابع مستطيلة مكسوة بطبقة من اللحم كأنها الندى في رقته، وذراعاها كقالبي السكر في استدارتهما وحلاوتهما، وصدرها ممتلئ متهدل بعض الشيء وبطنها عالية، يتموج فوقها الفستان اللامع تحت ضوء المصباح فيأخذ بصره، أصابع قدميها طويلة الأظافر تخضبها الحناء... لماذا لا تحني «كايداهم» يديها... لا يدري، ولا يهمه أن يدري!

إذن... فهذه هي كايداهم؟

هل هو سكران؟!

«**بتفكر في إيه يا محمود؟!**».

أفاق على تغريدها وهي تمد له يدها بالجوزة، نظر إليها ثم قال:

«**كان مالك الليلة يا «كايداهم»؟**».

قدمت له طرف الغاب فدسه بين شفتيه وراح يجذب أنفاسًا شرهة، ثم نفث سحابات الدخان فغطت وجهها، دست طرف الغاب بين شفتيها، فتساءل في مرح: «**أليست الجوزة أسعد منه حالًا؟!**». وابتسم، ثم ضحك.

«**بتضحك ليه يا محمود؟**».

امتدت ضحكته من أعماقه كأنها حبل طويل اختزنه طويلًا، حاول أن يتوقف فلم يستطع، رآها تحملق فيه فازداد ضحكه حتى استلقى

على ظهره ودمعت عيناه، ما الذي حدث له، لكنه تمالك نفسه بصعوبة، ومسح دموعه وهو يقول:

«مش عاوزة تقولي لي كان ما لك الليلة يا «كايداهم»؟...».

نظرت إليه بكل عينيها، ثم قالت متعثرة، كأنها عذراء:

«ما سألتنيش ليه يا محمود؟».

«على إيه؟....».

«الرجالة فاكرين إنك رفيقي!».

«عارف...».

قالها في اقتضاب ومرارة، وأحس كأنه جرح، وكأن كبرياءه أهينت... قد نؤمن في قرارة أنفسنا بقيم نخجل من التصريح بها حتى أمام أحب الناس إلينا، رضي بنصيبه منها ولم يحاول أن يتعداه، لكن عذابه كان كبيرًا، ونظرات الرجال من حوله تلقي به في أتون ملتهب بالضيق والحيرة والعذاب... ترى ماذا يقولون لو عرفوا الحقيقة؟.... وهل سيعرفونها ذات يوم؟...

«فاكر يا محمود أول ليلة جيتها هنا؟».

سؤال غريب... هل نسيتها هي؟ هل نسيت حرفًا مما قالاه في تلك الليلة... أيكون شاذًا بين الرجال دون أن يدري، هل لعب المخدر برأسه؟ كلا، ولكن... لكنه يخجل من الاعتراف أمامها بما صبر عليه طوال تلك الأيام.

«فاكر... عاوزة تقولي إيه؟».

«عارف آني حرمت نفسي عليك ليه؟».



وضعت يدها - بقسوة - فوق موطن الجرح فكاد يصرخ من الألم رغم إيمانه العميق أن ما تقوله هو الحق، إلا أن الغضب يثور في صدره كالبركان، لقد رضي أن تحرم عليه نفسها، لكنه حرم عليها نفسه هو الآخر!... أليس هذا صحيحًا؟... أم هي بلاهة محب يشمخ برأسه؟!.... قال بنبرات صارمة:

«عاوزة تقولي إيه؟!».

«زعلت يا محمود؟!».

«اتكلمي!!».

«ما لك يا صاحبي؟!».

هل هو يحبها حقًّا؟... أم هو وهم يعيش فيه؟... وهل هي تحبه؟... وإذا كان كل هذا صحيحًا، ليذهب الحب إلى الجحيم، فكيف يسمح لعاهرة أن تُحرِّم نفسها عليه؟... لا كان الحب ولا كانت الدنيا لو صبر على ذلك ساعة أخرى.

«اسمعي يا بت، آني لو حبيت حاجة حاناخدها بمزاجي، وكل ده كان بكيفي، آني اللي عاوز كده، فاهمة؟!».

«محمود...».

«حافظي على ملافظك، حرمتي نفسك على راجل يا «كايداهم»، كل شيء كان برضايا، آه، برضايا ومزاجي!».

منظر الخوف على وجهها يمزق قلبه، لكن رجولته في الميزان، فليستمر...

«محمــود، إنت ســكران واللا مســطول؟... وهو آنــي نحوش عنك حاجة؟».

«إوعي تفتكري كده!».

أشارت إلى الفحم المتوهج في الموقد وقالت بصوت مختنق:

«ينحــرق عضمــي زي الفحمــة دي مــا كان قصــدي، حتــى أنــت يا محمود!».

دموعهــا تريــح أعصابــه وترطــب قلبه، كيف قــال ما قــال؟... لماذا يجرحها وكان قد أتى ليمسح الحزن عن نفسها؟... لماذا يفضل الرجل رجولته على حياته؟...

«كفاية عياط بقى!».

«حتى أنت يا محمود؟».

«عينيك دمعت ليه في البوظة؟».

«صعبت عليَّ نفسي!».

«إزاي؟!».

لــو كان للألــم معنى لكان ما ارتســم على وجــه «كايداهم» في تلك اللحظــة، حديثه باتر وكلماته مقتضبــة وكأنه إله يحدث عبدًا من عبيده، خيــر لقلبه المضطرب أن يلقي عن لســانه ذلك الجفــاف وأن يمد إليها ذراعيــه ويضمهــا إلى صــدره، رغبة حارقــة تدفعه لأن يحطــم ضلوعها فوق ضلوعه، لهيب يندفع من أعماقه فيحرق شفتيه بلوعة ضارية.

«دول كانوا بيزفونا يا محمود!».

«ودي فيها إيه؟!...».

«وهي اللي زيي لها الزفة يابن الناس؟!».

رغم رغبته الحارقة في اجترار ذكراه، فإن الأحداث اختفت في طوفان السعادة التي أغرقت قلبه، بكاؤها بالأمس لن ينساه، وضحكها بعد ذلك لن يسلوه، أبدًا، وسيطلب منها كل يوم أن تضحك كما ضحكت، أن تتحدث كما كانت تتحدث، أن تهمس في أذنه لتداعب أنفاسها صدغه... لكنه يعرف كيف بدأ الأمر، وكيف لان صوته، ورطب الحنان جفاف كلماته... قال لها بنفس لهجته الجافة وكأنه يدافع عن شيء عزيز:

«وانتي ما لك يا بت، بيكي إيه؟... ألف راجل يتمنى ضفرك!».

«يسلم لسانك يا محمود... لكن...».

وصمتت، واشرأبت بعنقها نحو النافذة، وأخذت تحملق في ظلام الطريق خلال فرجة بين دلفتيها، ثم قال دون أن ترفع إليه وجهها:

«شايف آني ساكنة فين يا محمود؟....».

«مانتي اللي عايزة كده!».

«بتحبني زي ما بنحبك؟!».

فاجأه سؤالها، فانتفض، وزاغت نظراته:

«ليه بتسأليني السؤال ده يا «كايداهم»؟».

«من نفسي!».

«وحياة من ملأ البحر بالرزق بنحبك، إنت يا بت مش عارفة كده؟».

«عارفة!».

«طب اضحكي!».

وضحكت...

«اضحكي كمان!».

وضحكت أكثر... ثم أكثر، ثم قدمت له الجوزة، وبعدها رقصت، وأبدعت، مالت عليه، وقبلته في شفتيه، واهتز جسدها وارتجف كأن به ألف جني يبعثون الرعشة في أوصاله... ثم توقفت فجأة وصوبت إليه عينيها في جسارة، وقالت:

«عارف ليه بأه آني حرمتك على نفسي؟!».

لم يغضب، ولم يثر... بل سألها مبتسمًا عن السبب:

«ليه يا «كايداهم»؟!».

«علشان تفضل تحبني!».

وضحك وضحكت... ثم ضحكا حتى تقطعت أنفاسهما من الضحك... وعندما هدأ، قال لها وكأنه يفيق من حلم:

«بقى كده يا «كايداهم»، ده اسمه كلام يا بت؟!».

«معلوم اسمه كلام... الواحدة مننا يا محمود مالهاش العشق، والحب في حياتنا حرام... زي الحشيش اللي بتمنعه الحكومة... الولية اللي زيي لو عشقت تبيع اللي وراها واللي قدامها، وآخرتها حاترجع للسكة تاني... الواحدة مننا لازم تحرم على قلبها النومة إلمرتاحة، لو داقتها مرة مش حاتسلاها طول العمر... تعمل إيه بعد كده وكل يوم فيه ألف نومة...

تبيع نفسها لمين وكل من يشتري حاتقابله بوش كشر... الراجل من دول بتبقى ريحته منتنة، ولازم ندفن جتتنا فيه، ونقول له يا حبيبي... النطع من دول يبقى جوفه زي المزبلة، وأحلى ما فينا ينباع بقرش!... سألت نفسي في يوم، إذا دقتك، إذا حبيتك، حاسلاك إزاي، أنساك إزاي؟».

لم يعد يطيق، كان جسده يرتجف بانفعال لم يستطع مقاومته، مد إليها يده وجذبها إلى صدره فاستكانت - بلا كلمة - بين ذراعيه، راح يعبث في شعرها حينًا، ثم رفعت إليه عينين ساهمتين، وشفتين مرتجفتين... وصعدت أنفاسها ملتهبة حارة، وتلاقت الشفاه في قبلة... كانت ليلة.

***

ألقى محمود بسيجارته الثالثة إلى الأرض، وتمنى أن يرى «كايداهم»، كانت رغبته في تقبيلها تفوق كل رغبة أحس بها عنفًا، راح يرقب دخان السيجارة المتصاعد وقد ثبت بصره على الباب في وجوم وقلق... لماذا خرجت؟... وأين ذهبت؟... خدر لذيذ يسري في أوصاله... وكأنه عطشان لم يذق للمياه طعمًا منذ سنوات، كان يحترق لرؤيتها... همَّ جالسًا في الفراش عندما وصل صوتها إلى أذنيه، كانت تهمس في الخارج، لكن همسها كان يعلو لحظة بعد أخرى... كانت تتوسل، وترد على صوت مزمجر غاضب، ثم تحول التوسل إلى تنمر... وصوت رجل يصيح:

«إنت يا بت بتقولي لأ....».

وسمعها تقول في صوت باتر:

«قلت لك عندي زبون جوة!».



وانقبـض قلـب محمـود، لكنـه لـم يفكـر في الأمـر، قـال رجل في صوت حاد:

«يطلع!».

«دا غريب يا بو صباع!».

وهمس محمود في فحيح: «أبو صباع؟!»، عاد الرجل يقول:

«برضه يطلع، آني قلت يطلع!».

«يوه، وبعدها وياك، قلنا تعالى كمان شوية!».

«إنت بتشخطي فيه يا مرة؟!».

وعلا صوت امرأة أخرى:

«تعالى عندي آني يا بو صباع، معلش تعالى عندي آني!».

وصرخ الرجل في صوت متعثر:

«إوعي من سـكتي يـا مرة، إوعي من السـكة لما نشـوف النطع اللي جوة يطلع مين!».

«أبو صباع، عيب أنت سكران، فتح شوف أنت بتكلم مين يا جدع؟!».

«يا بت الأبالسة، انتي بتردي عليَّ كمان، وبتخوفيني... طب خدي!».

وانطلقـت صرخـة ثاقبـة... صرخـة اندبت فـي قلب محمـود كخنجر مرهـف النصل... فألقى بالغطـاء وقفز إلى الأرض، واندفـع إلى الباب... ودوت صرخـة أخـرى، وثالثـة... وهجـم علـى البـاب ففتحـه.. وجمـد في مكانه.

كانـت كايداهم ملقـاة فـوق الأرض، وأمامه رأى أبو صبـاع الهائل الجثة، الأسود اللون، الأشعث الشعر... في يده سكين يقطر منه الدم!

«إلحقني يا محمود!».

وألقـى بجسـده علـى الرجـل، كالمجنـون... فرفع هذا سـكينه في الهواء، وتلقى محمود ذراعه بكفه، ثم هوى - في لمحة - برأسـه فوق وجهه، وانبثق الدم من أنف الرجل، وارتفعت رأس محمود مرة أخرى، وهـوت كالصخرة، وانبثق الدم من فم الرجل، وخارت يده، وسـقطت السـكين... وامتـلأ المـكان بالصـراخ... ومحمـود كالنائـم، يضـرب ويضرب دون توقف، وسـقط الرجل على ركبتيه، وسـقطت رأسه فوق صـدره، واندفعـت ركبـة محمود في سـرعة لتصـدم الفـك المتهاوي، وتكـوم الرجل فوق الأرض وهو يخور كثـور ذبيح، والدماء تتفجر من أنفـه وفمـه بغـزارة... والنسـاء يتجمعـن، نسـاء كثيـرات، صارخات، مولولات، ورجال مذعورون، رجال عرايا، وآخرون بنصف ملابسهم.. والزحام يشتد.. و«كايداهم» تشهق.

«كايداهم!».

وكأنـه يلفظ قلبـه، عنقها ممزق، دماؤها سـاخنة غزيرة أغرقت كفيه وهو يحاول رفعها إلى صدره.

«إلحقني يا... محـ... مو... د...».

«كايداهم!».

ارتفـع جفناهـا عن عينين ذهـب سـوادهما، وتعلقت عيناهـا بعينيه لبرهة، ثم شهقت شهقة أخيرة... وسقط رأسها المذبوح!



الفصل الثاني والعشرون

انتشر الخبر وذاع، تجمع الناس حوله وحول البيت، شعر بالبرودة تنفذ إلى عظامه، كأن يدًا قاسية حملته وطوحته في الهواء ثم تركته معلقًا... لا بد أن يكون حلمًا، حلمًا مزعجًا سيصحو منه ليعود إلى «كايداهم» من جديد. إنهم لا يتحدثون عنها وليست هي الراقدة في سكون بين ذراعيه، إنها امرأة أخرى... ظل جالسًا وهو يحملق فيها حتى جروه جرًّا إلى «الكركون»، فانصاع لقبضاتهم الخشنة وأذعن لصرخاتهم الغليظة وأوامرهم الباترة... لم يعد في الدنيا شيء فلماذا يهتم بشيء؟! ذهبت «كايداهم» دون سابق إنذار، انقض عليها القضاء بلا رحمة فمزق عنقها وصدرها وأسال دماءها، أيمكن أن تكون هي حقًّا؟... تمضي الدقيقة كأنها ساعة، وتمضي الساعات فلا يشعر بمرورها، أين هو؟ ولماذا جاءوا به إلى الكركون؟... جاء حنفي مهرولًا مكفهر الوجه شاحبه، يقف من بعيد وينادي عليه ويسأله إن كان في حاجة إلى شيء... لا بد أنه جن، فماذا يريد؟... أدار عنه وجهه دون رد فماذا يطلب؟... يسأله عن حاله بإلحاح فماذا يقول؟... يسألونه عما حدث وكيف حدث ولماذا ذهب وأين قضى ليلته، أجابهم كالمذهول وكأنه ببغاء يردد ما توحي به نفس ضائعة، الضابط ينظر إليه ويسأله إن كان مريضًا، فيهز رأسه نفيًا، فما هو المرض؟ ولماذا يمرض؟... ماتت «كايداهم» وذهبت من حياته بعد أن عمرتها ليلة!... شهر؟... طول

العمـر؟... ليكـن أي شـيء، فمـا الفـرق بيـن وجـوده الآن وبيـن يـوم مولده؟... انقضى كل شيء ولم يعد له وجود، يسأله الضابط متى ذهب إليها... ألا تعلم يا سيدي الضابط ذا النجوم اللامعة؟... كانت كايداهم حبيبتـي، كانـت عشـيقتي، كانت أمي، كانـت أبي... نعـم نعم، قضيت ليلتـي معهـا، بل في أحضانها، لماذا تدهـش؟... وما وجه العجب فيما أقول؟!... لا لا، لم أر شـيئًا، سـمعت صراخًا وخرجت لأجد السكين فـي يده... نعـم ضربته، رفع السـكين في وجهي فهجمـت عليه، ليتني قتلته يا سيدي، لا أدري ماذا حدث، ليته مات، لو أني قتلته لشفي غليلي وزغردت دمائي الباردة في عروقي بالفرح!

ظـل هناك حتـى هبط الظـلام، أحاديـث وأقوال وجنـود وبصمات وأسـئلة وأجوبة، وهو غارق... فيم تفكر؟... يتمنى لو يسـتطيع أن يعي ولو لحظـة، أن يدرك حقيقة الأمر... تنهد ودخـن وحاول الحديث مع حنفـي، لكنـه كان كالمخدر بأطنان من البوظة، غـارق غارق يهوي إلى قرار سحيق، ليته يصل إلى القرار، لو أن هذا حدث لعرف له أرضًا يقف عليهـا... ولانتهى عذابـه؟... عذابه الأكبر أنه لا يدري شـيئًا، لا يحس بشيء، لا يريد شيئًا. قبض الريح.... عدم!

صرفوه في النهاية فمضى كالمنوم إلى الخارج، تجمع حوله الرجال وأمسـك حنفي بذراعيـه كأنه يحميه، كيف حالي؟! مـاذا حدث؟ لماذا لا أرد؟... ليتكم تصمتون لحظة، جمعة وشلوفة والشاطر الطبال وزين الزمـار وجمـع من الرجـال وكأنهم يشـيعون جنـازة... وبالأمس كانوا يحيـون فرحًا!... النـاس في الطريـق يحملقون فيه، واحدة من النسـاء تقول بصوت مسموع:

«اسم النبي حارسه، هو ده اللي مسكه وفضل يضرب فيه لحد ما كومه على الأرض... ربنا يحميه لشبابه!».

شباب؟... أي شباب يا امرأة؟... ذهب شبابه ودفنت طفولته وتبددت حياته وبرد قلبه كحجارة الرصيف... قدماه حافيتان فأين مداسه؟!... جسده يرتجف، حنفي لا يزال متعلقًا بذراعه، يد تمتد إليه بسيجارة...أكان يحب «كايداهم» حقًّا... جواب يأتيه من أعماقه... نعم، إذن، فلماذا لا يبكي؟

أهذا هو الحزن؟ كلا، قطعًا لا... لقد جرب الحزن من قبل يوم أن غرق أبوه في الميناء... كان الحزن وقتها كألف سكين تنغرس في صدره وقدميه، لكنه الآن لا يشعر بشيء من هذا، لا يشعر بشيء إطلاقًا... البوظة تظهر من بعيد، فهل هي البوظة التي عرف فيها «كايداهم»؟

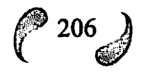
إنها اليوم كئيبة، الكيزان تدور عليهم فيجرع الرجال منها في صمت، لا غناء ولا صياح ولا طبل ولا زمر، رفع الكوز إلى شفتيه فوقعت عيناه على مقعدها الكبير، كانت تجلس هنا دائمًا... حولها الشاطر وزين، الطبلة والمزمار!... وعما قليل سيمتلئ المكان بالوافدين، سيبحث الرجال عن معشوقة القلوب، وسيسألون عنها، وسيقولون لهم: ماتت!!

ماتت؟!

هل ماتت حقًّا؟!

لا حول ولا قوة إلا بالله، كيف؟!

ماتت. ماتت. «كايداهم» ماتت.



خيـر له أن يكبت دمعه أمام الرجال، ليبـك عندما ينفرد بآلامه، كف يا دمع عن الفوران... لتطفئك البوظة أو تزيد نارك اشـتعالًا... ماتت؟! حنفـي ينظر إليه بحنـان، حتى حنفي ذو القلب الصخـري يا «كايداهم» تحرك قلبه من أجلك وفاض مثل هذا الحنان، حتى أنت يا حنفي؟

«محمود؟!...».

««كايداهم» ماتت يا حنفي... ماتت بصحيح!».

«محمود...».

انطلقي يا صرخة فإنك تمزقين صدري وعنقي.

«آه... آاااه... ماتت يا رجالة!».

لماذا يبكي؟... هل سـتعود، أبدًا، ذهبـت ولن تعود، قلبه لا يصدق ولكـن مـا الفائـدة؟... أمـره إلـى الله، ما حـدث قد حـدث... مـزق المجرم عنقها!

«دبحها يا حنفي، دبحها يا رجالة!».

كيـف يتحدث الناس عن الصقيـع وهم لم يجربوا برودة القلب؟... الدموع فـي عيون الرجال كما هي في عينيه، أين أنت يا «كايداهم»؟... أتموتيـن بمثل هذه السـهولة... اتركوه يا رجال لحالـه، لا بد أن يبكي، دعـوه يصـرخ كطفل... الدنيا تبكـي أمطارًا غزيرة فـي الخارج، راحت كايداهـم ولـن تعود... ليتـه يسـتطيع أن يلطم خديه كالنسـاء، ويرفص بقدميه كالأطفال، ويصـرخ بلوعة كالثكالى، ويتمرغ في التراب... فقد ذهبت كايداهم إلى المشـرحة ليمزقوها إربًـا إربًا... تركته حبيبة الروح في فراغ لا محدود، في ضياع... في...

«يا حنفي... يا حنفي!».

أتبكي أنت أيضًا يا ابن العم؟... مرحى!... هطلت الأمطار، عم الرخاء، فاضت القلوب بالحنان، زغردت الألسنة بالصوات والنواح والبكاء.

«كايداهم»... أين أنت يا «كايداهم»؟!



الفصل الثالث والعشرون

انتاب الذين مروا ببوظة شلوفة في ذلك المساء عجب شديد، كان زين والشاطر جالسين في غير مكانيهما، والرجال مطرقين حول الموائد الخشبية في صمت ووجوم، لا غناء، ولا مواويل، ولا ضحكات ولا أحاديث... حتى حسين شلوفة ترك مكانه وجلس بجوار محمود، وأكواز البوظة تدور حقًّا، ولكن في صمت. الدخان ينبعث من الأفواه ويسبح في سماء المكان، لكنه كان باردًا كأنفاس الرجال... الرواد هم هم، والوجوه هي هي، ولكن هناك شيء ينقص الجميع.

***

وقد مضى الوقت، مضى بدقائقه الثقيلة الممطوطة، وثوانيه الرتيبة المملة، وساعاته التي تشبهت بالدهور فأضحت في مثل طولها.

شهق المعلم جمعة، وارتفعت نحوه كل العيون وتعلقت بوجهه ذي الندوب والأخاديد، ورأى الرجال فيما رأوا في ذلك المساء دموعًا غزارًا سحتها عينا المعلم جمعة، وسمع الرجال فيما سمعوا في ذلك المساء، نهنهات محمود ونشيجه المكتوم وشهقاته المتتالية.

حتى حنفي البلطي، الرجل ذو الوجه الحجري والملامح الجامدة، الذي تبعث تقاطيعه الصارمة في النفوس رهبة واحترامًا عميقين... حتى حنفي البلطي فرت من عينيه الدموع.

وذكر اسم الله في تلك الليلة على غير ما تعود الرجال أن يذكروه في كل ليلة، ترحم الرجال على كايداهم مرات ومرات، وعشرات المرات، وقرأوا الفاتحة بشفاه تنبعث من بينها رائحة الخمر... حتى إذا انتصف الليل سمع الرجال محمود وهو يحدث المعلم جمعة قائلًا:

«حانعملوا إيه في الجنازة يا معلمي؟!».

فقال جمعة وهو يهز رأسه هزات متتالية:

«جنازة كايداهم يامحمود؟ عروستك اللي انزفت لك امبارح؟!».

وقال حنفي بنبرات حنون:

«وحد الله يا معلم جمعة، وحد الله وشد حيلك!».

وقال محمود:

«أيوة يا معلمي، جنازة كايداهم يا معلمي!».

وانفجر الشاطر في نشيج غليظ، ومال إلى الأمام وهو يدفن رأسه بين كفيه وينخرط في نحيب متصل... وقال حسين شلوفة:

«يمين بالطلاق يا رجالة لو كانت بنتي ما كنت نحزن عليها كده!».

وهمس رجل في طرف المكان في أذن زميله:

«يا سلام على بني آدم، إمبارح كانت «كايداهم» مجننة البوظة باللي فيها... البت دي كان فيها شيء لله، مفيش راجل في البوظة إلا لما هو حزنان عليها».

ورد عليه زميله وهو يرفع الكوز إلى شفتيه:

«مش بيقولوا زانية، إنما يمين الله كانت زي بنات الأكابر!».

وعاد محمود يقول في إلحاح:

«الجنازة يا معلم جمعة، لازم ندفنوها دفنة كويسة، ولازم تعملوا لها خرجة ما حصلتش قبل كده!».

وقال حسين شلوفة:

«عهد الله ما حد فيكم دافع مليم، رقبتي سدادة!».

نظر إليه جمعة في توسل، ثم قال والبكاء يخنق صوته:

«يا حسين يا خويا، خليني نجيب لها الكفن، وابقى اشتري لي انت كفن ما نحصلها!!».

ومضى الحديث الحزين يخطو في تثاقل فوق الدقائق... حتى اندفع إلى البوظة رجل كان يلهث، وما كاد يهم بالكلام حتى صدمه الجو الغريب، فتوقف محملقًا في الرجال بدهشة، ثم سار في بطء نحو أحد المقاعد، وجلس عليه وهو يجول ببصره في الوجوه... والتفت إلى جاره، وكان هذا مطرقًا كالآخرين صامتًا وكأنه في غيبوبة، فمال عليه وهمس في تساؤل:

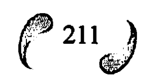
«خير يا معلم، الرجالة ما لهم... هو الخبر وصل؟!».

رفع إليه الرجل رأسه - ولم يكن صيادًا، بل حمالًا في الميناء - وسأله في لا مبالاة:

«خبر إيه؟».

«المركب!».

وكأنما ضاق الرجل بغموض حديث الوافد الجديد، فقال في ضيق لينبهه إلى حقيقة الموقف:



««كايداهم»، البقية في حياتك!».

«يا ليلة سودة!».

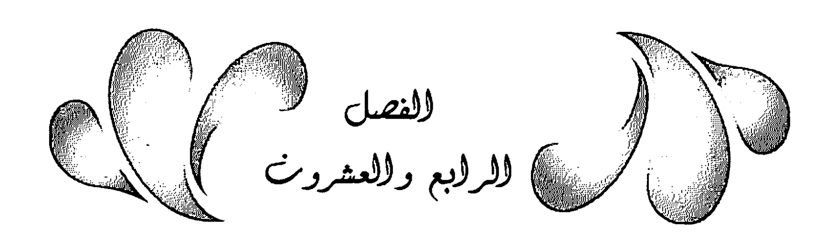
ثم ساد الصمت مرة أخرى، على أن الرجل كان يشعر وكأن صدره ينوء بما يحمل من أنباء، فأخذ يجيل بصره في الوجوه الحزينة ولبث فترة يغالب رغبته في البوح بما جاء يلهث من أجله... وما أن التقت عيناه بعيني حنفي، حتى أومأ إليه ونهض متجهًا نحو الخارج يتبعه حنفي في صمت!

وعندما عادا إلى الداخل مرة أخرى، كان وجه حنفي المتجهم قد اكتسى بطبقة صخرية من الهم... وما إن وصل إلى مكانه وهم بالجلوس، حتى نظر إلى محمود نظرة من يحمل في صدره ما لا قبل له به، ثم قال بصوت متحشرج:

«يا للا بينا يا محمود، سلام عليكم يا رجالة!».

وكأنما كان محمود بلا حول ولا طول فقد نهض مستسلمًا، والتفت نحو الرجال، ثم دار بعينيه في أرجاء المكان، وانتابه في هذه اللحظة طوفان كتلاطم من المشاعر، واقشعر بدنه، وجاشت نفسه بأحزانها... وعندما استدار وهو يرفع للرجال يده بالتحية، تصاعد إلى رأسه سؤال:

ترى... هل يعود إلى البوظة بعد الليلة؟!



الفصل الرابع والعشرون

دلف حنفي ومحمود إلى الزقاق، وغاصت أقدامهما في الوحل الذي صنعته أمطار الليلة، وعندما بلغا منتصفه، استدار حنفي نحو ابن عمه، ومد إليه يده وشد على يده، ثم قال في همس:

«مفيش داعي حد من الزقاق يعرف عنك حاجة يا محمود، شد حيلك قدام أبوك، وبلاش تبقى صغير!».

هز محمود رأسه موافقًا، وعاد يقول في اقتضاب:

«المركب وصلت يابن عمي!».

ارتفعت رأس محمود في سرعة، وسدد حنفي نظرات حادة، بينما كانت عينا هذا تشعان بريقًا غريبًا في ظلمة الزقاق... وما لبث محمود أن هز رأسه في صمت وهو يعض على شفته كمن يعاني آلامًا مبرحة... ثم استدار كل منهما نحو باب بيته، واختفى فيه.



الفصل الخامس والعشرون

قالت عطيات، وهي تمد يدها بكوب اللبن إلى زوجها:

«ومستني إيه يا سي حمودة؟... ما تقول لابويا محمد ونتوكل على الله».

وأخذ حمودة يفرك قدميه ببعضهما تحت الغطاء، وهو يرفع الكوب إلى شفتيه ويرشف منه على مهل، بينما راحت عطيات تؤدي آخر أعمال يومها، فدثرت باب الحجرة بجلباب كي تقي أولادها الممدين على الحشية فوق الأرض هواء الليل البارد، ثم راحت وجاءت في الحجرة ناقلة شيئًا إلى مكانه، مرتبة وضع شيء آخر... لكنها ما لبثت أن تعجلت دورتها الليلية، فاتجهت نحو الفراش وتسلقته كي تزحف إلى مكانها منه بجوار الحائط، ودست جسدها تحت الغطاء، والتصقت بزوجها قائلة:

«هيه... إيش قولك يا سي حمودة؟... يا خويا انت مستني إيه؟».

اعتدل حمودة في جلسته، وظهرت على وجهه أمارات التفكير وهو يقول في حماس:

«آني بعد ما كلمت حنفي، ربك والحق، حسيت إن حمل انزاح من علي قلبي، قلت يا واد اتوكل على الله وقول لابويا محمد بالمرة، كده كويس؟».

«كويس وإيه اللي أخرك».

قالت عطيات ذلك وهي تدس كفها في فتحة جلبابه، استشعرت دفء الفراش فحنت إلى الانضواء تحت جسد زوجها، وفارت في نفسها أحاسيس جد عميقة، كانت تستمع إليه بأذن، وتستمع إلى دقات قلبه بالأذن الأخرى... طالما تمنت في أعماقها أن ترحل به بعيدًا عن الشاطئ بالرغم من ذلك الخوف الذي كان ينتابها عندما تتصاعد إلى أذنيها كلمة الغربة أو الوحدة، وبالرغم من حنينها الشديد للزقاق وحبها العميق لأهله وأهلها، إلا أن الدنيا بما فيها من غرائب كانت تسحرها... ظلت تجتر أحاسيسها هذه في خوف حينًا، وفي إقبال حينًا آخر، حتى حدثها حمودة بما في نفسه من رغبات، في تلك الليلة فقط، ورغم الذعر الذي انتابها، لم تستطع مقاومة تلك الفرحة الطفلية التي راحت تزغرد في صدرها، وانزاح القناع عن مشاعر كثيرًا ما حيرتها وأتعبت ذهنها... ولم تعد تتساءل فيما بينها وبين نفسها ذلك السؤال الذي كان يخجلها أشد ما يكون الخجل... لماذا كان زوجها دون باقي رجال البلطي مريضًا؟... في أحيان كثيرة كان ينتابها اليأس والقهر فتبكي في صمت، وتطلب في حرارة وصدق من الله أن يمن عليه بالشفاء... لكنها سرعان ما كانت تنهر نفسها - وكأنها إنسانة أخرى - وتطرد أحاسيسها لتغوص في أعماق وعيها، وتندفن في ظلام كثيف... وما إن لاحت لها بوادر الشفاء في الرحيل، حتى فاضت نفسها بحيوية لم تدر لها سببًا، فكانت تنساق إليها في نشوة، غير عابئة بما كان يخطر ببالها من أسئلة تدفع حمرة الخجل إلى وجنتيها!

ناولها حمودة الكوب الفارغ، ومسح شفتيه وشاربه بظهر كفه، ثم تجشأ فمالت يدها بالكوب نحو قاعدة الشباك المجاور للفراش ووضعته عليها، ثم عادت تدفن رأسها في صدر زوجها... وامتدت ذراع حمودة لتلتف حول كتفها، واشرأب بعنقه إلى حيث كان أولاده يغطون في النوم، ثم امتدت أصابع يمناه إلى المصباح الغازي المعلق بجوار الفراش، وخفض ضوءه حتى امتلأت الحجرة بظلال تكسوها ضياء شاحبة محببة إلى نفسه. وعاد إلى الحديث:

«وصلت قهوة سلامة لقيت الرجال عمالين يتكلموا في حكاية عبد الموجود».

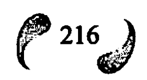
«إلهي ربنا يرزقه بمصيبة تجيب قضاه!!».

«يا شيخة حرام عليكي... المهم، قعدت جنب ابويا محمد وطلبت كباية الشاي، وقلت نستنى حبتين لما الجو يروق... وشوية وداخل عبد الموجود حمدان!».

ورفعت عطيات رأسها إلى وجهه، بينما راح يداعب شعرات شاربه في صمت... وفار صدر عطيات بما فيه من شوق، فدست قدمها بين قدميه، وعادت تضع رأسها فوق صدره، فأغرقتها أنفاسه الدافئة... ثم قال بصوت نائم:

«وبعدين؟!».

«وبعدين دخل الراجل... سلام عليكم، عليكم السلام، سلامات، الله يسلمك... كلمة من هنا وكلمة من هنا، والراجل بيقول إنه عاوز مشتري للفلايك بتاعته!».



انتفضت عطيات، ورفعت رأسها إليه، ثم تساءلت في قلق:

«تاني... الفلايك تاني يا سي حمودة؟!».

«أيوه يا ستي... معندوش مانع يبيع الفلوكة بأربعين، والشبكة أم تلاتين بعشرين.....».

«وبعدها؟...».

«ربك والحق، آني قلبي انقبض، لما الفلوكة تنباع بأربعين والشبكة بعشرين... واحنا عندنا شبكتين وفلوكة، يعني الحسبة كلها تبقى تمانين، التلاجة اللي في شارع الميدان جابت آخر ما جابت أربعين، يفضل معانا أربعين، حاينفعوا نقلان مصر، وإيجار بيت، ودكانة، وتوضيب محل والذي منه؟!».

«وبعدين يا سي حمودة، والعمل إيه في الراجل ده... مفيش...».

وقاطعها حمودة مستمرًا في حديثه:

«طولي بالك عليَّ يا بت الناس... أبويا محمد سمع الكلام ده وطب ساكت، الرجالة قعدوا يبصوا له إنه يتكلم، يقول حتى لا إله إلا الله، ما اتكلمش... إنه يقول كلمة، ماقالش... راح عبد الموجود موطي عليه وقال إيش قولك يا معلمي، أبويا بص له بنص عين وراح مدور وشه الناحية التانية، راح عبد الموجود منطور من مطرحه، هم واقف وهو بيزعق بعلو حسه... المرة اللي فاتت شتمني محمود اللي زي ابني، المرة دي مش عاوز ترد عليَّ يا معلمي، هو آني كفرت؟...».

«وابويا محمد فضل ساكت؟».



«أبـدًا... رفـع لـه عينـه وقال له: يـا عبـد الموجود انت خنـت العيش والملح، حكاية المركب دي عملتها خوانة في الرجالة، لوحدك، من غير ما تشـور إخواتك اللي عرفوك جربان وقبلوك في وسطهم وقالوا لك يوم ما كنت غريب، يا مرحب... إذا جت المركب دي يا عبد الموجود الرجالة حايعملـوا إيه، رزقهم يبيعوه فين؟... تموت ولادهم من الجوع؟... راح عبد الموجود صارخ في وسـط القهوة... شـاهدين يا رجالة، آني جربان، المعلـم محمـد البلطي بيقول عليَّ جربان، معلهش يـا زهر برضه معلمي ولحـم كتافـي مـن خيـرك، لكـن آني مش نـدل نقطـع عيش حـد، واللي عـاوز ياكل عيش رقبتي سـدادة، خـدام للصغير قبل الكبيـر... راح أبويا محمد هابـب من مطرحه، وهجم على عبد الموجود ومسـكه من طوقه، الرجالـة هاجـت، والدنيا وقفـت على رجـل... بصينا لقينـا أبويا بيقول: يميـن بالطلاق اللي يحط إيده في إيد عبد الموجود حمدان في بيع قارب واللا شروة شبكة، محرم عليه البلطية كبيرهم وصغيرهم!».

وسـاد الصمت، وترددت الأنفـاس في جو الحجـرة، وبانت ظلال الأثاث طويلة في اسـتلقائها على الحائط والسـقف، وحاولت عطيات أن تكبت رغبتها احترامًا لانفعال زوجها بما كان يحكيه لها، حاولت أن تقتلها... فلم تفلح. كان الدفـء الذي تسرب إلى جسدها أقوى من كل محنة، والرحيل عن الزقاق وشـفاء حمـودة أقوى من كل عقبة، وكانت سعيدة... فمددت جسدها وهي تتمطى في أحضان حمودة وقد اتقدت مشاعرها، وما لبثت أن قالت بصوتها الناعم وهي تمد ذراعها متلصصة لتحيط به جسد حمودة وتضمه إلى صدرها:

«وبعدها يا سي حمودة؟!».

«وبعدهـا خرج عبد الموجود، الرجالة هاجت، كلمة من ده وكلمة من ده، وحلفنا اليمين ما حد فينا يمد يده في جنس معاملة معاه، شرا أو بيع!».

تسللت عطيات إلى بغيتها في حذر وهي تقول:

«قلت لابويا محمد؟!».

كانت تعلم رده عن يقين، لكنها أرادت إنهاء الحديث، وقال حمودة:

«يـا وليـة اعقلـي، إذا كان القـارب مرمـي علـى الرصيـف بأربعيـن والشـبكة بعشرين، نقول للناس إيه؟... آني قلت نسكت حبتين، يومين تلاتـة، أسـبوع... ومسـيرها تنحـل، وقتها نبيـع القـارب زي الأصول، واقول لأبويا محمد!».

«وحنفي عمل إيه؟!».

«حنفي كان غطسـان ما اعرفش فين، زي ما يكون فص ملح وداب، الصباح رباح!».

دسـت عطيات أصابعها في شـعر زوجها وأخـذت تعبث فيه، وأدار حمودة وجهه ناحيتها، ونظر إليها خلسة، وما أن رأى وجهها المستكين، وعينيها المغمضتين، حتى ابتسم في سعادة... وقال عطيات في دلال:

«قدامنا كتير يا سي حمودة على كده؟!».

ضغط جسـدها إلى جسـده، وقال وهو يستدير نحوها ويغرق شفتيه بين شفتيها:

«لا أبدًا... أبدًا!».

ومـا لبـث أن سـاد الحجـرة سـكون عميـق، كانـت تتخللـه أنفاس لاهثة حارة!

الفصل
السادس والعشرون

منذ خمسة وعشرين عامًا، غادر عبد الموجود بلدته في الصعيد متجهًا نحو الشمال، يحمل في صدره قلبًا يعتصره الألم، وفي عينيه دموع أبى عليه كبرياؤه أن يذرفها... كان يومًا أسود ذلك اليوم من أيام عام 1907، دخل القرية في صباحه مرابون من كل ملة ودين، يحميهم جنود يحملون سياطًا يلهبون بها ظهر كل من يقاوم أو يرفع رأسه... وخسر أهل القرية كل شيء، وارتفع في سمائها صراخ النسوة ونشيج الرجال وبكاء الأطفال، حتى دورهم الطينية المتداعية، طردوا منها بقسوة ودون رحمة... وكان عبد الموجود واحدًا من الذين أفقدتهم أزمة القطن في ذلك العام كل شيء.... فمضى في جوف الليل وحيدًا إلا من أحلام كانت تخفف من قوة الصدمة... وراح ينتقل من بلدة إلى بلدة، ومن مدينة إلى أخرى، وكلما حط رحاله في مكان رأى الجوع والفقر يلاحقان الناس... رأى في المدينة التي اعتاد أن يقصدها كل موسم، «محلات» أغلقت أبوابها، ودكاكين لا تجد من يقربها ليشتري شيئًا بقرش.... وعندما وصل إلى القاهرة وجد فيها حالًا أسوأ... الناس لا يبيعون ولا يشترون، السوق هامدة لا حركة فيها ولا حياة، بحث عن مأوى فلم يجد سوى الأرصفة والجوامع، ولم يكن هناك بد من الرحيل، فاتجه نحو الشمال مرة أخرى.

عندما وصل الإسكندرية مرت به أيام سود تضور فيها جوعًا، وبات لياليها بجوار الجدران... حتى استطاع ذات يوم أن يعمل حمَّالًا في الميناء، فأقبل على العمل بكل قوته، وراح يلفت إليه الأنظار عن عمد، فقربه المعلم إليه، لكنه كان يعمل يومًا ويتعطل بضعة أيام، فلم يُضع الفرصة، أخذ في أيام بطالته يتسكع على الأرصفة، ويتقرب من الرجال، وسرعان ما خرج في أحد قوارب الصيد دون أن يعرف عن الصيد شيئًا، لكنه استطاع بعد أيام أن يتقنه كأحد أبنائه... وتنقل من عمل إلى عمل دون تذمر أو ضيق، واستطاع بذكائه ولباقته أن يكسب قلوب الرجال في كل مكان، فوثقوا به وبذراعيه القويتين.... ومرت الأيام، وعرف كل رجل في الميناء، واستطلع ما بداخل كل شق فيها.... وبعد سنوات قليلة، كان قد وضع أصبعه على حقائق الحياة في تلك المدينة الواسعة...

كانت الدنيا جديدة عليه فعاملها بحذر، وأخذ يلتقط من هذا سر صنعته ومن ذاك سر عمله، حتى أتقن في سنوات قليلة كل صناعة وكل عمل... وقامت الحرب العالمية الأولى، وارتفعت الأسعار ارتفاعًا جنونيًّا، ووصل ثمن إردب القمح إلى ستة جنيهات بعد أن كان ثمنه ستين قرشًا، فعرف عبد الموجود من فنون الكسب ما خفي على الكثيرين... وسرعان ما اشترى قواربه ليضلل بها العيون الباحثة عن الأسرار، وأفلح... تاجر في الصوف والملابس والطعام، وكسب ألوف الجنيهات... وانتهت الحرب بخيرها الذي جلبته له، وشرها الذي استغله لمصلحته، واضطربت البلاد فكان له من ذلك نصيب، وهدأت، فبحث بعين الخبير عن صيد جديد!... وعرضت عليه صفقة كاد عقله

يطير لها، وحسب حسبتها في رأسه - لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة - فوصلت نتيجتها إلى أرقام مذهلة لم يعرف كيف يعدها، وإن استطاع أن يتخيل مقدارها... ومكث أيامًا وهو متحير بين الإقدام والإحجام، ثم غامر بماله في لحظة جنون... ففقد كل شيء!!

وهزته الصدمة بعنف، ولاح له شبح الماضي كئيبًا، وكاد يستسلم لليأس، وبدأ يصعد السلم من جديد.... وأخذ يشق طريقه في ذكاء وجهد حتى استطاع أن يقف على قدميه مرة أخرى، وتكونت لديه بضعة ألوف ردت إليه الثقة بنفسه... ومضت به الأيام دون أن تغير من طباعه شيئًا... يرسل القوارب بالرجال في الصباح، ويقف على الشاطئ في انتظار عودتها عند الغروب، يذهب إلى الحلقة، ويبيع في مهارة، ويقبض المال في حذر، ويعطي لكل ذي حقه... يصاحب الرجال، ويشاركهم سهراتهم، مظاهر النعمة البادية عليه لم تبدل من أخلاقه شيئًا، ولم تزرع الألوف في نفسه التعالي أو الغرور... حتى كان ما كان من أمر الإنجليزي «هوب».

جاءوا إليه منذ عام كامل، وهمسوا في أذنه بخبر غريب... رجل إنجليزي يبحث عن شريك لإنشاء شركة هائلة... اختاروه من دون الرجال لثقتهم فيه وفي سمعته التي تفوق الذهب أصالة - وهكذا قالوا له - وأخذوه في عربة أنيقة وذهبوا به إلى فندق فخم، واجتمع لأول مرة برجل قالوا له إن اسمه مستر «تشارلس هوب»... وفي تلك الليلة عرضوا عليه المشروع بالتفصيل، فشرب كما لم يشرب في حياته، وانتشى كما لم ينتش في حياته، وضحك كما لم يعرف الضحك من قبل... أمواله جمعها بعرق جبينه قرشًا قرشًا، وكان يضع القرش فوق

القـرش، ويكسـب بالقـرش قروشًـا أخـرى، ورجـل إنجليـزي يحدثه حديـث النـد للند، ويقول له «مسـتر همدان»، ورأسـه يـدور، وحديث المال يسيل لعابه... فهل يقامر بكل ماله مرة أخرى؟!

ومثلما حدث في الماضي تردد وأحجم، أخذ يقلب الأمر في ذهنه، والرجـل لا يلـح عليه، والوسـطاء لا يطاردونـه، انقطع عنهـم أيامًا فلم يعودوا إلى الاتصال به، أراد أن يجس نبضهم فذهب ليجدهم قد يئسوا منـه... كان يعرف ما للإنجليز من سـلطة وسـلطان... أن يشـاركه أحد الأثريـاء شـرف لم يطمع فيه، ولكن أن يشـاركه أحـد الإنجليز ولهم ما لهـم فـي البلاد من قـوة ونفوذ، أمر لا يسـتهان به... ومنـذ ما يقرب من عشـرة أعوام حدث له ما كان يحدث في تلك الأيام... حسب في ذهنه حسـبته، فأنتجت أرقامًا أطارت النوم من عينيه لليالي عدة، طلب أوراقًا فقدموا له الأوراق ومعها كأس من الويسـكي، وبحث عن محام - ولـم يكـن يعرف الطريـق إليهم - فدلـه أصدقاؤه على أحدهم، صعد سـلم إحـدى العمـارات الشـاهقة، ودخل مكتبًـا مهولًا، ورأى رجلًا أشـيب الشـعر حدثـه بـكل أمره، واسـتمع إليه الرجل فـي وقار شـديد، قدم له الأوراق فنظر فيها مليًّا، ثم أعادها إليه وقال:

«الأوراق كلهـا صحيحـة يـا معلـم عبـد الموجـود، والإجـراءات اللي قالوا لك عليها، والشـروط الموجودة في العقد سـليمة وكويسـة، إنما....».

وصمـت المحامـي وراح يعبـث ببعـض الأوراق، وانقبـض صدر عبد الموجود، وهم بسـؤال الرجل عما في الأمر، لولا أن اسـتطرد هذا بصوته الهادئ:

«انت متأكد من الجدع الإنجليزي ده؟».

لعب الفأر في عبه، وتململ في جلسته وهو يقول:

«تقصد إيه يا سعادة البيه؟».

«انت شفت الباسبور بتاعه، رحت القنصلية وسألت عليه؟».

«أمال آني جاي لك ليه؟».

«هو نازل فين؟».

«في لوكاندة سيسيل».

رفع الرجل سماعة التليفون، وطلب من سكرتيرته أن تتصل بالمستر تشارس هوب... وساد الحجرة بعد ذلك صمت عميق، وغرق عبد الموجود في التفكير وقد استبد به القلق، وانبعث رنين جرس التليفون فانتفض قلبه.

وتم كل شيء بعد ذلك بسرعة مذهلة.

اتصل الرجل بالقنصلية، وعاد ينظر في الأوراق من جديد، وجاء الإنجليزي نفسه، وقدم للمحامي كل ما طلب من أوراق، ومضت ثلاث ساعات وهم يتناقشون، ومضى بهم الوقت... وقبل أن ينتصف الليل كان كل شيء قد انتهى.

بعث حديث المال أحلام عبد الموجود بكل عنفها، فقرر أن يقامر وليحدث بعد ذلك ما يحدث، وقع بختمه، وبصم بأصبعه، وتسلم عقدًا، وشرب كأسًا... ودفع المال!

وطلب منه شريكه أن يكتم الخبر، فكتمه، ثم لم يستطع، فباح به... كان طموحه قد اشتعل فغرق لأذنيه في أحلام كانت تراوده ليل نهار...

وقـرر ذات يـوم أن يتخلـص مـن قواربه... أحــس فجــأة أنـه يريد أن يطرح عن كتفيه أحمال ماضيـه بأكملـه، ويصعـد سلمًا عاليًا، ويجلـس في شـرفة مرتفعـة، ويطـل على النــاس من فــوق... وعافــت نفسـه مجالـس الرجـال وسـهراتهم، فأخـذ يبحـث عـن صحــاب آخريـن، وارتـاد أماكـن بهرته وسـلبت لبـه، وعـرف نســاء لم يخطــرن ببالـه، وأنفــق، وبــذر، وبعثــر... ومـرت الشــهـور دون أن تصـل السـفينـة أو يصل خبر، فأفـاق على قلـق عنيف اسـتولى على مشـاعـره، ذهـب إلـى المحامـي فطمأنـه، ذهــب إلى الوسـطاء الذيـن نالهم مـن مالــه الكثيــر، فضحكـوا من مخاوفه وأفهمـوه أن كلمة الإنجليـز واحدة... وكانوا صادقين!

فبعـد أيـام وصله خطاب من «هـوب» بعنوان محاميـه، ينبئه فيه بأن وصول السفينة سيتأخر عدة أشهر... وطلب «هوب» من عبد الموجود أن يكتب له عن أحواله، وعن أسعار الأسماك، وعدد من الرجال الذين يمكـن اسـتئجارهم، وما كاد عبـد الموجود يعلم بطلب شـريكه، حتى راح يقـص علـى المحامـي كل مـا حـدث منـذ أن علـم الرجـال بخبر السـفينة... وكتب المحامي تفاصيل كل شـيء إلى هوب، وسـرعان ما أرسل هذا خطابًا جافًا يلح فيه على عبد الموجود أن يكف عن الحديث عن السفينة، وأن يشيع بين الرجال أنها لن تصل، بل طلب منه أن يرسل قواربـه للصيـد كل صبـاح كالعـادة... وألا يتصـرف أي تصـرف دون الرجوع إليه والاتفاق معه!

ونفـذ عبـد الموجود أوامر شـريكه، ومرت الأيام وهو يشـعر وكأنه معلق بين السماء والأرض، ينتابه القلق حينًا، وتطمئن نفسه حينًا آخر...



جـاء الصيف وولى، وجاء الخريف وانصرم، ثم فوجئ ذات ليلة - بعد أذان العشاء - بخبر وصول السفينة إلى الميناء!

وكاد يطير من الفرح، وهرول إلى الميناء غير مصدق، وصعد إلى السفينة وكل خلية من جسده ترتجف بالانفعال حتى إنه لم ينتبه إلى يد شريكه التي امتدت لتصافحه... أخذ يتحسس السفينة ويربت على صواريها ويدب بقدميه فوق سطحها ويدلف إلى قمراتها، ويهبط إلى مخازنها، ويصعد إلى حجرة القيادة فيها، ويروح ويجيء كالمذهول...

ثم أفاق أخيرًا ليعلن على الرصيف - بعد أن اتفق مع هوب - أنه في حاجة إلى رجال، وأنه في حاجة - أيضًا - إلى مشترين لقواربه...

ورأى فيما رأى من آيات الذهول رجلًا يخبط رأسه في الحائط وهو يصيح في صوت كظيم: «يا خراب بيتنا!»... ورأى فيما رأى من علامات الغيظ عيونًا تفح نارًا تريد أن تحرقه، فحمد للظروف أن جاءت بالسفينة في ذلك الوقت المتأخر وقد أوى الرجال إلى المقاهي والبيوت... وانتظر الصباح بقلب واجف، وإن كان يعلم أنه سينتصر، لم يهتز أمام السباب الذي انهال من الأفواه، ولم يتراجع أمام التهديد والوعيد، ولم يلن أمام دموع ذرفها البعض في يأس... كان كمن وضع قدمه داخل قصر عاش عمره ليبنيه، وكان السيد، ولن يخرج منه إلا جثة هامدة... تحقق الحلم، واشترى الدجاجة التي تبيض ذهبًا، فأين هو من عبد الموجود حمدان محمد الجعيطي، الذي نزح من قريته جائعًا، منذ خمسة وعشرين عامًا؟!

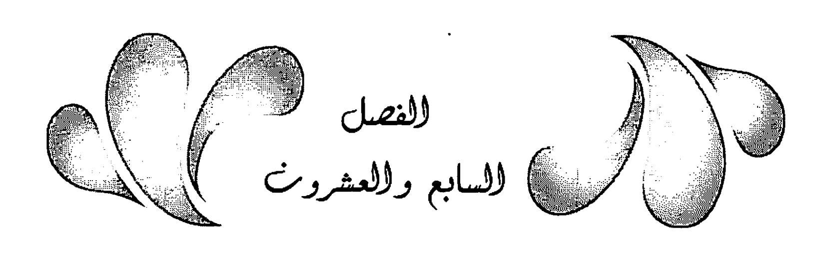
***

بدا شـارع وكالة الليمون في تلك الليلة قفرًا، كانت الرياح تهب من ناحيـة الميناء لتنكس الطريق وتحمل بقايـا الأوراق التي راحت تتطاير هنـا وهناك، وماءت قطة أفلتت من زقاق جانبي، واندفعت تعبر الطريق مسـرعة... وتسلل فأر من شـق في باب دكان، وأطلق صراخًا ثاقبًا وهو يعـدو على الرصيـف محتميًا بالظلام، ثـم اختفى في شـق آخر... كان الليـل قـد انتصف منذ سـاعتين أو أكثر، وظلت أضواء شـارع الميدان، بعرباتـه الكثيرة المكدسـة بالبضائع من جبن وزيتـون وفاكهة وحلوى، تتلألأ لتصنع كتلة متوهجة من النور... ومن وسط تلك الكتلة برز شبح رجـل طويـل القامـة متلفع بشـال صوفي ثميـن، وكان يقفز في مشـيته قفـزات غير متزنة، تدل الناظر إليه على طرب وسـعادة يكادان أن يذهبا بالوقار البادي على هيئته...

وكان الرجل هو عبد الموجود حمدان... وكان رأسه يحمل - فوق ما به من أبخرة الويسـكي، ودخان الحشيش، وبقايا رائحته امرأة أجنبية لا تـزال تملأ خياشـيمه - كان يحمـل أفكارًا كثيرة، وتجـري في داخله عمليـات حسـابية، أعدادها تحوي ألوفًا أكثر... وكانت الليلة بلا شـك هي أسعد ليالي حياته.

ومـا إن اقتـرب عبـد الموجـود من منتصف شـارع وكالـة الليمون، حتـى انثنـى إلـى اليميــن، ودلف إلـى حــارة جانبيـة، وغــزت أنفـه علـى الفــور رائحــة الحــارة النفــاذة، فتوقــف متــرددًا... ثـم قرر علـى الفـور أمرًا خطيرًا، قـرر أن يبحـث لنفسـه منـذ الغـد عن مسـكن ملائـم، وليكن قصـرًا يليق بمقامه الجديد، وبيتًا يسـتطيـع أن يدعو إليه أصدقاءه الجدد...

لكنه ما كاد يخطو في الحارة خطوات، حتى أحس - فجأة - بحمل رهيب يسقط فوق صدره، وذراعين قويتين تحيطان بجسده، وقبضة حديدية ترتطم بوجهه... حاول الصراخ، فكتمت صرخته كف صخرية، وانهال الضرب عليه بالأيدي والأقدام. تمزقت ملابسه، وتعرى صدره، وسقطت لاسته فوق الأرض وداستها أقدام ثائرة... وتلقى ضربة على أم رأسه، فمادت به الأرض، حاول أن يرى وجهًا من الوجوه العديدة التي أحاطت به، فعاقه الظلام الدامس، حاول أن يسترحمهم، أن يفوه بكلمة، فلم تسمح له الكف الصخرية بغير التنفس، ضاق صدره، وأصابه غثيان شديد، وتلخلخت ركبتاه، وثقل رأسه، وكان آخر ما شعر به، زمجرة غاضبة، وبصقة اندفعت في غل وصفعت وجهه... ثم غاب عن الوعي.



الفصل السابع والعشرون

بدا زقاق السيد البلطي في صباح اليوم التالي كئيبًا على غير العادة، وتغيرت فيه الأحوال والمواقيت لأول مرة منذ زمن طويل. فقبل أن تصحو أم حنفي، وقبل أن يصلها نداء المؤذن من فوق مئذنة المرسي أبو العباس، مزقت السكون دقات صارمة فوق باب بيت المعلم محمد، وانبعث في جنبات الزقاق أصوات خشنة، وأوامر، ووقع أحذية غليظة... وفتحت الجفون، وارتجت القلوب، وهب الرجال من نومهم في دهشة ممزوجة بخوف وقلق، بينما صوت خشن في فناء بيت المعلم محمد ينادي على: «محمود محمد البلطي»... وفي نفس الوقت صاح صوت آمر:

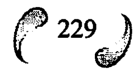
«فين بيت حنفي البلطي يا شاويش؟».

«لسه منعرفوش يا أفنديم!».

«فتح عينك انت وهو كويس، اقف يا عسكري عند باب الزقاق، وانت خللي بالك من الأبواب، محدش يخرج من الزقاق إلا لما يفوت عليَّ لحد ما نلاقي الاتنين!».

ومضت لحظات قلقة، انبعث بعدها صوت حنفي:

«آني حنفي البلطي، إيه الحكاية؟!».



وفـي لحظة، كان حنفـي محاطًا باثنيـن من الجنود، وشـهقت زوبة وهـي تضـم ذراعيها فوق صدرهـا، وأزاحها المعلم صـادق عن طريقه وهو يندفع إلى الخارج سائلًا عن الخبر.

ومضـت دقائـق قصيـرة، امتـلأت بهـرج ومـرج، وبـكاء وعويـل، وشـهقات ملتاعة، وسـؤال بـلا جواب، وزجـر رجل امرأتـه أن تكف، وسـؤال يعقبه جواب مقتضب، وإلحاح يعقبه تفسـير غامض، لكنه كان يدور على أي حال، حول عبد الموجود حمدان.

ثم غادر الجنود الزقاق بعد أن صحبوا حنفي ومحمود، وبقي الجميع في ذهول يضربون أخماسًا في أسداس، تبكي أم حنفي وتولول، وتصرخ أم محمود من أعماق صدرها، فينتشر صوتها في الزقاق نائحًا:

«يا بني... يا ضنايا».

وسـرعان مـا ارتدى الرجـال ثيابهـم، واندفعـوا من أبـواب بيوتهم مهروليـن، ثـم تجمعـوا عنـد ناصيـة الزقـاق في انتظـار من بقـي منهم أو تأخر... في عيون الجميع دهشة ممزوجة بالحيرة... ماذا حدث»؟... لا أحد يدري!... أعصاب ثائرة وقلوب مضطربة... دموع النساء تنهمر بغزارة، وصراخ الأطفال ملأ البيوت، رجال الشاطئ انشق عنهم الظلام فجـاءوا مهرولين علـى غير موعد، وكأن رائحة الخطـر قد أيقظتهم في تلك الساعة المبكرة...

غادر المعلم محمد البلطي داره وقد دثر كتفيه بشـال سـميك وراح يزفـر فـي غضب، وكان وجهـه جامدًا لا ينم عما في صدره من تسـاؤل وخوف وقلق وحيـرة... وحاولت زوجته أن تغادر الزقاق وراء ولدها،

فأوقفتها زمجرة رهيبة انبعثت من حلقه... غادر الرجال الزقاق وصوت أم حنفي يلاحقهم وهي تسأل الكبير والصغير سؤالًا أعادته عشرات المرات دون أن تجد له جوابًا شافيًا:

«هو حنفي عمل إيه، ابني عمل حاجة؟... مال العساكر وماله؟».

تحرك الركب وانثنى إلى اليمين، تدب الأقدام المتكاثرة فوق أرض الطريق، فينبعث عنها صوت مدو وكأنه صرخات رجال ذاهبين إلى الحرب!

لعلع صوت المؤذن، فحمله الهواء وألقى به إلى زقاق صاح، فأبوابه مفتوحة، وعيون أهله فيها دموع... والتقطت أذنا أم حنفي صوت المؤذن فانقبض قلبها، وصاحت بصوت مختنق:

«يا رب».

ثم هدأت الأصوات بعد ضجيج، وتجمعت النسوة في منزل المعلم محمد لا يفارقنه، التففن حول أم محمود وأم حنفي، ورحن يتحدثن ويثرثرن ويتساءلن وينتظرن الأخبار... ثم تفرق حديثهن، وتقطع، وتباعد... فران السكون وغرقت كل منهن في صمت كئيب.

***

في ركن الحجرة جلست عائشة وقد دفنت رأسها في كفيها، وغاصت في لجة عارمة من التفكير... ورغم حزنها الصادق، ورغم بكائها الحار، فإنها فشلت في الهرب مما كانت تعيش فيه في تلك الأيام... راحت تتساءل في خوف عما سيفعلونه بحنفي؟... زقاقهم نظيف لم تطأه قدم جندي طوال تاريخه الطويل، وماذا صنع حنفي حتى تقبض عليه الشرطة؟!... ولماذا أتوا في جوف الليل ولم ينتظروا حتى

الصباح؟! وهل سيأتي السيد أفندي ليسأل عن الخبر؟... ومتى يأتي؟... هل سيتزوجها أم ترى الأمر سيقتصر على المغازلات؟... أتصده أم تقبل عليه؟... طالما قررت أن تصده بجفاء، وترفض حديثه المعسول وغزله الملتهب، طالما حاولت وجاهدت، وبكت وتألمت... لكنها كانت تفشل، دائمًا تفشل... ما إن تراه حتى تذوب في نظرات عينيه الجسورتين، وتنسيها كلماته كل شيء عدا وجوده وحبه... قال لها ذات يوم وهو يغادر البيت:

«ما بقتش قادر يا عيشة!».

ردت عليه بصوت مرتجف:

«ومين حايشك يا سي السيد؟».

«يعني نتوكل على الله؟!».

«حنفي تلاقيه في القهوة دلوقت!».

«بنقول يعني... الصبر طيب!».

«كل صبر وله آخر!».

«حبي لكي مالوش آخر وحياة النبي محمد!».

«وانت بتحبيني يا عيشة؟».

ارتجفت، صوب إليها نظراته فنفذت إلى قلبها وسكنت فيه، وجعلته يرقص رقصًا مجنونًا، تلاحقت أنفاسها، وبردت أطرافها... حاولت أن تتحرك، أن تفر من أنفاسه التي كانت تقترب، كيف تفر وهذه الأنفاس تشدها إليه وكأنها عبير الحياة؟... صدره العالي يحجب عن عينيها كل

شـيء، فلا ترى سـواه، صاعـد هابط، ضخـم هائل، يمتلـئ بالهواء في شـهيق يـكاد يجرفها إلـى الداخل، كم تتمنـى أن تعيـش داخل صدره، عيناهـا تغلقان بقدرة هائلة، يداه تطبقان على كتفيها، وصرخة تتمرد في صدرها، تمتد وتتضاغط ثم تتهاوى لتصبح أنفاسًا باردة متقطعة، عندما لامسـت شـفتاه جبينها أصيبت بدوار، وتسـلل خدر كخمـر الجنة إلى جسـدها... لتمُتْ زوبة، وليذهب حنفي إلى الجحيم، لكن صوت أمها انبعث في تلك اللحظة كفرقعة سوط أيقظها من أعمق موتة!... ارتجف جسده وتشبث بها، لكنها صحت وأفاقت والصوت يلاحقها: «عيشة... عيشة»، لماذا لا تموت هذه العجوز وتتركها لحالها؟!

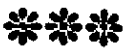
«فتك بعافية يا عيشة!».

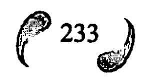
«فتك بعافية يا عيشة!».

قال لها ذلك وهو يغادر البيت مهزولًا... واختفى عن نظرها فقالت في صوت حالم:

«ربنا يعافيك ويرضيك يا سي السيد!».

لمـاذا مضى، لماذا ذهب؟... أحلى ما فـي الدنيا هو الرجل، أجمل مـن الأم، وأروع مـن الأخ، وأقـوى مـن الأب... الصـوت يلاحقهـا، تسـتدير مسـرعة في غـل وغيظ، لمـاذا لا تكف العجوز عـن النداء إلى الأبـد، لمـاذا لا يحملهـا حبيـب القلـب إلـى آخـر الدنيا حتـى لا ترى سـواه؟... ليأخذهـا من هذا البيت، إلى أقذر بيـت، وأحط مجتمع، فما عاد في صدرها متسع للصبر.





النسوة حولها عدن إلى الثرثرة من جديد، وخزة ضمير يقشعر لها بدنها، كيف تحلم بالحب وشقيقها في السجن؟... أخذوه عنوة، واختطفوه على غير انتظار، كان شخيره يملأ الحجرة ثم انقطع، هل ستسمعه مرة أخرى؟!... كيف تفكر في السيد أفندي؟... من أي معدن خلقت؟...

«يا حبيبي يا خويا، يا زين الرجال يا حنفي».

لماذا يثرن ويصرخن في وجهها، لماذا يقلن لها: «بعيد الشر»؟، كم هي لذيذة دموع الحسرة عندما تبلل أطراف جفوننا الملتهبة بقيظ الحرمان!... زوبة منكمشة على نفسها تبكي في حرقة، مشاعر غريبة تتلاطم في صدرها، لا تدري إن كانت تحبها أم تكرهها... لماذا تبكي هذه الفاجرة، أعلى حنفي حقًا أم على قبلاته وضماته... ضوء النهار يتسرب إلى الزقاق، والشمس تصعد الآن من وراء الأرض لتغمر كل شيء، والوقت يمضي وحبيب القلب لم يحضر ليسأل عن الخبر... لكنه حتمًا سيأتي... وسيقف مع الرجال كألف رجل...

«إحم إحم... يا ساتر... يا جماعة!».

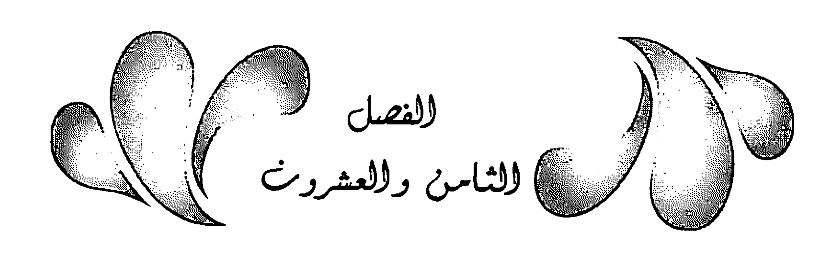
كف يا قلبي عن الخفقان، يجذبك صوته بخيوط سحرية فتتراقص وكأنك في زار أقيم للقلوب الملتاعة، مجنون أنت؟!... اثبت حتى لا ترى النسوة لهفتك للقائه!...

«قومي يا عيشة ردي على السيد أفندي، قومي يا بت!».

عينا زوبة مسلطتان على وجهي، دموعها جفت هذه الثعلبة، السخرية تطل منهما وكأنها تعرف كل شيء... وصوت العجوز يلح في رتابة:

«اتحركي يا بت الراجل واقف!».

«حاضر يا امه، حاضر... دهدي!!».



الفصل الثامن والعشرون

كان السيد أفندي موقنًا في قرارة نفسه أن حنفي البلطي لن يوافق - بشكل أو بآخر - على زواجه من عائشة... كان يشعر أن عائلة البلطي - رغم ما يربطه برجالها من ود وصداقة - حصن من المستحيل عليه اقتحامه بحال من الأحوال... وحتى عندما استجابت عائشة لغزله، فسر تلك الاستجابة بإقبالها عليه دون النظر إلى أصله وفصله، فسر ذلك بأن الحب أعمى، وأن القلب له واحد... وللحظ، الحظ وحده، كان هو هذا الواحد!

ورغم ما كانوا يظهرونه له من حب حقيقي وتقدير عميق، فإن جبنه وخوفه كانا يتغلبان عليه دائمًا، فما أن يقرر التقدم لطلب عائشة، حتى توقفه قوة قاهرة لا يستطيع حيالها غير التراجع والانكماش والصمت.

وكان يعجب أشد العجب لذلك الارتياح الذي كان يشعر به كلما تحدث الرجال عن سفينة عبد الموجود حمدان، ولم يستطع في البداية أن يفسر ارتياحه هذا، وقد بدا له أنه جرم عظيم، على أنه استطاع أن يكشف عن سره ذات ليلة... عندما راح يفكر في ذلك اليأس الذي انتاب الرجال أخيرًا، وذلك الضعف الذي كان يغزو تصرفاتهم وأفكارهم يومًا بعد يوم آخر... أحس في تلك الليلة أنه أقوى منهم، أو على الأقل أصبح

يساويهم... وأزعجه هذا الإحساس أيما إزعاج، لكنه - كالعادة - استطاع أن يتغلب على شعوره هذا بقليل من الجهد، بل أصبح من الواضح أنه يتمنى أن تأتي السفينة، وأن تهزم البلطية بأحمالها وقوتها!

وقد جاءت السفينة، وعلم بخبر القبض على حنفي ومحمود... كان ذلك في المقهى الذي اعتاد أن يشرب فيه كوب الشاي كل صباح قبل ذهابه إلى المستشفى... سمع الرجال يتحدثون بما وقع في الليلة السابقة، فراوده شعور بالفرح والغبطة لوصول السفينة للحظة، لكنها كانت مجرد لحظة خاطفة، اختفى بعدها من نفسه كل شعور أو إحساس عدا إحساسه بالمسئولية، وأن حنفي ومحمود في السجن، وأن عائشة ربما كانت في حاجة إليه... وأحس لأول مرة في حياته أن عليه واجبًا!!

نهض من مقعده كالملدوغ، وغادر القهوة وقد سيطرت عليه اللهفة، ولم يفكر - ولو لبرهة - في المستشفى، وفيما يمكن أن يحدث لو تأخر عن موعده... لم يفكر في رفض حنفي أو قبوله، ولم يفكر فيما يمكن أن يظهر به أمامها لو صنع ما يمكن أن يصنعه في مثل هذه الظروف... كل ما فكر فيه وأحسه، شعر به، هي لهفته على الوصول إليهم، فربما كانوا في حاجة إليه.

وفي منتصف الطريق إلى الزقاق، تذكر فجأة أن عليه أن يتوجه إلى القسم حيث يوجد الرجال، فالزقاق لا بد خال منهم... لكنه لعجبه ودهشته لم يفرح لهذا الخاطر، ولم يستطع أن يحول قدميه عن خط سيرهما، كان مندفعًا في طريقه بسرعة لم يعتدها في سيره... ربما كانت النسوة في الزقاق في حاجة إلى شيء... ليقم بواجبه أولًا حيث تشتد الحاجة إليه، ثم لينضم بعد ذلك للرجال.

ومـا إن اقترب من الزقاق حتى داهمه إحسـاس طاغ بالضياع، وجد نفسـه يتسـاءل في جد غريب: «**لمـاذا لا يتقدم للزواج من عائشـة؟**»... تغير مجال تفكيره حينما ملأت خياشـيمه رائحة الزقاق التي كانت تثير عواطفـه وغرائـزه إثارة لا قبل له بمقاومتها، وبـدت له مخاوفه في تلك اللحظـة تافهـة حقيـرة... وبدت لـه أكثر تفاهـة وحقارة عندمـا طالعته عائشـة بوجههـا المحتقـن وعينيهـا المتنفختيـن وشـفتيها ودموعهـا وجسـدها المرتجـف... بـدت له كقطـة ضائعة لا حول لهـا ولا طول، فانفجـر فـي أعماقـه إحسـاس فيـاض بالحنـان... تبـادل معهـا كلمـة أو كلمتين، وسألها إن كان أحد في حاجة إلى شيء، فشهقت من خلال دموعها شهقة نفذت إلى قلبه مباشرة...

«**ربنا ما يحرمناش منك يا سي السيد...**».

أراد أن يتلكأ، فنخسـه شـعوره حيال الواجب نخسًا دفعه إلى توديع عائشـة بكلمـة خطفها خطفًـا وهو يسـتدير مغـادرًا مكانـه... على أن صوتهـا مـا لبـث أن استوقفه مرة أخـرى، فوقــف وبينه وبيـن ناصيـة الزقــاق خطوتـان أو ثــلاث... حيــث تجمــع بعــض الرجـال عند الأسطى عبد المولى الحلاق، وأخذوا يرقبون معه في شيء من الدهشة كل مـا يجـري فـي داخله، وعلـى الرغم مـن هــذه العيـون المسـلطة عليهما، فإن عائشة أخذت تتقدم منه غير مبالية حتى كـادت تلتصق به، وامتـدت يدهـا وأمسـكت بذراعـه ورفعـت إليـه عينيهـا فـي توسـل وهي تهمس:

«**مـا تتأخـرش عليَّ والنبي يا سـي السـيد، ربنا يطول لنـا في عمرك، ويحميك لي من كل عين!**».

عنـد ذلك فقد الرجل سيطرته حتـى على تفكيره، فـاض به الحنان فامتـدت يـده وربـت علـى كتفها وهـو يقـول لها بحـدة الرجـل الذي يخاطب امرأته:

«ارجعي انتي البيت، آني حانشوف اللازم!».

خفضت رأسها في استسلام وهي ترد عليه بصوت خفيض:

«حاضر!».

كانت نشـوته في تلـك اللحظة قد وصلت إلى قمة القمم، فاسـتدار مغـادرًا الزقاق وهـو ينظر أمامه في حدة من يعلـم طريقه جيدًا، وعندما ألقى بالسلام على الرجال المجتمعين عند ناصية الزقاق، والذين كانت الهمسات تتململ في حلوقهم وعلى ألسنتهم في انتظار ابتعاده، كان قد اتخـذ قـرارًا... وكان قراره هذه المرة حاسـمًا لا رجعة فيه... سـيطلب عائشة فور الانتهاء من الأزمة!

ولأول مرة في حياة السيد أفندي عبد الرحمن، الممرض بمستشفى الإسـكندرية الأميري، تغزو نفسه راحة من نوع غريب لم يعهده، كانت الطمأنينة قد هبطت على قلبه، فأحس برغبة طاغية في اللجوء إلى جامع ليتوضأ ويصلي... بل ويبكي في سـعادة... كان يرتجف بانفعال أخاذ، ويفكر في عائشة وكأنها زوجته تمامًا... ولم يفكر إطلاقًا في التردد، لم يعد يخاف حنفي أو المعلم محمد، بل أحس أنه يحبها للا شيء، ابتسم في سخرية عندما تذكر ما يقوله الناس عن السر الذي يتوارثونه بينهم أبًا عن جد... وقال هامسًا لنفسه:

«دول سرهم انهم ناس جدعان وحياة النبي!».

لـم تعـد هناك سـوى حقيقـة واحـدة لا تقبـل أي اعتـراض... هذه الحقيقة هي عائشة!

وما إن وصل إلى القسم، وألقى بنفسه وسط عشرات الرجال الذين تجمعوا حول أفراد العائلة، حتى انضم في غير تردد أو وجل إلى المعلم محمد ووقف بجواره في ثبات... ولشـد ما كانت دهشـته عندما تنبه - لأول مرة في حياته - أن الرجال يعاملونه كواحد منهم حقًّا... أفسـحوا لـه مكانًا بجوارهـم، وقصوا عليه القصة بحذافيرهـا، تمامًا كما يفعلون مـع رجـال العائلـة... وأحس السـيد أفنـدي بنظـرات رجال الشـاطئ المتجمعين وقد انصبت عليه من كل جانب في تسـاؤل، وسمع المعلم محمد وهو يقول، وكأنه يفسر لهم حقيقة غابت عنهم:

«سيد أفندي الباشتمرجي... واحد منا وعلينا!».

ومضت الدقائق...

وجـاء شـهود كثيـرون... وتسـربت الأخبار مـن الداخـل أن حنفي ومحمود كانا في القسم بالأمس حتى وقت متأخر، وأنهما قضيا ساعات بعـد ذلك فـي بوظة حسـين شـلوفة... وبـدأت الطمأنينة تغـزو قلوب الجميع عندما جاء حسين شلوفة، واندفع نحو حجرة التحقيق متحمسًا، وخرج منها متحمسًـا... وجـاء زين الطبال، والشـاطر الزمار، والمعلم جمعة... ورجل وراء رجل، ثم طلبوا من يضمن حنفي ومحمود!

وتقـدم على الفور المعلم محمـد وحمودة والمعلم صادق... وقال المعلم محمد وهو يتحرك نحو الداخل:

«يالله بينا يا سي السيد أفندي!».



فاندفع السيد أفندي في حماس وفرح... وعندما انحنى ليوقع على الأوراق، قال في إخلاص وفي صوت ثابت:

«برقبتي!».

وانتهى كل شيء... وخرج محمود وحنفي، وتفجرت في نفس السيد أفندي ينابيع سعادة لم يذق مثيلًا لها من قبل... وترك الركب الهائل مخترقًا شارع باب الكراستة، ثم شارع البحرية في طريقه إلى الميناء... وأخرج السيد أفندي ساعته، فوجدها قد جاوزت الثانية عشرة... فاقترب من المعلم محمد وقال له بصوت ثابت قوي:

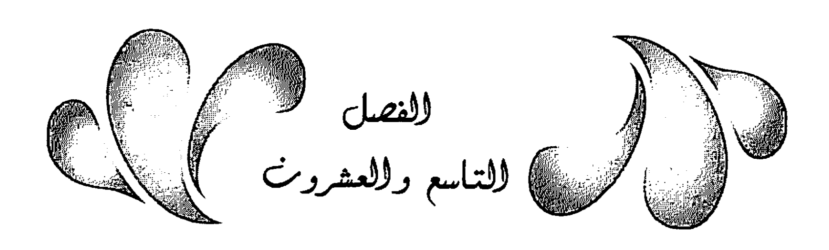
«آني حانروح الزقاق نبشر الجماعة يابا محمد، وبعدها نتوكل على المستشفى، نطلب إجازة ونرجع طوالي!!».

وهز المعلم رأسه موافقًا، بينما ربت السيد أفندي على كتف حنفي في حنان وهو يقول باسمًا:

«ألف نهار أبيض يا رجالة... ألف نهار أبيض».

وقال حنفي دون أن تتحرك تقاطيع وجهه الصارمة، والتي بدت في ذلك الصباح وكأنها قدت من الصخر:

«مع السلامة يا سيد أفندي ما تتأخرش علينا بالليل!».



كانت الشمس قد توسطت طريقها ما بين الشرق والغرب حينما ظهر السيد أفندي على باب الزقاق مهرولًا، وجهه الأحمر غطته قطرات العرق رغم برودة الجو، يطل من عينيه بريق فرح طاغ، شفتاه مضمومتان وكأنه اعتزم أمرًا هائلًا.

كانت عطيات أول من رآه، فأخذت تتقدم منه في خطى متعثرة متعجلة، أدهشها منظره الغريب المتلهف، فخفق قلبها خفقانًا شديدًا، وما إن اقتربت منه حتى قال وهو يطلق الكلمات في سرعة فتلاحق مقاطعها أنفاسه اللاهثة:

«مبروك يا ست عطيات، خرجوا دلوقت من الكركون، ظلم والله العظيم... ظلم اللي عملوه معاهم!».

جلجلت في الزقاق زغرودة عطيات، وأطلت على الفور وجوه ارتسمت عليها الدهشة الممزوجة بالفرح، وانطلقت زغرودة أخرى، وهرولت النسوة وغادرن البيوت مستطلعات ما يحمل الرجل من أخبار، وسرعان ما دوت الزغاريد متلاحقة متشابكة، وخرج الأسطى عبد المولى من محله وأطل على ما يجري داخل الزقاق وهو يقول لمن حوله: **«محمود وحنفي خرجوا!»**... ووقف طفل، وتوقف آخر كان يجري، وتجمع رجال ونساء وانطلقت الزغاريد من الأفواه، والسيد

أفندي يقف وسط حلقة النسوة منفوشًا يطل من عينيه فرح كان يرتجف له، يحملق في الأفواه المزغردة أمامه، والألسنة تتحرك في فرقعة عالية كأنها لهيب نار محبوسة، ودارت عيناه ثم توقفتا عند فم... شفتاه الرقيقتان انفرجتا عن ابتسامة، يعلوها أنف كبير غير أنه متناسق، وعينان بدتا في تلك اللحظة وكأنهما تزغردان بالنظرات، وضوء الشمس المطل من أعلا الزقاق يستلقي على تقاطيع الوجه ليضيئها بنور هادئ، والتقت عيناه بعيني عائشة، وابتسم في جزل وكأنه طفل، وابتسمت في سعادة، فهمس ومن حوله كل النساء وكأنه نسي نفسه تمامًا:

«الليلة يا عيشة... الليلة بإذن الله!».

وارتفعت كف عائشة إلى أعلا فمها، وانفرجت شفتاها، وتلاعب لسانها في زغرودة ارتفعت لتغطي بجلجلتها على كل ما عداها، وتوقفت النساء ورحن ينظرن إليها، وظلت هي تزغرد وتزغرد، وتطلق حنجرتها رنينًا ذهبيًّا نفذ إلى كل قلب... و... وعندما توقفت وهبطت يدها إلى جوارها، بانت عيناها وكانتا دامعتين باسمتين جميلتين كأحلى ما تكون العيون.... وراحت تلتهم وجهه بنظراتها، ثم انتبهت لنفسها فولت الأدبار، واختفت وراء باب بيتها وهي تمسح دموعًا غزيرة كانت تنهمر بلا حساب.

وما كادت تصل إلى الفناء، وتستدير إلى اليمين، حتى توقفت. كانت زوبة قابعة بجوار باب حجرتها وهي تبكي في صمت، متمتمة في راحة.

«الحمد لله، الحمد لله، ألف حمد وشكر يا رب... نحمدوه!».



توقفت عائشة قليلًا... ورفعت زوبة إليها عينين مبللتين بالدموع، وما إن التقت عيونهما، حتى ارتجفت عائشة، ثم اندفعت - بلا وعي - تلقي بنفسها إلى جوار زوبة، وتحتضنها في حنان... وازداد بكاء زوبة، وانهمرت دموع عائشة بغزارة وهي تهمس في صوت هادئ:

«زوبة...».

«الحمد لله على سلامته يا عيشة!».

وتساءلت بينها وبين نفسها، كيف كرهت زوبة وهي التي أحبت أخاها؟!...

«زوبة... كفاية عياط يا بت خالتي!».

«ربنا يطول عمره ويخليه لكي يا بت خالتي!».

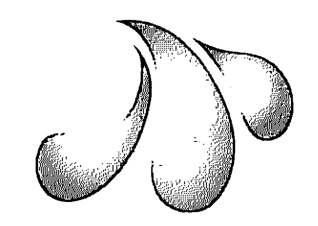
وابتسمت عائشة بكل وجهها، ثم همست في عتاب وهي تلتصق بزوبة:

«وليكي انتي كمان يا زوبة... يا ندامة ياختي!».

ولاح على وجه زوبة شبح ابتسامة... ثم نظرت كل منهما نحو الأخرى، وألقت بنفسها في أحضان أختها... وغابتا في بكاء سعيد!



الفصل الثلاثون



اشتد الضجيج في مقهى سلومة، واختلطت الأصوات، واحتد النقاش، وتشابكت الكلمات والألفاظ الغاضبة في عراك ثائر مضطرب.

كان المعلم محمد البلطي - كعادته - يتصدر المجلس، وقد اكتظ المكان وامتلأ بالرجال الذين تركوا قواربهم حيث كانت منذ الليلة الماضية، فبدت لهم في ذلك الصباح كأنها هياكل عظمية لأطفال متسولين متناثرين حول عظيم ضخم الجثة مترهل التقاطيع، تغطيها شباك رقيقة كالخروق البالية لا تستر منها عورة، بينما تتدلى من جوانب سفينة عبد الموجود شباك غليظة سميكة كأنها كسوة غني مقتدر...

عندما رأوها في الصباح وقفوا أمامها مبهوتين، قد انغرس نصل الهزيمة في صدورهم فأوجعهم، وخرجت كلماتهم حينئذٍ كالأنين، وتكوم بعضهم فوق الرصيف يختلس النظر إلى الوحش الجاثم أمامهم فوق سطح المياه في خوف ورعب وحسرة، وراح البعض الآخر يهذي بكلمات لا معنى لها... وصعدت الشمس من وراء الأفق، وفتحت الدنيا عينيها، فما فكر أحد منهم في مغادرة مكانه أو الخروج بقاربه... وتسامعوا بما حدث في الليلة الماضية لعبد الموجود، فلم يختلف اثنان منهم أن الفاعل هو حنفي دون غيره... وجاءتهم الأنباء بأن

محمـود وحنفي قد قبض عليهما، فأشـاح رجل منهـم قائلًا في صوت مختنق:

«آني ورايا عيال!....».

وقال آخر:

«آهي دي آخرتها!!».

وغمغم ثالث:

«يا عم دا عبد الموجود مشارك الإنجليز... هو حد قدهم؟!».

وهب رابع يصيح في ثورة:

«لكـن حنفي ما سـابش وراه عيال يا رجالة، هـي دي تيجي؟... كل واحد منا بكلمة ونسـيبوا الراجل في الكراكـون... أقلها نعملوا حاجة، آني نروح الكراكون ورزقي على الله!».

ولم تطل المناقشـة، أحس البعض أنه كان يكذب على نفسه، وشعر البعـض - رغم الإحسـاس باليـأس - بغيظ يدفعه إلـى الوقوف بجوار حنفي، واندفع الباقون بلا تفكير وراء الذاهبين إلى قسم الشرطة.

وعلـى غير ما ظـن الجميع، ما إن أذن الظهـر وانتصف النهار، حتى أفـرج عـن حنفـي ومحمود.... فعـاد الجميـع إلى الرصيـف مخترقين شـارع البحرية فـي مظاهرة صاخبة، ومـا إن تجمعوا فـي المقهى حتى أمدهم تجمعهم براحة لم يعهدوها في أنفسـهم منذ زمن طويل، وما إن مضت الدقائق، حتى اشتد صخبهم وجدلهم وصياحهم.

ارتفع صوت رجل من وسط الجمع صائحًا:

«كلنا نعرفوا كده كويس يا معلمي، محدش من عيلة البلطي يضرب في الضلمة... محدش منهم يعملها أبدًا!».

وصاح آخر بحماس شديد:

«ما هو إحنا لو سيبنا عبد الموجود على حل شعره، حايتفرعن أكتر واكتر... لازم نشوفوا لنا حل، واللا إيه يا سي حنفي، ما لك ساكت كده؟!».

رفع إليه حنفي عينين جامدتين، ليس فيهما ما يوحي بما يفيض به صدره من ضيق وحنق.... ثم عاد ونكس رأسه من جديد، وراحت عيناه تتنقلان بين الوجوه، حتى استقرتا فوق وجه محمود، فهمس حنفي في صوت خافت:

«مالك يا محمود، بتفكر في إيه؟!».

وزفر محمود ولم يرد... وارتفع صوت المعلم محمد وهو يرد على رجل كان يحدثه:

«مفيش حد يعمل حاجة... تو ما ينزل عبد الموجود الشط، ويقرب ناحية المتعوسة دي، آني حانعرف نأدبه إزاي!».

جز محمود على أسنانه، وقال موجهًا الحديث لأبيه:

«حاتعمل إيه يابا؟!».

«حانعرف شغلي كويس!».

وعاد محمود إلى الحديث، فصمت الجميع وقد تعلقت عيونهم بالرجل وولده:

«اللي انهان آني وحنفي يابا، واللي يربيه آني وحنفي برضه!».

لاح الشر فجأة في عيني المعلم محمد، وصرخ بصوت مجلجل:

«آني قلت محدش يقرب له، يعني محدش يقرب له، فاهم يا واد؟!».

«إحنا يا بويا رجالة، ما احناش عيال!».

وعلى غير انتظار، رفع المعلم محمد يده وهوى بكفه على صدغ ولده، ودوى صوت الصفعة في آذان الرجال، وسقطت غلالة الهدوء وانحسرت عن نفس المعلم محمد المضطربة الثائرة، واشتد السكون عمقًا، وتوترت الأعصاب، وانجذبت كل العيون نحو الرجلين وقد واجه كل منهما الآخر... وعاد المعلم محمد إلى الصراخ:

«انت بتبص لي يا واد، ارخي عينك إلا نقلعها وحياة مقام المرسي!».

زفر محمود وهو يرخي عينيه، بينما قال حنفي في هدوء:

«يابا محمد، في نفسي نقول كلمة وأجري على الله!».

كان صوت حنفي هادئًا ممتلئًا، وكأنه حائط هائل اصطدمت به ثورة المعلم محمد لتتفتت، غير أنه عاد إلى الصراخ من جديد وهو يجمع شمل غضبه في عناد:

«قلت اسكت يا واد!».

«إحنا ولادك صحيح يابا، لكن انت مترضاش الشنب اللي في وشي ده يبقى على مرة!».

وصاح المعلم محمد كمن فقد أعصابه:

«عيلة البلطي مافيهاش نسوان يابن الكلب!».

«ما انت عاوز تخلينا نسوان يابا محمد، كلامك على العين والراس، إنما.... إنما احنا درعاتك ورجالتك برضه... آني منقصدش نقول اللي قاله محمود، آني نقصد حاجة تانية!».

ووجد محمود ثغرة من الصمت، فقال بسرعة وهو يرمق المعلم محمد:

«برضه حنفي ويا‌ه حق يابويا!». حاول المعلم محمد أن يسيطر على مشاعره، وأن يكبح جماح غضبه لكنه فشل تمامًا، أحسَّ كأن شيئًا يجثم على صدره ليكتم أنفاسه... كان موقنًا أن حنفي لا يثرثر، فلا بد أن وراء كلماته شيئًا يريد قوله، وكان واثقًا من ذلك الشيء الجاثم على صدره، ذلك الهم الذي ابتلي به منذ أن علم به في الصباح.

رنا ببصره نحو ولده، وكان محمود صامتًا منكس الرأس، سارح النظرات كأنه ميت... فتساءل في مرارة: «كيف أحب ولده تلك العاهرة، وكيف زج بنفسه في جريمة كالتي حدثت بالأمس؟... بل الأنكى من هذا وذاك، كيف يذكر اسم البلطي مقرونًا باسم مومس و... وفتوة قاتل؟!».

منذ أن علم بالأمر وهو يبحث عن جواب، عن حل يشفي غليله، لكنه كان يزداد تخبطًا كلما أمعن في التفكير.... حمد للظروف أن صاحب ولده رجالًا وقفوا إلى جواره وساندوه وتحمسوا للشهادة معه دون تردد أو خوف... لكن، من هم أصدقاء ولده؟... ما هي أعمالهم؟... طبال وزمار وصاحب بوظة؟ ورجل اسمه جمعة، لا عمل له!

ثم... وكأنه يهرب من نفسه، وكأنه ضاق بكل شيء، رفع رأسه في حدة، وصاح بصوت كظيم طالبًا جوزة.... كانت هذه هي عادته كلما ضاقت به الحال، كف عن تدخين الجوزة منذ سنوات واكتفى بالسجائر، لكن الحنين كان يراوده بين الحين والآخر أو كلما شغل ذهنه أمر، وقتها كان يطبق على طرفها بشفتيه، ويملأ صدره بدخانها وكأنه يذيب فيه همومه... وقد جاءت الجوزة، وأطبق بشفتيه على طرفها وراح يمتص منها الدخان بشراهة كأنه طفل يرضع من ثدي أمه بعد حرمان مميت.... وعندما صاح أحد الرجال في مرح: «مع التعميرة كباية شاي من عندي آني، بس وحد الله يا معلمي وقول يا نبي!»... لم يملك العجوز نفسه من الابتسام، فسرت في الجو نسمة ارتياح، وتنهد حمودة وهو يقول:

«أيوه يا حنفي، كمل كلامك وقول كل اللي في نفسك!».

فقال حنفي وهو يوجه الحديث إلى عمه:

«بقى صلي بينا على المصطفى يابا».

وتصعدت الأصوات من كل جانب:

«ألف صلا على الحبيب».

وعاد حنفي إلى الحديث:

«يابا محمد ربنا عرفوه بالعقل، وعبد الموجود انضرب إمبارح بالليل... الكلام ده زين؟!».

قال المعلم محمد في لا مبالاة:

«هيه!».



«المركب وصلت إمبارح بعد العشا...».

«قصدك إيه... ما تتكلم دوغري!».

«قصدي نقول إن اللي ضرب عبد الموجود ناس منا، رجالة من اللي قاعدين معانا دلوقت!».

وجم المعلم محمد، وانتفضت الألسنة بالهمهمات والاستنكار، وارتفع صوت حنفي مواصلًا حديثه غير عابئ بالدهشة التي ارتسمت على الوجوه.

«آني بدي نقول كلمة... إحنا رجال الشط ده، وكل من فينا لازم يداري على اخوه، واللي ضربوا عبد الموجود إمبارح كانوا زيي وزي محمود وزيك يابا محمد، دمهم فاير... آني منقصدش إني نغير الموضوع أو نقلبه، لكن نقصد إني نسأل اللي عملوا العملة دي سؤال، هو الضرب حايجيب نتيجة؟ حايخلي عبد الموجود يرجع المركب بلدها؟».

صاح أحد الرجال وهو يواجه حنفي في تحد:

«قصدك إيه يا حنفي؟! هو ده اسمه كلام برضه؟!».

«أيوه كلام، وكلام مظبوط قوي، اللي يصح إننا نفكر فيه هو إزاي نضرب عبد الموجود في رزقه يا خلق، مش في دماغه... لو كان جرى للراجل ده حاجة، كان فيه ناس منا دخلوا اللومان، وكانت المركب حاتفضل برضه... بس حاتفضل وعلى قلبها واحد غريب، لكن احنا لو فكرنا بالهداوة، كلمة مني وكلمة منك، حانوصلوا لحل، كده واللا لأ؟!».

«لأ!!».

قالهـا محمود في ثورة نطقت بها تقاطيـع وجهه المتقلصة، والتفت إليه حنفي دهشًا! وعاد محمود يقول من جديد:

«أيوه لأ... إحنا لو سيبنا المركب تطلع مش حانلاقوا لقمة ناكلوها، مفيش حل غير كده، آني بنقولها بعلو صوتي، المركب دي مش...».

وقاطعه حنفي بصوت ثابت:

«اسمعني يا محمود لحد مانخلص كلام!».

«ما هو ده ما اسموش كلام يا حنفي!».

وصاح رجل متدخلًا في الحديث:

«هي هزلت، هي الخيانة حاتبقى عيني عينك؟!».

وزمجر آخر:

«حنفـي جرى له إيه، ده زي اللي بيقول للرجالة روحوا اشـتغلوا مع عبد الموجود، صلاة النبي يا جدعان!».

وانتفض حمودة وهو يصيح في الرجال بصوت مختنق:

«اسـتنوا شـوية لما الراجـل يخلص كلامه، هـو ده تفاهـم؟... إحنا حانتخانقـوا مع بعضينـا، طولوا بالكم لحد ما يقول سـلامو عليكم، أما عجايب!».

وعاد حنفي يحتد في الحديث صائحًا:

«افرضـوا إننـا غرقنا المركـب، حانكسـبوا إيه، ناس منـا حايدخلوا اللومـان، ومركب تانية حاتيجي، أو يعومـوا المركب تاني... هو لعب، دي فلوس يا خلق، فلوس... ألافات!».

وعـاد اللغـط مـن جديـد، واختلطـت الأصـوات فـي نقـاش حـاد مضطرب، وانقسـم الرجال إلى قسـمين وراحـوا يتصايحون، ويهذون ويتخبطـون... والمعلـم محمد قد دس طرف الجوزة بين شـفتيه وراح يجـذب منها أنفاسًـا متلاحقة، وحنفي راح ينقل البصـر بين الوجوه في حيـرة وكان واضحًـا أنـه يتعذب... ونسـي محمود شـجاره وتحمسـه وانفعاله في لحظات، وتراجع إلى نفسه وغرق في التفكير، راح يتساءل فـي ضيق: «لمـاذا تغلي دماؤه ويحتـد ويثور ويصيح ويخبط رأسـه في الحائط، ثم يهدأ دفعة واحدة وكأنه لم يكن الثائر الصائح المحتد؟!»... زفـر كمن يبكـي وهو يذكر كايداهم... وأخذت أصـوات الرجال تبتعد عن مجال وعيه تدريجيًّا، ثم تلاشت، بحث في ذهنه عن فكرة تعيد إليه الحياة، فلم يجد سـوى ركود آسـن بلا حياة... انفجر في صدره الغيظ مـن جديد، ثم أذابته سـحابة المرارة الداكنة عندما اكتنفته... شـعر كأنه ينزلـق في منزلـق بلا قـرار... إلى أيـن؟!... تمنى من أعماقـه أن يودع الحياة، ثم بدت له جميلة في العودة إلى البحر، وتمنى أن يترك الرجال فـي جدلهم وصراخهـم واحتدادهم ويقفز إلى القارب ويطرح الشـبكة ويجـذب الصيـد ويقول الشـعر في سـلام!... لاحـت البوظـة في أفق تفكيـره، فاضطـرب قلبـه بالحنين، ثم هـدأ... جو المقهـى أصبح دافئًا وكأن أنفـاس الرجـال مـن نـار حاميـة، رأى الحيرة فـي وجوههم وفي صراخهم، وشعر أنها تمزقهم، فحزن حزنًا شديدًا... حزنه أصبح كرداء غليظ لروحه هيهات أن تلقيه عنها!... ماذا يريد الرجال؟... وماذا يريد هو؟... ولماذا فعل عبد الموجود فعلته تلك؟ تمنى أن يلقي برأسه فوق صـدر أبيـه ويبكي فـي حرقة!... أبـوه يتحـدث لكن الصـوت لم يكن صوتـه، فتسـاءل في لهفـة، من أين جـاء المعلم محمـد البلطي بصوت

كهذا... كان صوتًا مرهقًا متعبًا، كلماته تلهث فوق شفتيه وكأن خروجها إلى الأسماع رحلة شاقة!... حتى أبوه؟... من بقي بعد ذلك؟...

«آني شايف يا جدعان إن حنفي معاه حق، طولوا بالكم عليه لما يخلص كلامه، وكل اللي نفسه في كلمة يقولها!».

ما هذا؟... لماذا لا يصرخ ويأمر ويسب ويلعن كعادته؟... لماذا يصمت أمام رجل يتحدث ويطرق كمن فقد القدرة على مواجهة الناس؟...

«كلامك مظبوط يا معلمي...».

هز العجوز رأسه بشفتيه على الجوزة وراح يجذب منها الأنفاس في شراهة، وارتفعت يمناه بكوب الشاي ورشف منه على مهل... وعاد الرجال إلى جدلهم غير عابئين بحديث المعلم محمد... كيف يقبل من كان صاحب الكلمة أن يردد وسط الصخب:

«على مهلكم يا ولاد... ما هو ربنا عرفوه بالعقل!».

«عقل مين يا معلمي... دي لقمة عيشنا!».

كيف ينظر إليه في حيرة، ثم يطرق عندما يبدأ حنفي الحديث وكأنه بلا حول ولا طول؟... أين ثورته؟... أين صفعاته وزئيره؟... كان جميلًا رائعًا.... لكنه الآن مسكين مهلهل التقاطيع والكلمات... وحنفي يعود إلى الحديث من جديد:

«دلوقت المركب حاتشتغل يعني حاتشتغل، وعبد الموجود ما دفعش فيها الآلافات هو والإنجليزي بتاعه لله... وبكره تطلع عرض البحر وتغرق السوق بالسمك، فاهمين يعني إيه الكلام ده؟... حانعملوا إيه ساعتها، إيه اللي حانعملوه... لازم نفكروا في طريقة، ونعثروا لنا على حل!».

«**عندك انت حل يا معلم حنفي؟!**».

قال رجل ذلك وهو يضحك ساخرًا، فقد تذكر فجأة ما قاله الرجال ذات يوم من أن حنفي قد خاوى جنية، كان يومها موقنًا أن حنفي سيفعل شيئًا، كان واثقًا أنه سيصحو ذات صباح ليجد معجزة قد هبطت من السماء لتحل المشكلة، لكن المشكلة لم تحل، جاءت السفينة ووقع ما كان الرجال يرتعبون لمجرد ذكره، وانضم حنفي إلى جيش العاجزين الحيارى... فضحك من نفسه، ضحك في سخرية وكأنه يبكي، ثم سأل حنفي ذلك السؤال على الرغم منه، وتحمل نظرات الرجال وزمجرة حنفي في استسلام، وعاد يقول معتذرًا:

«**بلا مؤاخذة... بلا مؤاخذة، غصب عني وحياة النبي!**».

وكاد صبر حنفي أن ينفد، هز رأسه كمن يطرد أفكارًا شيطانية، وعاد إلى الصمت من جديد، كان يعلم أن الطريق طويل، وقد أوحشه الشاطئ المهجور، وأوحشه وجه أبيه، فتمنى لو ترك الرجال ومضى إلى صخرة رأس التين، وتمنى أن يلقي بنفسه في المياه ويصيح بكل ما يملك من صوت: «**يابا... يا سيد يا بلطي، نعم إيه يابا، نعم إيه؟!**»... على أنه - لدهشته الشديدة - أحس بالفتور يتسرب إلى نفسه، ورفض في لحظة بدت له رهيبة كل هذا، وسخر غير عابئ بكل ما آمن به، وراح يتساءل: «**ماذا فعل السيد البلطي؟... وماذا ترك وراءه؟... أهي تلك الأساطير التي تحكي عن كفاح رجل شق طريقه في الحياة بذراع جبار؟!... لماذا لم يسلمهم مفتاح النجاح قبل ذهابه؟... لماذا لم يورثه سره وسر قوته؟... وماذا كان يفعل لو كان حيًّا؟!... أكان يقتل عبد الموجود، أم يضربه، أم يقسم البحر بينه وبين الرجال؟!**»....

شيء قاهر يتمدد في أعماق حنفي، إحساس رهيب يكفي لتحطيم قلبه، وذكرى السيد ما زالت عزيزة، ومجد هزيل لا يزال أفراد العائلة فيه كالمخدرين، زقاق مهدم، وبيوت متداعية، وقوارب تبدو كالسمكات الوليدة أمام حوت ضخم يكاد يبتلع كل شيء!

وأفاق حنفي من غيبوبته على صوت رجل يقول:

«ما لك يا حنفي، سكت ليه؟... ما تتكلم يابن الناس!».

لكنه لم يكن يريد الحديث، تطلع إلى الوجوه المحيطة به وكأنه يراها لأول مرة، وكان يعود إلى إطراقه من جديد عندما قال عمه:

«ما تتكلم يا حنفي، مالك يا واد؟!».

فرفع رأسه إلى أعلى، وكأنه يبحث في السقف عن حل... فراح يجمع أشتات عقله، وما كاد يفتح شفتيه بالحديث حتى توقفت الكلمات في حلقه، فقد علا في ذلك الوقت صوت قوي واضح، نفذ إلى كل أذن، وارتجف له أكثر من قبل:

«السلام عليكم يا رجالة!».

استدارت كل الرءوس في دهشة نحو الباب، وأحاطت النظرات بجسد عبد الموجود حمدان الفارع، ووجهه الذي علته ابتسامة واسعة، وران السكون على الجمع... ثم قال عبد الموجود وهو يوجه حديثه للمعلم محمد:

«آني جاي نبوس على راسك يا معلمي!».

وصمت قليلًا، ثم استطرد وهو يخطو داخل المقهى:

«نبوس راس حنفي ومحمود كمان!».



تقدم الريس عبد الموجود مخترقًا صفوف الرجال في جسارة، وقد غطى كتفيه بشال من الحرير، واستدارت حول رأسه لاسة ثمينة لم تخف رباط الشاش الأبيض الذي يضمد جبهته... وتحت عينه اليمنى ظهرت آثار الضرب زرقاء صارخة، بينما جاهدت ابتسامته في إخفاء ذلك القلق الذي كان يطل من عينيه.

أخذ الرجال يوسعون له الطريق حتى وقف أمام المعلم محمد البلطي، وسرعان ما فرد ذراعيه وانقض عليه بالقبلات، ولم يتحرك المعلم محمد، كانت المفاجأة قد ألجمته، فاستسلم لكل ما يحدث دون مقاومة... ورفع عبد الموجود شفتيه من فوق رأسه، ثم استدار نحو حنفي ومحمود، وصاح بصوت مدو:

«آني غلطان، الحق عليَّ فوق وتحت، ورجال الشط كلهم شاهدين، لكم عندي حق عرب ولو ان مليش ذنب، واللي يقوله معلمي ماشي... وآدي راسك يا حنفي!!».

أتى حنفي بحركة سريعة بغية الفرار، غير أن عبد الموجود كان قد وضع في حسابه مثل هذا الأمر، فانقض عليه في اللحظة المناسبة، وأحاطه بذراعيه، وهوى فوق رأسه بالقبلات وهو يغمغم:

«آني زي اخوك الكبير برضه، آني في سن ابوك برضه!».

وظل محمود ساكنًا، ينظر إلى عبد الموجود في غل وغيظ أذكتهما تلك الحيرة التي لم يستطع الفكاك منها، والتي راحت تدفعه نحو استسلام كانت نفسه تهفو إليه... وما إن رأى عبد الموجود حتى تعلق بذلك الخيط من المقاومة، وقرر أن يقويه بعناد... لذلك، ما كاد عبد الموجود يستدير نحوه حتى صرخ:

«إياك تلمسني، آني منصالحشي غير رجالة عندهم شرف!».

ابتسم عبد الموجود ابتسامة واسعة، وهو يقول بصوت عال ليسمعه كل الرجال:

«برضه حقك عليَّ وانت زي ابني!».

انتفض محمود وهو يدفع عبد الموجود من أمامه متشبثًا بالبقية الباقية من غضبه:

«انت حاتبعد عني واللا لأ؟!».

والرجال صامتون يتابعون ما يحدث أمامهم وكأنه لا يمت إلى الواقع بصلة، كان حضور عبد الموجود المفاجئ أمرًا لم يتوقعه أشدهم تفاؤلًا... وبدا لهم ما يحدث أمامهم غريبًا أشد الغرابة... على أن الأغرب منه هو ذلك الشعور العميق بالارتياح لمجيء عبد الموجود، كانوا يتناقشون ويحتدون ويتحمسون وعقولهم غائبة وراء الغد الآتي عليهم كغول لا يرحم... ولقمة العيش التي كانوا يشعرون وكأن يدًا قاسية تنتزعها من أفواههم وأفواه عيالهم... استسلموا لشعورهم الغامض بالارتياح، وضيقهم - الذي بدا أشد غموضًا - لموقف محمود... كان تصرفه أكبر مما تطيقه قلوبهم الخافقة إلى حل يهبط

عليهم من السماء، وها قد فتحت لهم طاقة أمل، وبدا لهم أن الحل أصبح بين أيديهم... وإلا، فلماذا جاء عبد الموجود حمدان، وهو المنتصر؟!

كان أكثرهم إحساسًا بتلك الانفعالات هو المعلم محمد البلطي... أطرق إلى الأرض... وراح يعبث بأصابعه في شعيرات شاربه... بحث عن عناده فوجده قد ذاب تمامًا، استنجد بماضيه وعراقته، فأحس بهما باهتين لا قيمة لهما أمام القوة الجديدة... وقع في براثن الإحساس بالعجز، وبان له شبح الهزيمة قريبًا، فرفع رأسه إلى ولده الثائر، وقال بصوت خفيض:

«اقعد يا محمود، اقعد يا ابني وقول لا إله إلا الله!».

«ما هو لا إله إلا الله يابا، إنما ده تهمني آني وحنفي وحب يرميني في اللومان... يرضي مين ده؟!».

وصاح عبد الموجود:

«عليَّ الحرام من بيتي ما حصل، وعهد الله اللي باربعين يمين ما حصل، مظلوم يا خلق، مظلوم والله العظيم!».

وصرخ محمود في صوت راعد:

«كداب... كداب!».

استدار عبد الموجود نحو الرجال موليًا «محمود» ظهره، وراح يخاطبهم في توسل أنكروه في البداية، ثم استعذبوه... وقرأ هو ما ارتسم على وجوههم من علامات التصديق، فاندفع يهاجم ضعفهم في غير رحمة:



«آني ما قلتش كلمة واحدة في حق محمود ولا حنفي، كل اللي صدر مني آني قلت منعرفش مين اللي ضربني خوانة، الحاكم العسكري لقاني مرمي في الشارع، وده يصح يا رجالة، هو آني مش منكم برضه؟... المهم، الراجل راح مزعق ومصفر ولم الدنيا عليَّ وخدوني المستشفى، وجاني واحد ظابط قال لي مين عمل فيك كده يا عبد الموجود؟ قلت منعرفش، قال لي فيه تار بايت بينك وبين حد، قلت كل الرجالة حبايبي آني ليَّه مين غيرهم؟!».

وتوقف عبد الموجود وهو يلهث، وأخذ يدير بصره في الرجال ليرى أثر حديثه فيهم، وسرعان ما سرى الحماس في نفسه من جديد، كان يلمح بوضوح اهتمامهم الشديد، وسمع أحدهم يمصمص بشفتيه فرقص قلبه طربًا، واستطرد في صوت متوسل:

«جه المأمور بنفسه وقال لي يا عبد الموجود القنصل الإنجليزي اتكلم في التليفون وبيقول إن شريكك قاعد جنبه...».

وقاطعه محمود في حدة:

«وإيه اللي عرف شريكك؟!».

«آني يا محمود آني... ده مال برضه يا محمود، دي ألافات يا خويا... والراجل قعد يقول لي إنه لازم يعرف اللي عمل كده وإلا حايبلغ مصر وتبقى حكاية لا لها أول ولا آخر، قلت برضه منعرفش... سألوني فلوسك ضاع منها حاجة؟... قلت الكدب حرام، آني راجل شريف واسمي نضيف مضاعش مني ولا مليم، سألوني حد هددك مرة كده والَّا كده؟... قلت برضه ما حصلش... قالوا لي والخناقة اللي حصلت

بينـك وبيـن محمود البلطي، قلت حـدًّ الله ما حصل بينـي وبينه حاجة، عيلـة البلطي خيرها علـى الكبير قبل الصغير في الشـط من أوله لآخره، واللي يقول عليهم كلمة، أول من يقطع لسانه آني... فيه عيب في الكلام ده يا رجالة؟!».

صاح رجل من آخر المكان:

«فاتك العيب يا معلمي، الحمد لله جت سليمة!».

وصرخ محمود وهو يشعر بالحبل يلتف حول عنقه:

«لا والله مظبوط، فاتك العيب يا عبد الموجود يا حمدان!».

وقال رجل وهو يختلس النظر إلى حنفي:

«وكان فين الكلام ده ليلة إمبارح؟... كان فين!».

واستدار عبد الموجود نحو المعلم محمـد، وفرد ذراعيه في حركة مسرحية وهو يقول:

«عاجبـك كده يا معلمـي، عاجبك الكلام ده يابا محمد... آني بوسـت راسـك، وحلفت بالحرام من بيتي، ومستعد نحلف على ختمة يا ناس... آني فلوسـي فلوسـكم ومالي مالكم، والمركب كمـان مركبكم، والرجال اللي حايمشوها منكم، واللي حايطرحوا شباكها انتم... هو آني كفرت اللي جبت رزق للغلابة اللي ملطوعين على الرصيف... يعني آني غلطان؟!».

صمت عبد الموجود، ثم استدار فجأة نحو أحد الرجال، وأشار إليه صارخًا:

«انـت يـا حسـين مراتـك ولـدت أول إمبـارح... بذمتك جبـت لها الفرخة؟!... انت يوميتك كام؟!».



فغـر الرجـل فمـه، وشـحب وجهـه شـحوبًا شـديدًا، فانهـال عليه عبد الموجود يحطم ما بقي من مقاومته:

«غايته عشـر قروش يا حسـين، ويوم فيه ويـوم مفيش،مش كده يابن النـاس والا آنـي غلطـان؟... وقـدام الرجالـة دول كلهـم، يوميتـك من النهـارده، مـن دلوقت ربع جنيه، خمسـة وعشـرين قـرش، ومفيش يوم بطال، يوم ورا يوم... فيه غلط في الكلام ده يا رجالة؟!».

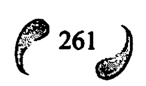
كان الصمـت الـذي ران علـى المـكان بعـد ذلـك أثقل ممـا تطيقه الصدور، وكان عبد الموجود لا يزال واقفًا في مكانه عندما نهض رجل وقـدم له مقعده، فجلس وسـط الرجـال منكس الرأس مفتـوح الأذنين للهمسـات التي كانت تعلو في دوي كدوي نحل أخذ ينشـط لحظة بعد أخرى... كان سـعيدًا كل السـعادة، قلبه يخفق بالجميل للمسـتر هوب فلولاه لانزلق فيما كان منزلقًا فيه ولخسر المعركة ولا ريب.

***

جاءه مستر هوب في الصباح بعد أن غادر المستشفى إلى بيته، وكان في صحبته أحد الكثيرين الذين عرف عبد الموجود الطريق إلى سهراتهم الصاخبة... وسـأله هوب عما حدث فقصه عليه، وكانت دهشته عظيمة عندما قال شريكه في هدوء وهو يشعل غليونه ويضطجع في مقعده:

«لقـد أخطأت يـا عبد الموجـود، فليس هـذا هو الطريق لاكتسـاب الرجال... يجب أن تتنازل فورًا عن حقك، يجب أن يكف البوليس عن البحث عن الذين اعتدوا عليك، وإلا خسرنا كل شيء!!».

فصاح عبد الموجود في إنجليزية ركيكة:



«كانوا يريدون قتلي يا مستر هوب، كانوا يريدون قتلي!».

ابتسم هوب وهو يرفع إلى شفتيه كأس الويسكي الذي قدمه عبد الموجود، وبدأ يتحدث في هدوء، ويرسم الطريق الذي كان على عبد الموجود أن يسير فيه دون اعتراض... وظل يتحدث ساعتين دون انقطاع، وفهم عبد الموجود نصف حديثه، وترجم له صاحبه النصف الآخر.... ورغم أنه لم يمارس التمثيل من قبل، فإن أحلامه كانت من الحدة حتى إنه لم يشعر بأية صعوبة وهو يؤدي دوره أمام الرجال... كان خائفًا في البداية من الفشل، كان خائفًا أن تنكشف نواياه للعيون، وألا يستطيع كبح جماح غضبه... لكن حديث هوب كان محفورًا في ذهنه فكيف ينساه؟!

«إنني يا عزيزي عبد الموجود أستطيع أن ألقي بهم جميعًا في السجن، أستطيع ذلك بمكالمة تليفونية واحدة، وأستطيع أن أفعل بهم ما لا يتصورونه من أفاعيل... إلا أننا لن نجد بعد ذلك رجلًا واحدًا يصعد إلى السفينة، لن نجد رجالًا يجذبون الشباك وهي محملة بالأسماك الضخمة، ولن نجد رجالًا يلقون بهذه الشباك، كما أننا لن نجد رجالًا يحملون أسماكنا... وباختصار يا صديقي العزيز، لن تعمل السفينة، وسنعاني الكثير إذا نحن استعنا بصيادين من الخارج، ولن نكسب مليمًا فأجورهم مرتفعة... أما هنا، فنستطيع أن نلقي إلى الفرد منهم بخمسة وعشرين قرشًا في اليوم!».

وصاح عبد الموجود كالمذهول:

«خمسة وعشرون قرشًا، إنه مبلغ سخي ضخم!».

وعاد هوب إلى الحديث بنفس الهدوء:

«أعلـم ذلـك جيدًا، أعلـم أن عشـرة قروش أو اثني عشـرة قرشًـا فيها الكفاية، ولكن... علينا أن نراعي ظروفنا، إنك - بسوء تصرفك وجهلك - أثرت الرجال ضدنا، فليس أمامنا إذن إلا أن نغريهم بالمال، وأنت نفسـك قلت لي إن رجالك انضم أغلبهم إلى باقي الصيادين ورفضوا أن يتسـلموا أجورهـم... نحـن في مأزق، وعلينـا أن نتصرف بحكمـة حتى نعوض ما جره علينا طيشـك، وبعد مرور الوقت سنعرف كيف نؤدبهم، ونتحكم في أجورهم، نزيدها أو نخفضها دون أن يستطيع أحدهم أن يعترض!».

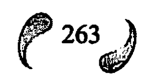
وكان هوب على حق!... وكان على حق عندما قال أيضًا:

«علينـا أن نفعل مثلما يفعل الساسـة، إن زعماءكـم يتهاوون الواحد بعـد الآخـر، وستسـمع ذات يـوم أنهـم قـد اتفقوا علـى حـل، وأبرموا معاهـدة لصالحنا ولصالحكـم... علينا أن نلقي للرجـال بالطعم، حتى إذا التهموه، وهـم لا بد فاعلون، نجذب السنارة ولن يستطيعوا الخلاص منها، ويصبح الشاطئ ملكنا، ملكي وملكك...».

وصمـت هـوب وراح يرقب عبـد الموجود خلال سـحابات دخان غليونه، ثم عاد يقول كمن تذكر شيئًا:

«آه... أمـا بالنسـبة لقواربـك، فيمكنـك أن تلقـي بها إلـى البحر، أن تحرقها، ومن الأفضل لنا أن نسـتعمل أخشـابها وقودًا في السفينة، فإنها جميعًا لن تساوي شيئًا عندما تبحر سفينتنا «باتريشا» للصيد!».

كان شـريكه على حـق، إن الأصوات تأتيه واضحـة لا غموض فيها ولا تخف ولا تردد.



«كلام مظبوط وحياة النبي!».

«ربع جنيه يا جدع، قول يا نبي!!».

«انت رايح يا حسين؟!».

«أمال يعني أرفض النعمة يا جدعان؟!».

وانتشى عبد الموجود، وامتدت يده إلى جيبه ليخرج صندوق سجائره، فخطر له أن يلعب لعبة، وأن يتقن دوره، فمال على جاره وقال بصوت عال كي يصل إلى أسماع الجميع:

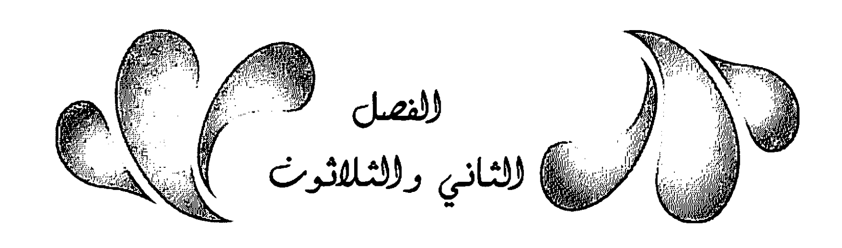
«معاك سيجارة يا معلم؟!».

ولم يكن جاره معلمًا، بل كان أجيرًا فقيرًا من هؤلاء الذين سال لعابهم لعرضه السخي، فبان على وجه الرجل ارتباك شديد مغموس في سعادة لم تخف على عبد الموجود، وسرعان ما امتدت إليه عشرات الأيدي بعشرات السجائر، ولم يستطع أن يكتم فرحته، فتهلل وجهه بابتسامة واسعة، وخفق قلبه وهو يميل على يد قدمت له عود ثقاب في حماس واحترام، وقال في صوت خافت:

«أصلي بطلت الجوزة من يوم الدكتور ما قال لي صدرك تعبان يا عبد الموجود!».

وعلت أصوات متحمسة:

«سلامتك يا معلم... ألف سلامة!».



الفصل الثاني والثلاثون

قال حنفي ساخرًا وهو يرمق عبد الموجود:

«بقى يعني انت جاي تاخد الرجالة يشتغلوا على المركب؟!».

فوجئ عبد الموجود بأوراقه تنكشف فجأة أمام الجميع فتلعثم برهة، ثم واجه حنفي قائلًا في دهاء:

«يعني نجيب أغراب يا حنفي، مايهونش العيش والملح!».

وقال حنفي بإصرار غريب، وصوته يجلل في المكان:

«تفتكر لعبتك دي تخيل على حد يا عبد الموجود؟... مين علمك شغل المكر ده؟... لازم الجدع الإنجليزي اياه... والّا آني غلطان؟!».

ولم يجد عبد الموجود سوى الالتجاء للمعلم محمد الذي كان مطرقًا:

«يعني ده اسمه كلام يابا محمد؟... ده اسمه كلام؟».

فهب حنفي مقاطعًا إياه في حدة:

«شوف يا عبد الموجود، بقى ربنا عرفوه بالعقل، كلام طيب؟!».

«يا حنفي...».

«اسمعني للآخر، آني مش عيل، آني شنبي نص وشي، والرجالة دول كلهم لازم يفهموا انت عاوز إيه... آني حانقول لك كل حاجة!».

صاح رجل في ضجر:

«جرى إيه يا حنفي... الطيب احسن!».

فعاجله حنفي بالقول:

«معلش يا حسين، آني مقلتش نعملوا رضي، اصبر عليَّ حبتين... اسمعوا يا رجالة، عبد الموجود قال للظابط إمبارح ان اللي ضربني حنفي ومحمود البلطي، وأكتر من كده، الظابط قال لي آني ومحمود إن عبد الموجود قال إنه شافنا وعرفنا... وآني عارف إنه قال كده تمام!».

صرخ عبد الموجود في حدة كمن فقد السيطرة على نفسه:

«آني حلفت بالحرام من بيتي يا حنفي، ده مش كلام ده!».

وصاح فيه حنفي وهو يصوب نحوه نظرات مغيظة:

«اسمع يا عبد الموجود لما نخلص كلامي، آني ما طالبتكش بحق عرب ولا حق إنجليز... آني بس بده نقول آني فاهم، ولولا ستر ربنا كنا رحنا فيها آني وابن عمي، الحكاية مكشوفة زي عين الشمس، انت عاوز الرجالة... والرجالة إن ما اشتغلوش النهارده بكرة حايشتغلوا، الجوع كافر، ولقمة العيش تغصب ابن الأصول ينذل لابن الحرام!».

هب عبد الموجود صائحًا:

«قصدك إيه يا حنفي؟!».

«مقصديش، قصدي نقول بعلو حسي للرجالة... اللي عاوز يشتغل مع عبد الموجود محدش حايشه، ده أكل عيش!».

صرخ محمود وهو يجذب حنفي من كتفه، وكأنه يلفظ آخر أنفاسه:

«بلا كلام فارغ يا حنفي... وآدي يمين برأس السيد البلطي، إن حد من الرجالة... ...».

وقاطعه المعلم محمد في حدة وهو ينهض من مكانه:

«بس يا واد، انتوا حاتتخانقوا مع بعضيكم، اقعد يا واد يا محمود لما اخوك يخلص كلامه... اقعد باقول لك!».

أحس الرجال كأن عقولهم تتمزق، وكان أكثرهم إحساسًا بذلك هو المعلم محمد البلطي، كان حائرًا تعبًا مرهقًا، أحس فجأة وكأن سنوات عمره قد ثقلت حتى ناءت بها كتفاه، وكان مختنقًا بالغيظ والعجز... عبثًا حاول أن يجد مخرجًا، أن يجد سبيلًا إلى الطمأنينة... عز عليه أن يعيش آخر أيامه وهو يرى كل ما بناه السيد البلطي ينهار ويتداعى ويصبح أثرًا بعد عين، يصبح أنقاضًا بجوار بناء شامخ جاء من بعيد من أقصى الأرض... كانت حيرته واضحة في صوته، وعذابه يلون نبراته... على أنه وجد بعض العزاء في حديث حنفي، كان هذا يبدو قويًّا، ثائرًا، كان يتحدث في ثقة من عثر على الحل، كمن لم يعد يخيفه شيء، أو يغضبه أمر... وسواء أكان الحل على ما يشتهي المعلم محمد أو لا يشتهي، فقد كان حلًّا - على أية حال - أخرجه مما كان واقعًا فيه من حيرة... استعذب في لحظة أن يلقي إلى حنفي بكل الحمل وليكن ما يكون، فعاد يقول لولده في نبرات غريبة شدت إليه كل العيون، وارتجفت لها القلوب، حتى قلب عبد الموجود نفسه:

«اقعد يا محمود، اقعد يا بني... سيب أخوك يتصرف!».

ولـم يكـن يقصـد أن يقـول: «يتصرف»... بـل الكلمـة خرجت من أعماقـه وفرضت عليـه وجودها... فتركها معلقة أمامـه في الهواء وعاد إلى مقعده.

وعندما اسـتدار حنفي نحو عمه، وقعـت عيناه على وجهه المجعد، أيقن كل شـيء، فاندفعت الدموع إلى عينيه في تأثر لم يسـتطع إخفاءه، وحاول السـيطرة على عواطفه، فأخرج سـيجارة بيد مرتعشة، وأشعلها بسـرعة... لكنـه تنبـه إلى أنه فـي حضرة عمـه، فارتبك وخجـل وألقى بالسيجارة إلى الأرض... وصاح المعلم محمد:

«أوعى تطفيها... خد سيجارتك وكملها يا حنفي!».

تردد حنفي... وعادت عيناه تلتقيان بعيني عمه، فأحس بشيء غريب يغـزو قلبه... هم ثقيل كان عليه أن يحمله منـذ تلك اللحظة... وعندما انحنى والتقط السيجارة، أومأ عمه أن يبدأ حديثه من جديد... وكأن في هذه الإيماءة أمرًا له بأن يتقدم الصفوف!

«أكل العيـش مـش عـاوز كبر نفس، فيـه رجالة على الشـط بيدوروا علـى رغيـف لولادهم، يـوم فيه ويـوم مفيـش... ليه معطلهـم ورزقهم قدامهـم؟... يبقـى صغـر عقـل وكلام فاضـي... اتـوكل علـى اللـه يا عبد الموجود، الرجالة قدامك محدش حايشك!».

صاح رجل من وسط الرجال، وكان صوته مختنقًا:

«واحنـا يـا حنفي، وانت، وابـوك محمد، وحمـودة، والريس صابر، والمعلـم جابـر... وكل من له قارب يعمـل في قاربه إيـه... يغرقه؟... يحرقه؟...».

«وحـد اللـه يا معلم خميس وحد الله، خالـي حمودة حايتوكل على الله بعد يومين... حايروح مصر!».

صاح المعلم محمد في دهشة واستنكار:

«بتقول إيه يا واد؟!».

والتفت حنفي نحو عمه... وكانت نظرة واحدة كافية ليطرق الرجل بعدها في استسلام... لم تعد لديه قوة على الجدل!... واستطرد حنفي يقول في حنان:

«خالـي حمودة الدكاترة قالوا له مالكش عيش جنب الميه، هو رايح مصر خلاص، وحايفتح دكانة سمك، والرزق اللي نصيده، هو يبيعه... إيش قولكم في كده؟!».

صاح أحد الرجال في جذل:

«ينصر دينك!».

وقال آخر في ذهول:

«إيه الكلام ده يا حنفي... قصدك إيه؟».

«قصدي نقول كلمة ونـص، عبد الموجود فاهم كويس إن المركب حاتغرق السـوق من أول البر لآخره، وعارف كمـان وكلنا نعرفوا كده، إننـا حانضيع قدامـه ومش حانقدروا على حاجـة... خالي حمودة رايح مصـر غصـب عنه، قلنا في عقـل بالنا، كل من له قـارب يصطاد بيه اللي يقـدر عليه، ونلموا الرزق كله ونبعته على مصر في السـكة الحديد، كل يوم بيومه... خالي يبيع هناك، وكل واحد ورزقه، وهو كمان يسترزق... وبالشكل ده نقدروا نعيشوا من غير ما حد يتحكم فينا...».

وقـع عبد الموجـود في الحيـرة... وصمـت الرجال دهشـين وعاد عبـد الموجـود يرفع عينيه ليستشـف ما وراء الوجوه وأشـعل سـيجارة وراح يدخن في شراهة، ماذا يفعل، كيف يحطم ذلك الرأس الذي نطح الصخـر دون أن يتفتـت... ولـم يكن أمامه سـوى حـل واحد... فنهض فجأة، واستأذن في الانصراف... وكان متعجلًا!

وكأنمـا تخلـص حنفـي مـن حمـل ثقيـل، فعـاد إلـى الحديـث من جديد:

«صلـوا بنـا على النبي يا رجاله... الـكلام ده مش لازم يوصل بره... إحنا كتير، والرزق بتاعنا بييجي يوم بيوم، لكن المركب بتغيب لها سبع أيـام في عـرض البحر، علشـان كده عبـد الموجود مش حايسـكت... فـلازم لازم لازم نكون مفتحين... وفيـه كلمة كمان، كل اللي حايخش معانـا لازم يفهم إنه حايحوش قرشـين من رزقـه، ومفيش حاجة بتيجي بالسـاهل، سـنة، اتنين، تلاتة... وميـن عارف، يمكن نقدروا على شـرا مركب زي دي واحسـن، وزي ما عمل عبد الموجود نعملوا إحنا، بس مـا يدخلش معانا غريب... وكل شـيء وله آخـر، والقوي له اللي أقوى منه، وربنا ما ينساش عبيده أبدًا!».

كان العجب الذي سـيطر على الرجال مرتسمًا على وجوههم فبدوا جميعًا كالبلهاء... حتى حنفي نفســه، عجب أشد العجب لما قال، كان كمـن اختزن كل هذا الـكلام، كمن عثر على الحل منـذ زمان وآمن به، وجد نفسه ينطق بما لم يفكر فيه أبدًا، لكنها كانت أماني... و... ووجد نفسه يعود إلى الحديث:

«واللـي بيرمي طرحـة يرمي اتنين، واللـي بيرمي اتنيـن يرمي أربعة، وكل واحد منا يشتغل لنفسه ولعياله، والرزق نوزنوه قبل ما نبعته لخالي في مصر، والمال يتقسم بالعدل وحسب الوزن!».

وقال رجل:

«وحمودة؟!».

«خالـي حايكون له نصيب نتفقوا عليه كلنا، ولازم تفهموا إنهم مش حايحاربونـا بـس، لأ... وفـي مصر كمـان، وفي السـكة الحديد وكلها إنجليـز... لكن الأيـام أقوى منهم، والجايات أكتر مـن الرايحات، كده والّا لأ؟!».

وقال المعلم محمد بلا وعي:

«كلام مظبوط تمام، كلام زين يابن اخويا، إيش قولكم؟».

وارتفع أكثر من صوت:

«كلام زين... مفيش كده!».

وقال رجل في حماس:

«نقروا الفاتحة يا جماعة!».

فقال حنفي في حدة:

«لأ... نكتبوا ورقة!».

«ورقة؟!».

كانـت الكلمـة وكأنها غريب يقتحـم عليهم حياتهم، فاسـتنكروها، وقال المعلم محمد:



«والفاتحة ما لها يا واد... إحنا حانكفروا على آخر الزمن؟».

«ده مش كفر يابا... الزمن غدار ومحدش ضامن بكره... اللي عاوز يقف معانا يكتب الورقة، وأكثر من كده كمان، نروحوا بيها لمحامي يعملها لنا حسب الأصول!».

صاح أحدهم في استماتة:

«هي حصلت، محامي بين الرجالة يا جدعان، هو إحنا غرب يا حنفي؟!».

وقال محمود كالمسحور وعيناه معلقتان بوجه ابن عمه:

«استنى يا معلم شويه... قول يا حنفي قول!».

كان محمود مذهولًا... يشعر بحديث حنفي وهو يتساقط من بين شفتيه كأن الله هو الذي يوحي له به... غمرته الراحة فجأة، راحة عميقة عميقة... فأخذ يستمع لابن عمه وكأنه يغني موالًا لم يسمع أجمل منه...

«أيوه حصلت... محامي وورقة تنكتب، ده أكل عيش مش لعب، والكلام اللي بنقوله ده كلام صعب، إحنا ما اتعودناش في الشط على كده، إنما كل زمن وله كلامه... أيام أبويا السيد مكانش يحصل حاجة من دي إنما دلوقت حصل... حصل إن عبد الموجود، وآهو كان واحد منا وعلينا شارك رجل غريب من آخر الدنيا، وحب يقطع عيشنا ويجوع ولادنا!».

وقال الرجل متمسكًا برأيه:

«برضه عيب نكتبوا ورقة يا جدعان... عيب!».



وعاد حنفي يقول في إصرار:

«مـا عيب إلَّا العيب... ماتفرض يا أخي إني حانسـرقك أو يسـرقك خالي حمودة، تاخد حقك منه إزاي؟... هيه، تاخده إزاي؟!».

والتفـت حنفـي نحو خالـه، كـان حمـودة شـاحب الوجـه مطرقًا وكأنه سـيفارق الحياة بعـد يوميـن، قـد تشابكـت أصابعـه في عصبية، وما إن التقت عينا حنفي بعينيه حتى خفق قلبه بالحب... على أن حنفي سـرعان مـا حـول عينيه إلى وجـه عمـه... كان العجـوز صامتًـا هادئ الوجه... وكان محمود ذاهلًا، والرجال قد غرقوا في الحديث... وشيئًا فشـيئًا سـرى الارتيـاح إلـى نفوسـهم، وعرفـت البسـمات طريقها إلى وجوههم، وبدا لهم المسـتقبل في صورة جديـدة، فأخذوا ينظرون إلى السـفينة الراسـية بلا ضيق كأنهـم يعلمون أنهم سـينتصرون... ومضت لحظـات، وأصبحت اللحظات دقائق، والدقائق سـاعة... وأخذ النهار يمضي بهم دون أن يشـعروا، وقرص الشـمس ينزلق في خفـة مسـترقًا خطـاه نحو الغـرب، وكأنـه يجـذب من الشـرق غلالـة سـوداء يغطـي بهـا الدنيـا إلـى حيـن... وضحك رجـل، ورد عليـه جـاره بضحكـة، وسـرت العدوى إلـى الرجال فراحوا يصيحون في مـرح، ويغرقون في ضحك عابث، وقرص الشـمس الدامي يلامس سـطح المياه من بعيد، ويلـون السـماء والمـاء بلـون أحمـر قـان... وتسـرب الانبسـاط إلـى النفـوس... واختفـى التوتـر وزال... حتـى محمـود والمعلـم محمـد ابتسما، وضحكا وتحادثا... وأخذ حمودة يربت على صدره في سعادة وكأنـه يمنيـه بالشـفاء، ويتلقى التهانـي مبتسـمًا، ويتناقش مـع الرجال ويعرض رأيه...

وجه واحد وسط كل هذه الوجوه ظل جامدًا... تبدو في عينيه نظرة تنم عن عزم غريب، كان وجه حنفي ينطق بما يعتمل في ذهنه من أفكار... إحساس ثقيل بالمسئولية يجثم فوق صدره ويغذي دماءه بحرارة دافئة... على أن الذكرى وجدت لنفسها متنفسًا عبر أكوام الأفكار والمشاعر التي كانت تسيطر عليه... فاستدار برأسه ناحية القصر، ورآه جاثمًا فوق حافة البحر، شامخًا فوق الصخرة العاتية... فجذبه الشوق من مكانه جذبًا، فنهض على موعد مع الرجال... وما إن غادر الرصيف، واستقبل الطريق بوجهه، حتى كان قرص الشمس قد اختفى، وسحب وراءه رداء الليل الأسود وغطى بها الدنيا لتنام.



الفصل الثالث والثلاثون

وصـل حنفي إلى الشـاطئ المهجور... وترامى أمامه جسـر الرمال الضيـق ملتقيًـا بالميـاه في صمـت كئيب... وقـف حائرًا لا يـدري ماذا يفعـل، انتابـه خجـل، غيـر أن الإحسـاس كان قويًـا متملكًا من نفسـه، وتصاعد إلى ذهنه سـؤال بدا له سخيفًا محيرًا: «هل رضي أبوه عما قاله للرجال!»... لكنه سـرعان ما تسـاءل في غضب ونفاد صبر: «وما الذي كان يفعله أبوه لو كان حيًّا؟...».

ظـل منتصبًا عند الشـاطئ بجسـده الفارع ورأسـه الكبيـر، وقد عقد ذراعيه فوق صدره، واكتسى وجهه بطبقة صخرية... ثم برقت في ذهنه حقيقة غريبة ارتاحت لها نفسه واطمأنت، حقيقة جاءته على غير انتظار وكأنهـا وحي هبط عليه من السـماء... «أن الزمن غيـر الزمن، والرجال غير الرجال!».

فجـأة... أصبـح الشـاطئ الـذي اكتسـى في ذهنـه بحلـة بهيجة من الأسـاطير والحكايـات عاريًـا قفـرًا، رآه مهجـورًا يحيـط بـه الصمـت والجمود ويعشش الفضاء من حوله... والسيد البلطي غير موجود؟!

وهوى قلبه إلى قدميه...

ذكـرى أبيه هي الشـيء القوي فـي حياته... قوته اسـتمدها من تلك الأسـاطير التـي يحكونها عنه... ورغـم أنه لا يذكر وجه أبيـه، فإنه كان

يحس إحساسًا عميقًا أن السيد البلطي كان يعيش معه طوال عمره، في ليله ونهاره، في حزنه وفرحه، في ساعات يأسه وساعات أمله... كان كالضمير لا يفارقه... وكان حيًّا لم يمت، ما إن يشعر بالضيق أو يفتقد الأمان حتى يذهب إلى الشاطئ... هناك يتنسم رائحته، ويرى في وضوح جلي وجهه الذي شكله خياله وصاغه في أبهى صورة عرفها لإنسان... شيء كالوحي كان يهبط عليه كلما خاض في المياه وغاص في لجتها، ورجفة قدسية كانت تنتابه كلما نادى في الفضاء: «يابا... يا سيد يا بلطي!»... ويحس رجع الصدى وكأنه رد على ندائه... بل كثيرًا ما توهم - وإن كان ينكر ذلك - في لحظات فيه ملبيًا نداءه... كان السيد البلطي حيًّا في خياله وقلبه، حقيقة حافظ عليها وسعد بها طوال عمره... لكن الأيام جاءته بما لم يفكر فيه السيد البلطي... وكان عليه وحده أن يجابه أحداثها!

وأحس حنفي في تلك اللحظة - فقط - أن أباه قد مات!

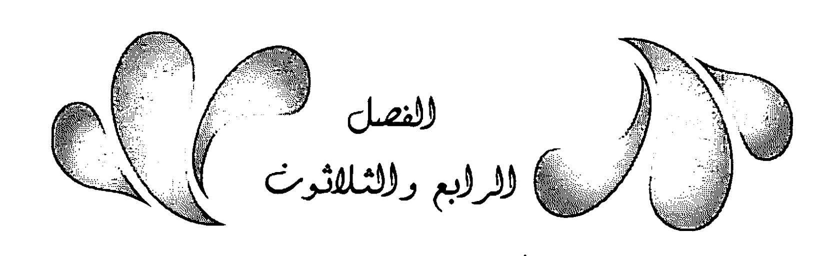
فارتجف!...

وغص حلقه... ولم يبق أمامه بعد ذلك سوى صخور ناتئة ومياه منبسطة، وصخرة رأس التين الهائلة تتلقى في صمت نطح الأمواج، وترقب في جلال انحسار البحر عنها!

فاض قلبه بالحنين، وقال - لأول مرة في حياته - وهو يستدير مبتعدًا عن الشاطئ في خطوات ثقيلة:

«**الله يرحمك يابا!**».





الفصل الرابع والثلاثون

صاح طفل بصوت رفيع ثاقب:

«عمي حنفي جه... عمي حنفي جه!».

ورفعت عائشة عينيها لترى شبح أخيها هائلًا عملاقًا يكاد أن يبتلع مدخل الزقاق بطوله وعرضه... فانتفضت في سعادة، وزفرت من أعماقها، ثم اندفعت تعدو بلا وعي وهي تصيح في جذل كطفل غاب عنه أبوه، ثم عاد إليه بعد سفر طويل.

وقد أدهش حنفي ما رآه من علامات السعادة المرتسمة على وجه شقيقته، كان شيئًا غريبًا ذلك البريق الذي راح يطل من عينيها، بريق أخاذ مضيء، وراحة عميقة كانت وكأنها رسمت تقاطيع وجهها من جديد.

فرغم الضوء الخافت الذي تسرب إلى الزقاق من نوافذ بيوته المفتوحة، فإنه استطاع أن يلمح في الوجه الذي طالما طالعه كئيبًا حزينًا لمسة سعادة لا تخطئها العين، كانت عائشة قد اندفعت - على غير ما تعودت أو تعود أهل الزقاق - لتلقي بنفسها على صدره، وتحيط عنقه بذراعيها وهي تجهش بالبكاء... بينما راح صوت أم حنفي يسري في جو المكان ملهوفًا، وهي تتحسس طريقها منادية:

«يـا حنفي، يا ضنايا... اتأخرت على امك قـوي يا حنفي، ليه يا ابني اتأخرت عليه... حنفي!».

واختنق صوت العجوز وهي تتحسس بكفين مرتجفتين وجه ولدها الذي انحنى عليها ليغمر وجهها ويديها بالقبلات... وتجمعت النسوة، ورحـن يزغردن ويسـلمن ويهنئـن... فرفع حنفـي وجهه لتلتقـي عيناه بعيني زوبة وقد كسـتهما دموع مزغردة، وامتـدت يده دون تردد لتلتقط يدهـا وتضغـط عليها في قـوة وثقة، وأطل مـن عينيه حديـث له معنى، حديـث صامت على أنه ثرثـار... وأرخت زوبة عينيهـا في خجل كمن فهـم كل شـيء... وخفق قلبها خفقانًا شـديدًا، وشـحب وجهها عندما اقترب منها حنفي حتى كاد جسـده أن يلامس جسدها، وهمس بصوت لم تسمعه سوى عائشة:

«أبويا صادق رجع يا زوبة؟!».

قالت وهي تولي عنه وقد تضرج وجهها بعد شحوب:

«لأ لسه... زمانه جاي!».

وغمرت ابتسـامة سـعيدة وجه عائشـة وهي تجذب زوبـة من يدها، وتسير بها بعيدًا عن الضجة... ثم دلفت معها إلى فناء البيت، وهمست في جزل وسعادة وهي تقفز في مكانها مصفقة:

«ألف مبروك يا زوبة... ألف مبروك يا اختي!».

«يوه، إخص عليكي يا عيشة، على إيه؟!».

ضحكت عائشة وهي تقول:

«يا لهوي على الكهن يا اخواتي، بت... حطي عينك في عينيه كده... أمال كان بيسأل على أبويا صادق ليه؟!».



ابتسمت زوبة وهي تندفع نحو عائشة، وتلقي بنفسها فوق صدرها، ثم قالت بصوت حالم:

«ان شاء الله يا بت خالتي... ان شاء الله يا رب!».

وقالت عائشة وهي تدفعها إلى بعيد، وتحملق في وجهها:

«عارفة يا زوبة، وحياة النبي آني قلبي حاسس إن الليلة حاتكون أفراح من أولها لآخرها!».

غمزت زوبة بعينيها وهي تقول مداعبة:

«أبو السيد؟... السيد أفندي؟!».

أحست كل منهما فجأة وكأنها تعرت بغير خجل أمام صاحبتها... ووصلتهما من الخارج أصوات النسوة وهي تقترب وتدنو، ودلف حنفي إلى الفناء باسمًا، وقال وهو يتجه نحو حجرته في خطوات سريعة:

«عاوز نشرب كباية شاي يا عيشة!».

«حاضر يا خويا».

جذبت زوبة عائشة نحو حجرتها وهي تقول في همس:

«والنبي ما حد يعمل له الشاي غيري من الليلة!».

وسرعان ما انحنت على الموقد، وأشعلت الثقاب، وراحت تعد الشاي... وخرجت عائشة إلى الفناء لتأتي بالمياه، عندما صك سمعها صوت قفز له قلبها وركض وأخذ يضرب بخفقاته جدران صدرها في عنف... كان السيد أفندي الباشتمرجي يحدث أمها التي اتخذت مكانها عند عتبة الباب من جديد:



«مساء الخير يا خالتي...».

«يمسيك بالنور والعافية يا سي السيد أفندي!».

«هو حنفي لسه مارجعش؟».

«رجع يا خويا من غير شر... اتفضل آهو جوه!».

وسرعان ما ارتفع صوت حنفي من الداخل:

«اتفضل يا سيد أفندي... أهلًا وسهلًا!».

تنحنح السيد أفندي وهو يخطو إلى الداخل خافض البصر... ورغم أنه مر بعائشة وهي تقف وسط الفناء، فإنه لم يحاول أن يسترق السمع أو يختلس النظر... كان ثابتًا يعرف طريقه هذه المرة... وما إن دلف إلى الحجرة، واختفى وراء بابها... حتى دنت عائشة من الباب في خفة، وراحت تتسمع، ودقات قلبها تصم أذنيها... وجاءها صوته بعد لحظات خيل إليها أنها سنوات طوال:

«بقى صلي بنا على الحبيب النبي يا حنفي!».

فوجئ حنفي بلهجة الرجل، فقال في دهشة محاولًا أن يستشف ما وراء كلماته:

«ألف صلا على الحبيب يا سيد أفندي... خير مالك؟!».

«بقى شوف يا سيدي...».

تردد السيد أفندي للحظات... كان جالسًا أمام حنفي منكس الرأس، يستلقي من ورائه نور المصباح الموضوع فوق حافة الدولاب ليغمر ظهره ويكسو وجهه بطبقة من الظلال... ونشط ذهن حنفي وهو يرقب

الرجل الصامت الجالس أمامه... وأحس بالضيق يغزو مشاعره... كان قد قرر أمرًا، وكان في حاجة لأن يخلو لنفسه ولو لدقائق معدودة... في لحظة، اعتزم أن يطلب زوبة هذا المساء!... ولو لم يتمالك نفسه وهو في الزقاق وسط النسوة، لأخبرها بما اعتزم عليه على مسمع من الجميع... وأحس بالملل وهو يرقب وجه السيد أفندي المكتسي بالظلال، وتنحنح وهو يرسم على وجهه ابتسامة... ثم قال:

«خير يا سيد أفندي... فيه حاجه شاغلاك؟!».

وقال السيد أفندي بصوت مرتجف:

«قوي يا حنفي... ربك والحق مش عارف نقولها إزاي!».

«اتكلم يا سيد أفندي، داحنا اخوات!».

«ما هو ده اللي مطمعني!».

«خلاص... ومستني إيه ما تتكلم!».

«اسمع، اسمع يا حنفي... آني طالب القرب!».

ارتجف حنفي من قمة رأسه إلى أخمص قدميه حتى أنَّ السرير وارتجفت مفاصله لارتجافه... وتصبب العرق البارد من جسده فغمر صدره وظهره وتساقط من تحت إبطيه... فأطرق لا يدري ماذا يقول... كان حائرًا غير مصدق... لو أنهم قالوا له إن سفينة عبد الموجود حمدان قد غرقت لما اهتزت في جسده شعرة، ولو أنهم قالوا له إنه كل ما مضى من مشاكل كان حلمًا لصدق... أما أن يطلب رجل يد عائشة، فهذا ما قد طمست الأيام والقلق والانتظار معالم الأمل فيه... فاختفى!

«يعني ساكت يا حنفي؟!».

رفع حنفي عينيه إلى السيد أفندي، وسأل في صوت هادئ:

«عاوز عيشة يا سيد أفندي؟!».

«أيوه يا حنفي... أيوه عاوزها على سنة الله ورسوله... والَّا آني مش قد المقام يعني؟!».

كان صمت حنفي قد أفقد السيد أفندي اتزانه وبعث الخوف في نفسه، فنطق بالجملة بلا وعي... على أنه عندما نظر إلى عيني حنفي المشرقتين، عاد يحس الأمان من جديد... فقال:

«إيش قولك يا حنفي؟!».

«كلمت أبويا محمد؟...».

«قلت ناخد رأيك الأول...».

زفر حنفي، وقدم للسيد أفندي سيجارة، وأشعل لنفسه واحدة، ثم قال وهو ينفث دخانها في راحة كمن أزيح من فوق صدره حمل أثقل عمره بالأسى:

«عيشة أختك يا سيد أفندي زي ما هي أختي... ومهما اتقدم لها مش حانطول واحد زيك، إنت منا وعلينا... وخيرك على الكبير فينا قبل الصغير!».

كاد السيد أفندي أن يرقص طربًا لحديث حنفي، فقال في مرح:

«عيب يا حنفي داحنا أهل... يعني إنت موافق؟».

«من ناحيتي، ألف نهار أبيض لما نناسب واحد زيك... إنما برضه الأصول إننا نشاور أبويا محمد... والَّا انت إيه رأيك؟!».

«تمام تمام... يعني إنت موافق؟!».

«الله... جرى إيه يا راجل؟... ما تصلي على الحبيب أمال!».

«ألف صلا على سيدنا محمد...».

قالها السيد أفندي... ودلفت عائشة من الباب تحمل أكواب الشاي بيدين مرتجفتين ووجه شاحب سعيد، فخفض الرجل بصره، ورفع إليها حنفي عينين حانيتين... قاوم رغبة عارمة في مداعبتها، وفي إخبارها بالأمر كله... بل قاوم رغبة في أن يقبلها ويضمها إلى صدره وأن يقول لها **«ألف مبروك يا عيشة، ربنا يسعدك يا اختي!»**... وما كاد السيد أفندي يمد يده إلى كوب الشاي حتى انسحبت عائشة وهي تفر إلى الخارج وهي تقول في اضطراب من لم يتحمل صمت الحجرة وما فيها من أسرار:

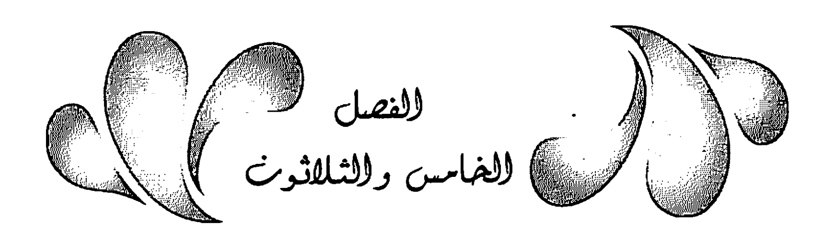
«سي محمود ابن عمي جه...».

فصاح حنفي فيها وهي تغادر الحجرة، وقد أيقن أنها سمعت وعلمت:

«وكباية الشاي بتاعتي يا بت؟!».

ثم انطلق ضاحكًا ملء صدره... وقال وهو يربت على كتف السيد أفندي:

«ألف ليلة بيضة يا سيد أفندي... داحنا اتشرفنا وحياة النبي!».



الفصل الخامس والثلاثون

نهض حنفي والسيد أفندي بعد أن شربا الشاي ليلحقا بالرجال الذين تجمعوا في بيت المعلم محمد... كان محمود جالسًا بجوار أبيه، وعن يساره جلس المعلم صادق وحمودة... بينما تناثر الباقون في أرجاء الحجرة الرحبة.

وما إن انتهى المعلم محمد من مصافحة السيد أفندي، حتى صاح في حنفي ضاحكًا:

«إزاي يا واد يا حنفي تخبي عليَّ المدة دي كلها إن خالك مسافر؟!».

اندفع السيد أفندي يقول في مرح:

«هو حمودة ناوي على السفر؟!».

وقال حمودة ضاحكًا:

«إن شاء الله يا سيد أفندي... علشان منزعلكش بس!».

نهض السيد أفندي في حماس وصافح حمودة في حرارة وقد اكتسى وجهه بالسعادة وهو يردد:

«ألف نهار أبيض، ألف ليلة بيضة... حاتوحشنا صحيح إنما يبقى لنا بيت جنب أم هاشم... يا سلام، كل شيء وله أوان يا رجالة!».

ابتسم حنفي ابتسامة مشرقة، وراح يتعجل الحديث، ويقاوم رغبته في أن يعلن للجميع رغبة السيد أفندي، ويطلب زوبة، ويسمع بأذنيه زغاريد فرحه... فقال بسرعة والكلمات تتراقص على شفتيه:

«صلي بنا على النبي يا عمي... فيه كلمتين لازم ينقالوا قبل أيها حاجة تانية... آني كل اللي حيلتي قرشين حانديهم لخالي... واللي عنده قرشين زيادة يبقى خير وبركة... الشحن من هنا لمصر يوماتي آني سألت قالوا لي كده... والَّا إيه يا خالي حمودة؟».

وقال حمودة:

«هو يوم الجمعة بس اللي مافيهوش شحن... والمعلم جابر السماك قال لي إن الرزق في مصر واسع، البلد كبيرة، والسعر فيها عال!».

فقال المعلم محمد وكأنه ينفض عن كاهله كل شيء:

«شوفوا يا ولاد، إنتم دبروا أموركم، وربنا معاكم!».

فقال حنفي:

«ما هي الشورة برضه شورتك، والكلمة كلمتك يابا!».

«الشورة شورتك إنت يا حنفي... وآهو محمود أخوك، وآني ما عدتش حانطلع بعد النهارده بالفلوكة... يا اللا يا حسن الختام، والَّا إيه يا محمود؟!».

قال محمود بنبرات حزينة يشوبها الحماس والإخلاص:

«كلامك ماشي يابا!».

وقال حنفي:

«وآني حانطلع بقارب خالي حمودة».

فقال المعلم محمد:

«كلام زين... إيش قولك يا حمودة».

فرد حمودة بحماس:

«القول ما قاله حنفي يابا... وآني بعت له القارب والشبكتين بالقرشين اللي عنده، سوى كتير سوى شوية!».

اكتسى وجه حنفي بفرح غامر، وتهللت ملامحه وهو يقول:

«وناوي تتوكل إمتى يا خالي؟».

فقال حمودة:

«آني اتفقت مع أبويا محمد خلاص... من بكرة حانروح مصر وفي جيبي قرشين، نجس النبض ونشوف الجو ماشي إزاي، وببركة السيدة والحسين، وبإذن الله، نأجروا دكانة على قد الحال... ونشوف لنا أوضة ننام فيها ويا العيال، وبعدين نرحلوا ونبتدي كلنا على بركة الله!».

وقال الريس صادق:

«وحاتعملوا إيه مع الرجالة يا حنفي؟!».

«أول ما خالي يرجع من مصر طوالي، نشوفوا لنا واحد محامي يعمل لنا الورقة دي... ونتوكل على الله بعدها... وبكرة حانروح السكة الحديد نسأل عن أسعار الشحن والذي منه... وعلى ما يرجع خالي كل حاجة حاتكون جاهزة بإذن الله تعالى!».



اضطجع المعلم محمد في مكانه، وربع قدميه وهو يشعل سيجارة ويرمق محمودًا بنظرة حانية... ثم قال:

«فضونا بقى من السيرة دي، الصباح رباح... وفيه كلمتين بدي نقولهم ما دمتم كلكم موجودين!».

ابتسم حنفي وهو يضم كفيه ويقول متعجلًا الحديث ناقلًا بصره ما بين عمه والمعلم صادق... كان قلبه يخفق، وكلماته تتلاحق:

«وآني عندي كلمتين مهمين قوي يابا محمد!».

«خير يا حنفي!».

«أولنا والصلاة على النبي... السيد أفندي طالب عيشة... إيش قولك يا بويا؟!».

اعتدل المعلم محمد في جلسته، وتهلل وجهه بفرح غامر وهو يقول:

«ألف ليلة بيضة يا ولاد... راجل ولا كل الرجالة!... مبروك يا سيد أفندي، على خيرة الله!».

قال السيد أفندي في سعادة وقد تضرج وجهه بالحمرة:

«ما دام كده نقروا الفاتحة دلوقت!».

فقال المعلم محمد:

«وعلشان الفاتحة تبقى فتحتين... آني اتفقت مع محمود على حاجة!».

ثم التفت إلى المعلم صادق وربت على كتفه وهو يستطرد:



«إيش قولك يا صادق في زوبة لمحمود؟!».

ابتسم المعلم صادق وهو يردد النظر بين الرجال... ثم فرد كفه ليلتقي بكف المعلم محمد قائلًا:

«خدامته يا معلمي، زوبة بنتك زي ما محمود ابني ... الفاتحة!».

وصاح المعلم محمد في نشوة:

«حط إيديك في إيد نسيبك يا واد يا حنفي!».

وسرعان ما التقط السيد أفندي كف حنفي، وضغط عليها في قوة... وران الصمت على الحجرة، والرجال يقرءون الفاتحة في همهمات خافتة!

أحس حنفي بدوار كاد يفقده توازنه... فتح فمه لكي يتكلم، فوقفت الكلمات في حلقه، وبقي فمه مفتوحًا... تلاحقت الكلمات والأحداث فما تركت له فرصة ... نهض الرجال فصافحوه وصافحوا السيد أفندي، وما دري ... انطلقت الزغاريد فدوت في أرجاء الزقاق، وهو في مكانه مذهول لا يعي ... دارت أكواب الشربات على الرجال وشربوا، وما ذاق للشربات طعمًا ... أحس كأن يدًا قاسية جذبته من مكانه على غير انتظار وألقت به في فضاء لا أول له ولا آخر ... فماذا يصنع؟! ... حلم، حلم بغيض ثقيل ... كابوس رهيب يكتم أنفاسه، وأصابه غثيان شديد ... ضحكات أهله هذه التي تصل إلى أذنيه أم قهقهات شياطين ليس في قلبها رحمة!! ... أفاق على صوت عمه وهو يصيح به:

«جرى إيه يا واد يا حنفي ... إنت غرقان في إيه؟!»

وصاح حمودة نشوان:



«عاوز يتجوز يابا ... عاوز يتجوز، والله لنجوزه ست الحسن!»

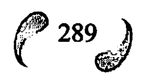
كلمات كالسم، أو كأطراف سيوف مرهفة، أو كسكاكين حامية تقطع من قلبه وتلقي إلى الذئاب... محمود مطرق صامت، لكنه مبتسم، طوفان من الكراهية يغمر مشاعره ... خطفت زوبة في لحظة ... مجرد لحظة قاسية رعناء ... لماذا لم يطلبها قبل عمه؟ ... ماذا يستطيع أن يفعل؟! أيصرخ باكيًا ويقول إنها لي؟! ... ماذا يقول عمه وقتها؟ ... وماذا يقول ابن عمه؟ ... وماذا يقول الرجال؟... حكم قاس، وقلب يتهاوى في ذلة وانكسار ليسقط مضرجًا بلا حول ولا طول!

«يا واد يا حنفي!... يا ليلتك بيضة... إنت يا واد ما قلتش لابن عمك مبروك!».

رفع رأسه إلى محمود مرة أخرى... وكان هذا باسمًا... كأنه لم يحب، أو كأنه طوى في أعماقه قصة حب واستسلم فجأة للحياة!... من يدري؟! رسم ابتسامة على شفتيه ونهض، ونهض محمود، فمد له يده، وفرد محمود ذراعيه، فألقى بنفسه فوق صدر ابن عمه... وصر على أسنانه حتى يمنع الدمع الطافر في قوة كالطوفان... أحاط محمودًا بذراعيه، وتمنى لو يبكي، لو يصرخ، لو يتوسل لابن عمه قائلًا له: «احمني وقف بجواري كما حميتك ووقفت بجوارك... كما فعلت معك بالأمس، بالأمس فقط، عندما حملت جسدك المتهاوي وأوصلته إلى البيت!».

همس محمود في حب خالص:

«عقبال ما نفرح بيك يا حنفي!».



وابتسم حنفي وهو يقول في أسى هامس:

«آني... آني اتجوزت خلاص يا محمود... اتجوزت العيلة!».

لا يـدري كيـف قال ذلك... على أنه أحس بشـيء مـن الراحة يغزو صدره... فرحب به بلا تردد، وعاد إلى مقعده وأشعل سيجارة!



في الفجر...

ترامى صوت المؤذن من بعيد... فتأوهت أم حنفي وهي تنهض، وما كادت تفتح فمها وهي تتحسس بعينها جسد ولدها حتى شهقت في دهشة... كان حنفي متربعًا في مكانه وهو يتثاءب... ولاحقت كلماته كلماتها، قال في صوت خفيض:

«يا عيشة... عيشة قومي اعملي الشاي يا اختي!».

ونهضت عائشة مسرعة... وتدلى فك أم حنفي وهي تقلب النظر بين ولدها وابنتها... ثم تمالكت نفسها وهي تقول:

«حنفي...».

قال حنفي في هدوء وصبر:

«بلاش سيرة الجواز يا امه... بلاش خالص!».

ما كادت تفتح فمها بالاحتجاج... حتى كان حنفي قد نهض من مكانه، وغادر الحجرة، وعبر الفناء مسرعًا إلى حيث كانت أخته واقفة... وسرعان ما انحنى أمامها وهي تصب المياه على يديه... بينما جاءه صوت أمه وهي تتمتم في يأس بالغ:

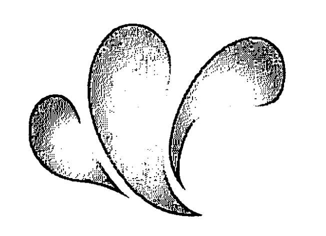
«والنبي خاوى، وحياة النبي خاوى... حاتاخده مني الجنيه زي ماخدت أبوه... يا رب!».

ومرت الدقائق مسرعة... الدقات على الأبواب، وأصوات المواقد، وسعلات الرجال، والنداءات... وخرج من الزقاق رجل، وثان وثالث... وألقى حنفي بشبكته فوق كتفه... وغادر الحجرة دون أن ينظر خلفه، ثم خطا إلى الزقاق، وعبره مسرعًا... وانثنى إلى اليمين، ثم إلى اليسار... واقترب من باب الرصيف، وزفر وهو يعبره إلى الداخل.... واتجه بعدها إلى قارب حمودة وقفز إليه... أمسك بالمجدافين، وراح يجدف في قوة... وانزلق القارب على سطح المياه، ثم أخذ يسبح مسرعًا مسرعًا... حتى إذا استقبلت مقدمته مياه الميناء الممتدة المنبسطة... استدار حنفي إلى الخلف، ولمح محمودًا وهو يجدف في القارب الذي عاش فوقه سنوات طويلة... وكان ابن عمه يغني في ضوء الفجر الشاحب:

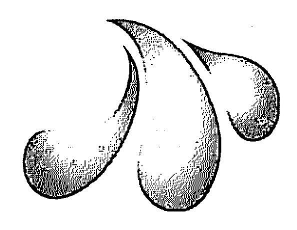
يا عيني دمعك ضناني من البكا والنوح

ما انت اللي كنت السبب ليه نظرتك بتروح

للي عشقته... وخلى القلب بات مجروح



الفهرس



من مؤلفات

الأستاذ

صالح مرسي

بنهضة مصر

- زقاق السيد البلطي، رواية.
- دموع في عيون وقحة
  رواية (من ملفات المخابرات المصرية).
- الصعود إلى الهاوية
  رواية (من ملفات المخابرات المصرية).
- السجين، رواية.


دار نهضة مصر
للنشر